

جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم
والتعليم الفنى
قطاع الكتب

واإسلاماه



للصف الثانى الثانوى

طبعة ٢٠١٧-٢٠١٨م



جمهورية مصر العربية
وزارة التربية والتعليم
والتعليم الفنى
قطاع الكتب



مركز تطوير المناهج
والمواد التعليمية

وا إسلاماه

الصف الثاني الثانوي

تأليف

على أحمد باكثير

الإعداد التربوى

د/ أحمد السعيد شلبى
د/ إسماعيل محمد عبد العاطى
د/ كمال عوض الله عبد الجواد
د/ سعيد عبد الحميد عبد القادر

الإشراف التربوى

مركز تطوير المناهج والمواد التعليمية

٢٠١٧ - ٢٠١٨م


فريق العمل
CCIMD
رئيس قسم التكنولوجيا
حنان محمد دراج
التحرير والاخراج
هدى سيد أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذه قصـة تجلـو صفحـة رائعـة مـن صفحـات التاريـخ المـصرى فى عهد من أخصـب عهـوده وأحفلهـا بالحـوادث الكـبرى والعـبر الجـلى، يطـل منهـا القارئ عـلى المجتمـع الإسـلامي في أهـم بـلاده مـن نهـر السـند إلى نهـر النيـل، وهـو يسـتيقظ مـن سـباته الطويـل عـلى صليـل سـيوف المغيريـن عليـه مـن تتـار الـشرق و صليبـى الغـرب، فيهـب للكفـاح والدفـاع عـن أنفـس مـا عنـده مـن تـراث الديـن والدنيـا.

ويشـاء اللـه أن تحمـل مـصر لـواء الزعامـة فى هـذا الجهـاد الكبـير، فتحمـى تـراث الإسـلام المجيـد بيومـين مـن أيامهـا عظيمـين كلاهـما لـه مـا بعـده: يـوم الصليبيـين فى فارسـكور، ويـوم التتـار فى عـين جالـوت.

وبطلهـا الملـك المظفـر قطـز وتضحيتـه، وحنكتـه[1] السياسـية، وكفايتـه الإداريـة، وإخلاصـه فى خدمـة الديـن والوطـن مثـلا عاليـا للحاكـم المصلـح، والرجـل الكامـل.

وهـى بعـد شـهادة ناطقـة بـأن فى هـذا الشـعب الوديـع الـذى يسـكن عـلى ضفـاف النيـل قـوة كامنـة إذا وجـدت مـن يحسـن اسـتثارتها والانتفـاع بهـا أتـت بالعجائـب، وقامـت بالمعجـزات.

المؤلف

---

١ تجاربه.

المحتويات



الفصل الأول

قال السلطان جلال الدين ذات ليلة للأمير ممدود ابن عمه وزوج أخته، وكان يلاعبه الشطرنج فى قصره بغزنة: «غفر الله لأبى وسامحه! ما كان أغناه عن التحرش بهذه القبائل التترية المتوحشة، إذن لبقيت تائهة فى جبال الصين وقفارها، ولظل بيننا وبينهم سد منيع»

قال ممدود: حسبه أنه جاد بنفسه فى سبيل الدفاع عن بلاد الإسلام فقد ظل يقاتلهم ويجالدهم جلادًا لا هوادة فيه، إلى أن كبا به الحظ، فمات شريدًا وحيدًا فى جزيرة نائية.

ليت الأمر ينتهى عند جوده بنفسه، إذن لبكينا ملكًا عظيمًا عز علينا فراقه، واحتسبناه عند الله والدًا كريمًا آلمنا فقده، ولكن لتصرفه هذا ذيولا لا أحسبها تنتهى فهؤلاء التتار رسل الدمار والخراب، وطلائع الفساد، لا يدخلون مدينة حتى يدمروها ويأتوا فيها على الأخضر واليابس، ولا يتمكنون من أمة حتى يقتلوا رجالها، ويذبحوا أطفالها، ويبقروا بطون حواملها، ويهتكوا أعراض نسائها.

وهنا طغى البكاء على جلال الدين، وعاقه برهة عن الاستمرار فى كلامه، ففهم ممدود ما جال بخاطره، ولم يلبث أن شاركه فى البكاء فانخرطا [1] فيه، وما كان بكاؤهما لأمر هيِّن، فقد تذاكرا ما وقع لنسوة من أهلهما فيهن أم خوارزم شاه وأخواته، فقد بعثهن خوارزم شاه من الرى، حين تفرق عنه عسكره وأيقن بالهزيمة، ليلحقن بجلال الدين فى غزنة، وبعث معهن أمواله وذخائره، التى لم يسمع بمثلها، فاتصل ذلك بعلم التتار فتعقبوهن وقبضوا عليهن فى الطريق، فأرسلوهن مع الذخائر والأموال إلى جنكيز خان بسمرقند.

ومسح جلال الدين دموعه وطفق يقول: «أواه يا ممدود، ليس فى الدنيا مصيبة أعظم من مصيبتنا، أبعد العز الرفيع، والحجاب المنيع، تساق والدة خوارزم شاه وأخواته إلى طاغية التتار؟! كل فاجعة فى الحياة تهون إلا هذه، أية لذة تبقى فى العيش بعد تركان خاتون؟ ليت شعرى ما حالهن هناك؟! كيف يعشن بين أولئك الوحوش؟ ياليت أبى قتلهن بيده، أو وأدهن فى التراب، أو ألقاهن فى اليم، خيرًا من أن يقعن سبايا فى أيدى القوم، ويلقين الذل والهوان عندهم، وما أشك فى أنه مات فى الجزيرة غمًّا حين بلغه أمرهن.

– الله لهن يامولاى! لعل الله يستنقذهن من أيديهم بسيفك وسيوفنا معك.

– هيهات يا ممدود! أبعد أن دانت لهم خراسان كلها، ودخلوا الرى وملكوا همدان، نطمع فى أن نغلبهم بسيوفنا ونجليهم عن بلادنا؟! لقد كان لوالدى عشرون ألفا من الفرسان فى بخارى،

١ تماديا فى البكاء واشتدا.

وخمسون ألفا فى سمرقند ، وأضعافها معه ، فما أغنت تلك الجحافل الجرارة عنه شيئا ، وهو من هو فى شجاعته وبأسه ، ونفوذه وصرامته ، فما ظنك بى وأنا دونه فى كل شىء ، وقد قوى التتار وعظم سلطانهم فى البلاد؟!

– إنك ابن خوارزم شاه ، ووارث ملكه وخليفته على بلاده وما يكون لك أن تيأس من هزيمة عدوه ، وطرده من بلاد رعاياه .

ولقد كانت الحرب بين أبيك وبين هؤلاء سجالا [1] : فتارة يهزمهم ، وتارة يهزمونه ، حتى نفذ القضاء فيه لأمر طواه الله فى علمه ، فمات شهيدًا فى جزيرة نائية ، ولكن لم يمت سره فهو حى فيك ، ومن يدرى لعل الله ينصر بك الإسلام والمسلمين ، ويجعل نهاية الأعداء على يديك .

– إن خليفة المسلمين وملوكهم وأمراءهم فى بغداد ومصر والشام ، يعلمون بما حصل ببلادنا من نكبة التتار ، وقد استنجد بهم أبى مرارًا فلم ينجدوه ولم يصغوا لندائه ، فدعهم يذوقوا من وبالهم ما ذقنا ، وحسبي أني سأحصن حدود بلادي وأمنعها منهم وأدفع شرهم عنها فلا أدعهم يخلصون إليها .

– إنك لن تستطيع حماية بلادك منهم إذا غزوك فى عقرها مالم تمش إليهم فتلقهم دونها بمئات الفراسخ ، فإن أظهرك [2] الله عليهم فذاك ، وإن تكن الأخرى كان لك من بلادك ظهر تستند إليه وتستعد فيه ، وبعد ، فإن «جنكيز خان» لن يتوجه إلى الغرب حتى يفرغ من الشرق ولن يمس العراق والشام حتى يقضى على ممالك خوارزم شاه أجمعها .

فأطرق جلال الدين هنيهة ، وطفق يفرك جبينه بيده وكأنه يدير فى رأسه موازنة بين رأيه ورأى ابن عمه ، ثم رفع رأسه وقال : «لا حرمنى الله صائب رأيك يا ممدود ، فمازلت تحاجنى حتى حججتنى ، وهأنذا مقتنع بسداد رأيك ، وماضٍ لما تشير به علىَّ ، وحسبى أنك ستكون يدى اليمنى فيما أنهض به من الأمر» .

– سأكون يا ابن عمى ويا مولاى أطوع لك من خاتم فى يدك ، وسأقاتل حتى أقتل دونك .

– إنك لم تدع لى فى قتال هؤلاء عذرًا يا ممدود ، رحم الله أبى ، قد ورثنى مُلكًا لا يغبط صاحبه عليه ، وحملنى عبئا ثقيلًا .

– سيكون لك من معونة الله وتوفيقه ، إذا أخلصت الجهاد فى سبيله ، ما يشرح لك صدرك ، ويضع عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ، ويرفع لك بهزيمة التتار ، عند الله وعند الناس ذكرك !

فتبسم جلال الدين ، وتهللت أساريره من البشر ، وقال : «بشرك الله بالخير ياممدود» ، إن الله تعالى

---

١ متداولة .

٢ نصرك

يقـول : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ الشـرح : ٥ – ٨

ثم رفع يديه إلى السماء وقال : «اللهم إنى أرغب إليك فوفقنى لما تحبه وترضاه» .

وتذكر جلال الدين أخته جهان خاتون ، فسأل زوجها عن حالها ، فإنه لم يرها منذ أيام ، فأجابه ممدود : «هى فى رعاية الله ورعايتك بخير ، وما منعها من المجىء إليك إلا ثقل الحمل» .

– أجل . . لطف الله بها وبزوجتى عائشة خاتون ، فإنهما فى شهرهما التاسع ، فبلغها تحيتى ، وعسى أن أتمكن من زيارتكم غدا إن شاء الله .



١ . لماذا بكى جلال الدين؟

٢ . كان لكل من جلال الدين و الأمير ممدود رأى فى تحرش خوارزم شاه بالتتار وما ترتب عليه من نتائج وضِّح كلا الرأيين واعرض رأيك .



الفصل الثاني

طلق جلال الدين ما كان فيه من الدعة والراحة منذ تلك الليلة التى عاهد فيها نفسه على المسير لقتال التتار، وقضى قرابة شهر وهو يجتهد فى تجهيز الجيش وإعداد العدد وتقوية القلاع فى مدن بلاده ، وبناء الحصون على طول خط السير، يعاونه فى ذلك صهره ممدود حتى إذا تم له من ذلك ما أراد، عين يوم المسير.

وجاءت الأنباء بأن التتار دخلوا مرو ، وساروا إلى نيسابور فوضعوا فى أهلها السيف وملكوها، وأنهم سائرون إلى هراة ، فلم يبق لدى جلال الدين مجال للانتظار فأذن لعساكره بالمسير، وخرج في ستين ألفا يحث بهم السير حتى لقى طلائع التتار دون هراة ، وكانوا قد حاصروها عشرة أيام ثم ملكوها وأمنوا أهلها وتقدموا يبتغون غزنة ، فقاتلهم جلال الدين قتالا عظيما حتى هزمهم، وقتل منهم خلقا كثيرا.

وبعث رسلا تسللوا إلى هراة فأخبروا أهلها بما وقع من انكسار التتار، ففرح الناس فرحا عظيما، وأخذوا يتنادون بأن خوارزم شاه قد بعثه الله حيا من قبره ، ليطهر البلاد من التتار ووثبوا على حاميتهم بالمدينة، فلما عادت فلول التتار إلى هراة، وعلموا ما وقع من أهلها انتقموا منهم فقتلوا كل من وجدوه من الرجال والنساء والأطفال ، وخربوا المدينة ونهبوا السواد وأتلفوا كل ما لم يقدروا على حمله من الأموال.

وطاردهم جلال الدين فأجلاهم عن هراة ، ثم مازال يتعقبهم حتى أوصلهم إلى حدود الطالقان، حيث اتخذها جنكيز خان قاعدة جديدة له بعد سمرقند، يرسل منها بعوثه وسراياه، ثم رأى جلال الدين أن يكتفى فى هذه الغزوة بما أحرزه من الانتصارات عليهم، وألا يهاجمهم فى قاعدتهم الجديدة حتى يستجم ويريح جيوشه من نصب القتال، ويعد جيوشا أخرى ويستعد استعدادًا جديدًا لملاقاة أعدائه، فعاد ببهرة جيشه إلى غزنة بعد أن ترك حاميات قوية فى البلاد التى طرد منها التتار.

وكان يوم قفوله [1] إلى غزنة يوما مشهودًا، احتفل به أهلها احتفالا رائعا ، لم يغض من جماله إلا رجوع الأمير ممدود جريحا محمولا على محفة، بعد ما أبلى بلاء حسنا فى قتال التتار وأبدى أروع آيات البطولة، وركب أعظم الأخطار.

حزن جلال الدين لما أصاب صهره الفارس الشجاع، واهتم بعلاجه اهتماما كبيرًا، وابتغى له أحسن أطباء زمانه، وأغدق عليهم الأموال ، ووعدهم بمكافآت كبيرة إذا وفقوا لشفائه، ولكن جراحه

---

١ قفوله: رجوعه.

كانت بالغة ، فلم تجد مهارة الأطباء ، وأخذت حالته تسوء يوما بعد يوم ، وكان جلال الدين لا يغب [1] زيارته فهو يتردد عليه صباح مساء .

ولما ثقلت عليه العلة وأيقن بدنو الموت ، بعث إلى جلال الدين أن يحضر ، فلما حضر قال له بصوت متقطع وهو يحضن زوجته وابنها الرضيع : «ياابن عمي : هذه أختك جهان خاتون ، وهذا ابنك محمود ، فأولهما عطفك ورعايتك واذكرني بخير» .

فبكى جلال الدين ، وأجهشت أخته بالبكاء ، وكان ممدود ينظر إليهما وإلى الطفل الرضيع نظرات تائهة ، ولم يلبث أن لفظ روحه وهو يردد الشهادتين .

مات الأمير ممدود شهيدا فى سبيل الله ولم يتجاوز الثلاثين من عمره ، تاركا وراءه زوجته البارة ، وصبيا فى المهد لم يَدُرْ عليه الحول ولم يتمتع برؤيته إلا أياما قلائل ؛ إذ شغله عنه خروجه مع جلال الدين لجهاد التتار ، ولم يكن له – وهو يودع هذه الحياة ونعيمها – من عزاء عنهما إلا رجاؤه فيما أعد الله للشهداء المجاهدين فى سبيله من النعيم المقيم والرضوان الأكبر .

وفت موته فى عضد جلال الدين ، إذ فقد ركنا من أركان دولته وأخا كان يعتز به ويثق بإخلاصه ونصحه ، و وزيرًا كان يعتمد على كفايته ، وبطلا مغوارًا كان يستند إلى شجاعته فى حروب أعدائه ، فبكاه أحر البكاء ، وحفظ له جميل صنعه وحسن بلائه معه ، فرعاه فى أهله وولده ، وضمهما إلى كنفه ، وبسط لهما جناح رأفته ، واعتبر محمودًا كابنه يحبه ويدلله ولا يصبر عن رؤيته ، وكثيرًا ما يجتذبه من يدى والدته فيحمله إلى صدره ، فربما بال الصبى على ثيابه فلا يزيده إلا حبا وتعلقا به ، وكان حين يرجع من قتال التتار يسأل أول ما يسأل عن محمود أين هو؟ فيجرى إليه فيحضنه ويوسعه ضما وتقبيلا ، ثم يثنى بابنته جهاد التى كان يحبها ولا يصبر على رؤيتها كذلك .

وهكذا نشأ الطفل محمود والطفلة جهاد فى بيت واحد ، تغذوهما وتسهر عليهما أمَّان ، ويحنو عليهما أب واحد ، فكانا يحبوان معا فى دهاليز القصر وأبهائه ، وربما خرج بهما الخدم إلى حديقة القصر فى الصباح الباكر فطفقا يدرجان على العشب يتمرنان على المشى ، ووالدتاهما تنظران إليهما من شرفة القصر ، تطالعان فى عيونهما الحاضر الباسم ، وتتعزيان به عن الماضى الحزين والمستقبل الغامض ، فإذا وقع أحد الطفلين على الأرض فى غير بأس ضحكتا ضحكة هادئة ، ثم رجعتا إلى ما انقطع من حديثهما ، وربما تقع جهاد على الأرض فيدنو منها محمود ليساعدها على النهوض ، فتنظر إحدى الوالدتين وعلى ثغرها ابتسامة وفى عينيها سؤال حائر . . أيقدر لهذين الطفلين البريئين أن يشبا معا فى هذا العيش الرغد فيكون أحدهما للآخر ، أم تحول دون ذلك تقلبات الدهر وفجاءات القدر؟!

وكيف تأمنان غدر الزمان وسطوات الغير وتطمئنان إلى ما هما فيه من نعيم العيش وعز الملك ،

---

١ غب : أتى يومًا بعد يوم

وقد شهدتا بعينيهما كيف انقض التتار على مملكة خوارزم شاه فقطعوا أوصالها ومزقوها شر ممزق ، وكيف هوى ذلك الملك العظيم من أوج سلطانه ، وانهزمت جيوشه التى كانت تملأ السهل والجبل ، وتفرقت عنه جموعه حتى لجأ إلى جزيرة نائية مات فيها وحيدًا شريدًا .

ولا ينقص من قلقهما على المستقبل أن جلال الدين قد استطاع لذاك الحين أن يهزم التتار فى كل موقعة لقيهم فيها ، وأن يدفع غائلتهم عن البلاد التابعة له ، وأن يتحدى جنكيز خان طاغيتهم الأكبر فيرسل إليه كتابا يقول له فيه : «في أى مكان تريد أن تكون الحرب ؟» فإن هذا لايعنى أنه قضى على خطرهم واستراح من هجماتهم وقد كان خوارزم شاه أقوى وأعظم هيبة ، وأكثر جنودًا منه ، واستطاع أن ينتصر عليهم فى معارك جمة ، ولكنهم غلبوه فى النهاية بكثرة عددهم وتوالى إمداداتهم ، وتدفقهم كالسيل ، وانتشارهم كالجراد ، وأن الأمل لضعيف فى أن يقوى جلال الدين على ما لم يقو عليه والده العظيم .

ولم يمض على ذلك زمن طويل حتى حققت الأيام مخاوفهما ، فقد وردت الأنباء بأن جنكيز خان قد استشاط غضبا من تحدى جلال الدين له ، فسير عسكرًا أعظم من عساكره التى بعثها من قبل ، وسماه جيش الانتقام ، وجعل أحد أبنائه عليه ، فاندفعوا كالسهام وطفقوا يخترقون البلاد حتى وصلوا إلى أبواب كابل .

فقصدهم جلال الدين بكل ما عنده من الجيش ، فلما التلقى الجمعان اقتتلوا قتالا شديدا دام ثلاثة أيام بلياليها ، وكان جلال الدين يصرخ فى جنوده فى أثناء المعركة : « أيها المسلمون أبيدوا جيش الانتقام» ، وقد انتهى القتال بهزيمة التتار لما أبداه المسلمون من المصابرة والمرابطة ، ويرجع معظم الفضل فى ذلك إلى قائد باسل من قواد جلال الدين يدعى سيف الدين بغراق ، استطاع أن يكيد للتتار ، فانفرد بفرقته عن الجيش وطلع خلف الجبل المطل على ساحة القتال ، ولم يشعر التتار إلا بهذا السيل من المسلمين ينحدر عليهم من الجبل فاختلت صفوفهم ، فأوقع بهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وغنموا ما معهم من الأموال التى نهبوها من البلاد التى مروا بها .

وهنا ينزغ الشيطان بين قواد جلال الدين ، فيختلفون على اقتسام الغنائم ، فيغضب من جراء ذلك الأمير سيف الدين بغراق ، وينفرد بثلاثين ألفا من خيرة الجنود وتوسل إليه جلال الدين أن يرجع إلى عسكره ، فلم يقبل وذهب غاضبًا وسار معه الثلاثون ألفا من الجنود ، فضعف المسلمون من جراء هذا الانقسام ، وعلم التتار بالأمر ، فجمعوا فلول جيشهم وانتظروا حتى تجيئهم أمداد من جنكيز خان .

وبلغ جنكيز خان ما وقع بجيشه من الهزيمة ، فاشتد غيظه ، وزاد حنقه ، فجمع جيوشه وقادها بنفسه ، وتقدم لقتال جلال الدين ، فلم يثبت له جلال الدين ، وفرَّ إلى غزنة فتحصن بها أياما ، ثم رأى ألا قبل له بدفع المغيرين عنها ، وخشى من وقوعه و وقوع أهله فى قبضة عدوه ، فحزم أمتعته ، وجمع أمواله وذخائره ، فحملها ورحل بأهله وحاشيته صوب الهند ، وسار معه سبعة آلاف من خاصة

رجاله ، فعبر بهم ممر خيبر ، ولم يكد يفضى إلى سهل الهند ، وسار حتى لحقته طلائع جنكيز خان ، فكر عليهم وقاتلهم وشردهم ، ولكنه أيقن بالهزيمة حين توالت عليه الجموع ، فتقهقر برجاله إلى نهر السند ، وعزم أن يخوضه إلى العدوة الأخرى ، ولكن العدو عاجله قبل أن يجد السفن اللازمة لحمل أهله وحريمه وأثقاله ، ونتج عن ذلك غرق النسوة من أهل بيته ولم يدع له العدو فرصة للتحسر على أعز أحبابه فى الحياة والتفكير فى شأنهم من هول مصيبته فأمر رجاله بخوض النهر ، وألقى بنفسه فى مقدمتهم فاندفعوا يسبحون فى أثره ، وذلك حين مالت الشمس للغروب ، وتلونت مياه النهر بحمرة الشفق ، وما ابتعدوا عن الشاطئ إلا قليلا حتى أقبلت طلائع العدو فوقفوا على حافة النهر وانبرى رماتهم فأعملوا قسيهم ، فكانت السهام تتساقط عليهم كالمطر ، فأصيب كثير من رجال جلال الدين ، ولولا سدول الظلام وحيلولته دون رؤيتهم لفنوا عن بكرة أبيهم ، وأوفى جنكيزخان على النهر ، وكان الليل قد اعتكر وهو على جواده ، والمشاعل تضىء من حوله ، فلم يتبين أحدا فى النهر ، فأرسل ضحكة رنت فى جنبات السهل ، وأخذ يهز سيفه فى الهواء ويقول : «هأنذا قضيت على خوارزم شاه وولده وشفيت غليلى وأخذت بثأرى» . وأمر رجاله بالرحيل ، فرجعوا من حيث أتوا .

وقضى السابحون شطرا من الليل وهم يغالبون الأمواج ، ويتنادون بينهم بالأسماء فيتعارفون بذلك ، ويتواصون بينهم بالصبر ، فربما كَلَّ أحدهم من طول السباحة فاستغاث بإخوانه

فيحمله من يلونه ريثما يستعيد شيئا من نشاطه ، وكان صوت جلال يسمع من حين إلى حين يحدوهم فى المقدمة ، ويحضهم على الصبر ، فلم يسمعوه فذهبت بهم الظنون كل مذهب ، وصاح بعضهم : «قد غرق السلطان فما بقاؤكم بعده؟» فاستسلم فريق منهم للأمواج فغرقوا .

وأدرك أحد خواص رجال السلطان الخطر ، فأخذ يقلد صوت جلال الدين ويحدوهم كما كان جلال الدين يفعل لئلا يستيئس الباقون ، فكان لعمله هذا أثر جميل فى نفوسهم : إذ انتعشت أرواحهم واستأنفوا صبرهم وجهادهم ، ورجع من عزم منهم على الاستسلام للموت عن عزمه ، وبقوا كذلك حتى بلغ السابقون منهم الضفة قبيل منتصف الليل ، فصاحوا بإخوانهم أن قد وصلنا البر ، فمنهم من خرج من الماء فارتمى على الأرض من الإعياء ، ومنهم من بقى لديه فضل من القوة فأخذ يساعد الآخرين على الطلوع بجذب أيديهم أو بإرخاء ما بقى عليهم من الثياب لهم حتى يتعلقوا به ، واستمر هذا العمل إلى الثلث الأخير من الليل حين لم يبق على الماء أحد من الناجين ، فوضع الجميع رءوسهم على الأرض وغرقوا فى السبات العميق .

وطلع الصباح على أربعة آلاف من القوم صرعى فى الصعيد يتقلبون على جنوبهم لم يوقظهم إلا حر الشمس ، فنهضوا من نومهم حفاة عراة لا يكاد يسترهم شىء من الثياب ، والتمسوا سلطانهم بينهم ، فلم يجدوه فأصابهم همّ عظيم ، فأوصاهم الرجل الذى قلد صوت السلطان فى النهر بألا ييأسوا من لقائه ، فربما سبقهم السلطان إلى الضفة من موضع آخر ، فلجأ إلى قرية من القرى ، وقال

لهم إن الرأى أن يبقوا هناك ويتبلغوا بما يجدونه من أوراق الشجر وثماره، وما يقع فى أيديهم من صيد البر والبحر وألا يبرحوا مكانهم ذاك حتى يأتيهم خبر السلطان، أو تعود إليهم قواهم فيمشوا إلى إحدى القرى القريبة، ليحصلوا على ما يعوزهم من الطعام والثياب بالمعروف.

فوافق الجميع على هذا الرأى، وبعثوا جماعة منهم للبحث عن جلال الدين فى المواضع البعيدة على الشاطئ فعثروا عليه بعد ثلاثة أيام فى موضع بعيد رماه الموج مع ثلاثة من أصحابه، فقدموا على القوم ففرحوا بنجاة سلطانهم، وما كادوا يصدقون عيونهم إذ رأوه.. فأمرهم بأن يتخذوا لهم أسلحة من العصى يقطعونها من عيدان الشجر ففعلوا ما أمرهم به.. ثم مشى بهم إلى بعض القرى القريبة منهم فجرت بينه وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها عليهم، واستلب أسلحتهم وأطعمتهم فوزعها فى أصحابه، فطعموا من جوع، وأمنوا من خوف، وقووا من ضعف، ثم دلف بهم إلى لهاور «لاهور» فملكها واستقر بها مع رجاله، وبنى حولها قلاعا حصينة تقيه هجمات أعدائه من أهل تلك البلاد.

و قدر لجلال الدين أن يعيش وحيدا فى هذه الدنيا، لا أهل له فيها ولا ولد، فكأنما بقى حيًّا؛ ليتجرع غصص الألم والحسرة بعدهم وما هذه الرقعة الصغيرة التى ملكها بالهند إلا سجن نفى إليه بعد زوال ملكه، وتفرق أهله وأحبابه، ولمن يعيش بعدهم؟ وعلام يحمل نفسه أعباء الولاية وتكاليف الإمرة؟ ولكنه تذكر أن التتار هم سبب نكبته ونكبة أسرته فليعش لينتقم منهم، ولتكن هذه أمنيته فى الحياة، إن لم تبق له فيها أمنية.



١. ماذا قال الأمير ممدود حين ثقلت عليه العلة وأيقن بدنو الموت لابن عمه جلال الدين؟

٢. كيف كان جلال الدين يعامل ابن أخته بعد وفاة أبيه؟

٣. ارتبط محمود بجهاد ارتباطًا أخويا، كيف كان ذلك؟

٤. تسلل الشيطان إلى قلوب بعض القواد فماذا كانت النتيجة؟

٥. هل نجا السلطان جلال الدين؟ وماذا فعل؟



الفصل الثالث

لم يكن جلال الدين يعلم وهو يبكى أهله وذويه أحر البكاء، وينفطر قلبه حزنا عليهم، أن طفليه الحبيبين محمودًا وجهاد حيان يرزقان، ولو علم ذلك وأنهما لا يبعدان عنه كثيرًا، إذ يعيشان فى إحدى الدساكر المجاورة للاهور، لطار إليهما فرحا، ولتعزى بهما فى كل ما أصابه من نكبات الحياة.

ذلك أن عائشة خاتون وجهان خاتون لما أيقنتا بالنكبة يوم النهر، ورأتا أن لا محيص من الموت أو الأسر، عزّ عليهما أن تريا الطفلين البريئين يذبحان بخناجر التتار المتوحشين، أو يغرقان معهما فى أمواج النهر، وجاشت بهما عاطفة الأمومة، فأوحت إليهما فى ساعة الخطر أن يسلماهما إلى خادم هندى أمين، كان قد خدم الأسرة منذ أيام خوارزم شاه، ليهرب بهما من وجه التتار، ويحملهما إلى مسقط رأسه حيث يعيشان عنده فى أمن وسلام، وأرادتا أن تخبرا جلال الدين بما صنعتاه، ولكن ضاق وقتهما وشغلهما الهول عن ذلك.

أما الشيخ سلامة الهندى فقد فصل عن المعسكر قبيل عصر ذلك اليوم المشئوم، وأركب الطفلين على بغلة بعد أن كساهما ملابس العامة من الهنود، وساقهما حثيثا نحو الشمال على شاطئ النهر، ثم سلك بهما الطرق المتعرجة، وغاب بهما فى منعطفات الجبال، وأدركه الليل فأوى إلى مغارة فى سفح جبل، فأنزل الطفلين وربط البغلة إلى الصخرة فى فم المغارة، وفرش لهما داخلها وطفق يسامرهما ويهدئ روعهما، ويعللهما بلقاء أهلهما غدا فى لاهور، بعد أن يكسر السلطان جلال الدين التتار، ومازال بهما كذلك حتى غلبهما النعاس، فناما مكانهما ونام جنبهما.

فلما كان اليوم ساق البغلة متيامنا جهة النهر حتى أشرف عليه عند الزوال، ثم لاح قارب من قوارب الصيد، فلوح له الشيخ بردائه، فاقترب منه فإذا عليه صياد وابنه ومعهما شبكة الصيد، فسأله الصياد ماذا تريد؟ فأجابه الشيخ بالهندية، و رجاه أن يحمله، ويحمل طفليه إلى الضفة الشرقية للنهر، ويعطيه على ذلك أجرًا طيبا فقبل الصياد وفرح بالأجر، وكان الشيخ سلامة قد أوصى الصبيين ألا يتفوها بما يدل على أنهما من بيت السلطان جلال الدين، وأفهمهما أن صاحب القارب قد يسلمهما إلى التتار إذا عرف أصلهما، ففهما ما أراد على صغر سنهما، فقد تعلما الخوف والحذر مما مر بهما من الأهوال وما شهداه من الحوادث المروعة، فكانا - وهما فى الرابعة من سنهما - كأنهما من أولاد السابعة أو الثامنة.

وصل القارب إلى الشط، فنزل الصياد من القارب وساعد الشيخ وطفليه على النزول، ثم أرشد الشيخ إلى خير طريق يوصله إلى أقرب قرية من ذلك الموضع، وقال له: «صحبتك السلامة فى طريقك» فأعطاه الشيخ دينارا، وكان قد رضى بأقل من ذلك، ففرح به وشكره .

سار الشيخ فى الطريق الذى أرشده إليه الصياد حاملًا جهاد على كتفيه حتى إذا ظن بمحمود التعب فى السير أنزلها تسير وحمل محمودا مكانها ، وهكذا دواليك حتى بلغ القرية بعد غروب الشمس ، فبات فى كوخ بها ، واشترى ما يلزمه ويلزم الطفلين من الطعام ، حتى إذا أصبح الصباح ابتاع له حمارًا من القرية أركبهما عليه ، وظل كذلك ينتقل فى القرى حتى وصل إلى مسقط رأسه فى قرية من القرى المجاورة لمدينة لاهور، وعاش الصبيان فى القرية الهادئة فى أمن وسلام كما أرادت لهما والدتاهما المرحومتان، وكان الشيخ يرعاهما رعاية بالغة ، ولا يألو جهدا فى ترفيه عيشهما وإدخال السرور عليهما بكل ما يملك من وسائل التسلية والترويح ، وإذا سئل عنهما قال إنهما يتيمان وجدهما فى طريقه فتبناهما ، ولكن هذا القول لم يقنع فضول أهل القرية فأخذوا يتخرصون ويخترعون الحكايات ، ويحكون القصص عن أصلهما ، ويتفق معظمهم فى أنهما من أولاد الملوك، لما يبدو على وجوهما من سيم الملك، وأمارات النبل ، ونضرة النعيم ، ولم يجد الشيخ سلامة بدا من الإفضاء بحقيقة حالهما إلى بعض أقاربه الأدنين الذين كانوا يعلمون بأنه قضى جل عمره فى خدمة السلطان خوارزم شاه والسلطان جلال الدين من بعده، وسمعوا بما حل بهما من نكبة التتار ، ولكنه استكتمهم الخبر لئلا يصيب الصبيين من جراء ذلك سوء، ولم تمض إلا برهة قصيرة حتى انتهت إلى أهل القرى المجاروة لمدينة لاهور أنباء السلطان جلال الدين وفراره من بلاد الهند، ومطاردة جنكيز خان له حتى اضطره إلى خوض النهر مع عسكره ، وترامى إليهم ماجرى بعد ذلك من الوقائع بينه وبين أهل الهند حتى افتتح لاهور واتخذها قاعدة ملكه ، وأخذ يوطد سلطانه بشنِّ الغارات على ما حوله من البلاد والقرى، فانتشر خوفه فى قلوب أهلها.

وحرج لذلك موقف الشيخ سلامة بين أهل بلاده ، إذ بدأوا يشكون فى أمره وفى أمر الصبيين اللذين معه ، ويرجحون أنهما من أولاد السلطان جلال الدين ، فخشى عليهما من فتكهم، وأخذ يفكر فى طريقة للفرار بهما إلى لاهور.

وبينما هو ينتظر سنوح الفرصة لذلك إذا جنود السلطان قد أقبلوا يغزون القرية ، فخرج إليهم الشيخ وعرفهم بنفسه، وأبرز لهم ابنة السلطان وابن أخته ، وتوسل بهما أن يكفوا عن غزو القرية حتى يأتيهم أمر السلطان ، فأجابوا طلبه، وبعثوا رسولا إلى السلطان بالخبر ، ولبثوا ينتظرون خارج القرية، فما راعهم إلا السلطان قد أقبل على جواده فى لمة من فرسانه، فلما سلم عليهم ، قال: «أين الشيخ سلامة؟» فتقدم إليه الشيخ سلامة وقبل ركابه قائلا: «هأنذا عبدك وعبد أبيك يامولاى»، فترجل له السلطان وعانقه، وقال له: « أين محمود وجهاد؟» وما أتم السلطان كلمته حتى اندفع الصبيان فارتميا عليه، فضمهما إلى صدره، وطفق يقبلهما ويقبلانه، وهو يقول: « ابنتى جهاد . . ابنى محمود . . أنتما على قيد الحياة الحمد لله، لست وحيدا فى هذه الدنيا، لقد بقيا لى وبقيت لهما».

ثم دفع الصبيين إلى فارسين من فرسانه، ليردفاهما خلفهما، وركب جواده وأمر الشيخ سلامة

أن يركب معه ، وقال لقائد الحملة : «كفوا عن هذه القرية والقرى التى تجاورها ، ولا يؤخذ من أهلها الخراج ، إكراما للشيخ سلامة» ، فشكره الشيخ ودعا له بطول العمر .

وانتشر الخبر فى القرية فخرج أهلها رجالا ونساء فرحين متهللين ؛ ليشاهدوا السلطان جلال الدين ، وتقدم إليه وفد من شيوخها وكبرائها يشكرونه على مكرمته وفضله ، فحياهم السلطان وقال لهم : «إن الفضل للشيخ سلامة ، فلا تشكرونى واشكروه» ، فأقبل الرجال على الشيخ وحملوه على الأعناق .

وتباشر سكان القرى المجاورة بما أعلنه السلطان جلال الدين من الأمر بالكف عن غزو بلادهم وإعفائها من الخراج ، فصار ذلك حديث المجالس والأسمار ، وأصبح جلال الدين حبيبا إلى قلوبهم بعد أن كانت أكبادهم تغلى كراهية له ، ومضاجعهم تقض خوفا منه ، وقدمت وفودهم على قصر السلطان بلاهور تشكره على إحسانه إليهم ، وتقدم له ولاءهم وطاعتهم حاملة معها الهدايا النفيسة ، فقبل السلطان هداياهم وأجازهم عليها ، وردهم إلى بلادهم مكرمين .

وتبدلت أحوال جلال الدين بعد عثوره على ولديه الحبيبين ، وعاد إلى وجهه البشر بعد العبوس ، والطلاقة بعد الانقباض ، وانتعش فى قلبه الأمل ، وشعر كأن أهله وذويه بعثوا جميعا فى محمود وجهاد ، وكلما رآهما تذكرهم وتعزى بهما عنهم ، وحمد الله على أن لم ينقطع سببه ، وقوى رجاؤه فى استعادة ملكه وملك آبائه ، والانتقام من أعدائه التتار ليورث محمودا وجهاد مُلكا كبيرًا ، متين الأساس ، قوى الدعائم ، يخلد به سؤدد بيته العظيم .



١ . كيف نجا محمود وابنة خاله جهاد؟

٢ . ما موقف الشيخ سلامة الهندى من محمود وجهاد؟

٣ . وصل إلى أهل القرية المجاورة لمدينة لاهور أنباء السلطان جلال الدين وفراره من بلاده إلى الهند ، ماذا جرى بعد ذلك؟ وما الذى فعله جلال الدين والشيخ سلامة؟

٤ . كيف استقبل جلال الدين ابنته وابن أخته؟

٥ . كيف عامل السلطان القرى المجاورة لمدينة لاهور؟

٦ . ما الذى قوى رجاء السلطان فى نجاح أمره؟



الفصل الرابع

عاش السلطان جلال الدين في مملكته الصغير بالهند عيشة حزينة ، تسودها الذكريات الأليمة ، ذكريات مُلكه الذاهب ، وذكريات أهله الهالكين ، وكان يجد سلواه الوحيدة في ولديه الحبيبين محمود وجهاد ، فيقضي جل أوقاته معهما ، ينزل إلى عالمهما الصغير ويصادقهما ، ويشترك معهما في ألعابهما ، ويجاريهما في أحاديثهما البريئة ، وأحلامهما الصافية ، فيجد في ذلك لذة تنسيه هموم الحياة وآلامها .

وكان مع ذلك لا ينسى تدبير ملكه ، وتنظيم شئونه ، وتقوية جيشه وتعزيز هيبته ، فكان في كفاح دائم مع أمراء الممالك الصغيرة التي تكتنف مملكة لاهور ، يدفع غاراتهم على بلاده ويغزوهم الفينة بعد الفينة ، وهو في ذلك يتنسم أخبار ممالكه السابقة ، ويرقب حركات التتار بها ، يتربص بهم الدوائر ، وينتظر الفرص للانقضاض عليهم ، والانتقام منهم ، واسترداد ممالكه وممالك أبيه من أيديهم ، أو أيدي أعوانهم وأجرائهم ، فقد كان التتار أمة لا تطمع في ملك البلاد وحكمها ، وحسبها أن تغزوها فتقتل من تقتل من رجالها ونسائها وأطفالها ، وتسبي منهم من تشاء ، وتنهب خزائنها ، فلا تدع شيئًا إلا أتت عليه ، ثم تغادرها إلى بلادها حاملة معها الغنائم والأسلاب ، فتنقبع فيها ما تنقبع ، ثم تعود كرة أخرى فيطغى سيلها على الأمم ، والممالك فتقتل وتنهب وتسلب ، ثم تعود إلى منبعها وهكذا دواليك ، وربما عقدوا مع أهل البلاد التي غزوها اتفاقًا يأمنون به من عودتهم ، على أن يحملوا إليهم جزية كبيرة في مستهل كل عام ، وحينئذ يولون عليها من يتوسمون فيه الميل إليهم ، والرضا بسياستهم من عبيد الأهواء الطامعين في المناصب من أهل تلك البلاد .

كذلك كانت الحال في العواصم والمدن التي تخلى عنها جلال الدين ، فقد وليها جماعة من الطغاة المستبدين ، لا همَّ لهم إلا جمع المال من كل سبيل ، فيصادرون أملاك الناس ، ويفرضون الضرائب الثقيلة عليهم ، ويسلبون أموال التجار ، ومن جرؤ على الشكوى منهم كان جزاؤه القتل أو الإهانة والتعذيب .

وكان لجلال الدين فيها أعوان وأنصار لا يحصون كثرة ، يتمنون عودته ، ويراسلونه سرًّا فيصفون له أحوال الناس بها ، وما يعانون من ظلم الحكام وفسادهم وطغيانهم ، ويحضونه على العودة إليهم ، ويعدونه بالنصر والتأييد ، وبأنهم سيثورون ثورة عارمة على أولئك الحكام إذا ما عاد جلال الدين إلى بلاده ، وذكروا له أن جنكيز خان مشغول عنهم بحروب طويلة في بلاده من قبائل الترك .

فرأى جلال الدين أن الفرصة سانحة ، وصحت عزيمته على اغتنامها ، فتجهز للمسير وكتم خبره عن الناس جميعًا ما عدا قائده الكبير الأمير بهلوان أزبك ؛ إذ استنابه على ما يملك بالهند وترك له جيشًا يكفي لحمايته ، وسار هو بخمسة آلاف قسمهم إلى عشر فرق ، جعل على كل منها أميرًا ،

وأمرهم أن يسيروا خلفه على دفعات من طرق مختلفة ؛ حتى لا يتسامع الناس بخبر مسيرهم .

وكان قبل مسيره قد فكر مليًّا في أمر ولديه الحبيبين وتردد طويلاً أيستصحبهما معه أم يتركهما بالهند؟ فإنه إن أخذهما معه عرضهما لأخطار الطريق ومتاعب هذه الرحلة الشاقة ، وإذا نجا بهما من ذلك رمى بهما إلى ما هو مقدم عليه من الكفاح العظيم ، والقتال المستميت ، وماذا يكون مصيره ، وسيفضي به هذا لا محالة إلى مواجهة التتار وقتالهم من جديد ، ومن ذا يضمن له الغلبة على تلك الأمة الهائلة التي لا نهاية لجموعها ولا صاد لهجماتها ، ولا عاصم من أمرها إلا من رحم الله ؟

وإنه إن تركهما بالهند فلا طاقة له بفراقهما . ولا طاقة لهما بفراقه ، وليس له في الدنيا أهل غيرهما وما لهما فيها من أهل غيره ، وقد وجدهما بعد ضياع ، ولقيهما بعد يأس ، فانتعش بهما أمله ، وأشرق بهما وجه حياته ، وكانا له عزاء عن كل ما فقد من ملكه وأهله ، أفيتركهما وحيدين في بلاد غريبة عليهما لا يدري ماذا يكون مصيرهما فيها ؟ ، فربما يطمع أمراء الهند في مملكة لاهور ، ويستضعفون نائبه عليها حين يبلغهم سير السلطان بمعظم عسكره عنها ، فيقومون عليها قومة واحدة ، وتسقط في أيديهم ، ويومئذ لا يكون لرجاله مهرب ، ويقع الأميران في قبضتهم ولا أمل في نجاتهما من سيوفهم .

أخذ جلال الدين يوازن بين الخطتين إلى أن آثر أهون الخطرين عنده ، ففضل أن يأخذ الأميرين معه ، إذ كان أحب الرأيين إلى نفسه ، وأقربهما إلى هواه فحسبه أن يراهما دائمًا معه ، فإذا قدر له النجاح فذاك ، وإن خانته الحظوظ فلن يبقى بعد ذلك أمل في الحياة ، ولن يؤويه بعد ذلك مكان ، وخير لهما حينئذ أن يقتلا معه ، فلا يتعرضا لما يتعرض له مثلهما من الشقاء والهوان .

وكأن جلال الدين كان ينظر من سجف الغيب إلى هذا اليوم ويستعد له ، إذ عنى بتدريبهما من صغرهما على ركوب الخيل وحمل السلاح وسائر أعمال الفروسية ، وتربيتهما تربية خشنة تعدهما لتحمل المشاق ، وركوب الأخطار ، والتغلب على المتاعب .

وطالما سمعا منه أو من الشيخ سلامة الهندي أخبار جدهما خوارزم شاه ووقائعه مع التتار ، وحروب جلال الدين معهم من بعده ، فكانا يطربان لذلك ويتحمسان ، وكثيرًا ما كان جلال الدين يصف لمحمود شجاعة والده الأمير ممدود وحسن بلائه في قتالهم ، وغرامه بمبارزة قوادهم وأمرائهم ، إلى أن يقص عليه أخبار واقعة هراة التي أصيب فيها ، فمات من جرحه شهيدًا في سبيل الله بعد أن نكل بالأعداء تنكيلا ، ومزقهم شر ممزق ، فيمتلئ محمود بالحماسة ، ويود لو شهد تلك الوقائع فكانت له في قتال التتار مواقف مشهودة .

وكان محمود يشعر في قرارة نفسه بأنه سيقاتل التتار يومًا ما ، إذا بلغ مبلغ الرجال فيثأر منهم لأبيه ، وينتقم منهم لما أصاب جده وخاله ووالدته وجدته وسائر أهله ، وقد سيطر عليه هذا الشعور ، وملك عليه جميع مذاهبه ، فكان شغله الشاغل وهمه المقعد المقيم ، ولا يفتأ يفكر فيه نهارًا ، ويحلم

به ليلاً ، وإنه ليطغى عليه أحيانًا فيقع منه في كرب عظيم ، فلا يجد أداة يعبر بها عن حبيس رغبته وينفس بها عن كربه ، إلا أن ينطلق في عالم الخيال حيث يصور له الوهم معارك تدور بينه وبين التتار ، ينتصر فيها عليهم ويشتت جموعهم ويجندل أبطالهم ويفرق صفوفهم ، وينهزمون فيجد في طلبهم ويتعقب آثارهم حتى يشردهم إلى أقاصي البلاد ويعود إلى المدينة ظافرًا تقام له الزينات وتضرب له الطبول ، وتنثر عليه الأزهار والرياحين .

وكانت جهاد تشاطره هذا الشعور ، وتشجعه على حروبه هذه ومعاركه وتري فيها تحقيقًا لأمانيها في بطلها العظيم ، وتنفيسًا لما يحتدم في صدرها من كراهية التتار ، وحب الانتقام منهم ، فكان لا يلذ لها شيء ما يلذ لها الإصغاء إلى حديثه حين يقص عليها ما دار بينه وبينهم من المعارك الهائلة ، وما أظهر فيها من آيات البطولة والإقدام .

حتى جلال الدين نفسه كان يشجع محمودًا في أعماله الحربية ، ويجاريه في تصوراته ، ويصغي لأحاديث بطولته ، ويثني عليه فيها ، ويتلطف في إسداء النصائح إليه خلالها ، وقد أمر رجاله وحجاب قصره وخدمه بأن يجاروه في أحلامه ، ويصدقوه في مزاعمه .

فما أن سمع محمود وجهاد لعزم جلال الدين على المسير لقتال التتار واسترداد بلاده ؛ حتى أظهرا له من الفرح والاستبشار بذلك ما جعله يعجب من نفسه ، كيف فكر في تركهما بالهند ، وعدم اصطحابهما معه في رحيله ، إذن لشق عليهما ذلك ، وأذاهما أبلغ الأذى ، وربما أعجزه أن يحملهما عليه إلا أن يرهقهما أو يحمِّلهما مالا طاقة لهما به .

سار جلال الدين من الهند ومعه خواص رجاله ، فقطعوا المفازة على خيولهم ، وعبروا نهر السند في مراكب عظيمة قد أعدها جلال الدين لذلك من قبل ، حملتهم وحملت خيولهم وعتادهم ، وتبعتهم فرق جيشه فرقة بعد فرقة حتى التقوا جميعًا عند ممر خيبر ، فساروا حثيثًا ؛ حتى اقتربوا من كابل ، بعث جلال الدين رسلا إلى أشياعه بها يخبرونهم بمجيئه ، ففرحوا بذلك وأشاعوه في المدينة فوثب أهلها على حاكمهم وأشياعه فقتلوهم ودخل جلال الدين المدينة فملكها بدون قتال كبير .

وشاع هذا الخبر فى سائر المدن والعواصم ، فاستعد دعاة التتار وأعوانهم ، وأجمعوا على ملاقاته ومقاومته ، وبعثوا إلى جنكيز خان يستنجدونه ، فعاجلهم جلال الدين قبل أن تأتيهم إمدادات التتار ، فمضى يفتح المدينة بعد المدينة بغير عناء يذكر ، لأن أهلها كانوا يثورون على حاكمهم حين يقف جلال الدين على أبوابها ، ويساعدونه عليهم ، فيلوذ هؤلاء الخونة بالفرار إلى جنكيز خان ، حتى وصل جلال الدين إلى كرمان ، ثم سار إلى الأهواز فاستولى عليها ، ثم أذربيجان فملكها ، ودانت له سائر بلاد إيران .

وكان محمود وجهاد يسيران حيث سار جلال الدين لا يفارقانه في تنقلاته كلها ، وكان يقوم بخدمتهما في ذلك الشيخ سلامة الهندي وسيرون السائس ، ما كان أشد فرح محمود وهو يتنقل في ركاب خاله من مدينة إلى مدينة ، فتفتح لهما أبوابها ، وتدق لهما الطبول ، وتصطف الجماهير لمشاهدتهما وتحيتهما ، وتتعالى أصواتهم بالهتاف للسلطان وولى عهده ، ولكنه مع ذلك كان يشتهي

أن يرى وجوه التتار ، وكثيرًا ما سأل خاله : «أين أعداؤنا التتار؟ متى يخرجون إلينا فنقاتلهم؟» فيبتسم السلطان جلال الدين ويجيبه : «لا تستعجل الشر يا بني ، إنهم آتون إلينا قريبًا ، فناصرنا الله عليهم إن شاء الله» .

عادت المياه إلى مجاريها ، وخطب الخطباء للسلطان جلال الدين ابن خوارزم شاه ولولي عهده محمود على منابر البلاد جميعها ، وكان أول ما اهتم به جلال الدين بعد أن استتبت له الأمور فيها أن يحيي ذكرى والده العظيم ، فسار في موكب عظيم لزيارته في الجزيرة التي دفن بها ، فبكى عند قبره وترحم عليه ، ثم أمر بنقل رفاته ، فدفنه بقلعة «أزدهن» في مشهد حافل حضره العلماء والكبراء والأعيان من جميع الأصقاع ، وبنى عليه قبة عظيمة أنفق على بنائها وزخرفتها أموالاً كبيرة ، وجلب لها أمهر البنائين والصناع .

وما إن أتم ذلك حتى بلغه أن جنكيز خان قد أرسل جيوشًا عظيمة لقتاله بقيادة أحد أبنائه فتجهز للقائهم ، وسار بأربعين ألفًا يتقدمهم جيشه الخاص الذي أتى به من الهند وسماه جيش الخلاص ، وكان قد بقي منه زهاء ثلاثة آلاف ، فلقي جموع التتار في سهل مرو ، ودارت بين الفريقين معركة من أهول المعارك ثبت فيها جيش الخلاص ؛ حتى باد معظمه ، واضطربت صفوف المسلمين ، ويئس جلال الدين من الانتصار ، فصمم على أن يستشهد في المعركة فالتفت إلى محمود ، وكان واقفًا على جواده خلفه ، وهو يتقد حماسة وغيرة ، فقال له : « ها أنت ذا قد رأيت التتار يا محمود ، وإني سأقاتلهم بنفسي فاثبت خلفي ، ولا تدع أحدًا يأسرك ، فتهلل وجه محمود ، وعدّ ذلك فخرًا عظيمًا أن يثق خاله به ، وعجب السلطان من رباطة جأش الغلام وتهلله للموت ، وتقدم يحرض رجاله ويجمع صفوفهم ويقاتل بنفسه ، والأمير الصغير وراءه على جواده والسيف في يمينه ، فلما رأى المسلمون ذلك دبت فيهم الحمية ، فقاتلوا دون السلطان قتالاً عنيفًا ، وبينما هم كذلك يقاتلون مستميتين والسلطان في مقدمتهم والتتار ظاهرون عليهم، إذا بصفوف التتار قد اضطربت ، وإذا بأصوات تسمع من خلفهم : « الله أكبر ! الله أكبر ! نحن جنود الله ! أيها المسلمون ! قاتلوا المشركين !» .

فعجب المسلمون من أمرهم ، وظن بعضهم أن هؤلاء ملائكة بعثهم الله لتأييد المسلمين فحملوا على التتار حملة صادقة ، وهم يصيحون : « الله أكبر !» وما هى إلا لحظة حتى انهزم التتار ، ولكنهم لم يجدوا مهربًا إذ تلقاهم المسلمون من أهل بخارى وسمرقند ، وكانوا قد خرجوا من بلادهم عقب مسير التتار ، فكبسوهم من خلفهم على غرة منهم ، فأعمل الفريقان من المسلمين سيوفهم حتى أبادوهم عن بكرة أبيهم ، وتصافح الفريقان من المسلمين احتفالاً بالنصر .

وفرح السلطان جلال الدين بجيش بخارى وسمرقند وأثنى عليهم ، وكان مما قاله لهم : «إنكم جنود الله حقًّا ، وما أنتم إلا ملائكة بعثهم الله من السماء لتأييد المسلمين ، وإننا مدينون لكم بحياتنا وانتصارنا» ، وأكرمهم وخلع عليهم ، وعرض عليهم الانضمام إلى جيشه فقبلوا شاكرين .

وكان جلال الدين يعلم حق العلم أن جنكيز خان آت بجموعه يوما ما للانتقام منه ، وأن انتقامه سيكون عظيمًا مهولا ، وأن عليه ألا يطمئن إلى الانتصار الذي أحرزه في سهل مرو ، وأن يستعد لذلك اليوم العبوس إلى أن جاءته كتب من بلاده تنبئه بسير جنكيز خان ، فطار إليها على عجل ، فافتقد في طريقه هذا ثمرتى قلبه ، وأنس حياته محمودًا وجهاد حين كان يجتاز بلاد الأكراد قافلاً إلى بلاده ، فطلبهما في كل مكان ، والتمسهما بكل سبيل ، فكأنما ابتلعتهما الأرض ، وغاب معهما الموكلان بخدمتهما وحراستهما الشيخ سلامة الهندي ، وسيرون السائس .

وأقام السلطان وعسكره في الموضع الذي افتقد هؤلاء فيه ، حيث بث رجاله في طلبهم والتفتيش عنهم في جميع تلك النواحي ، فلم يعثروا لهم على أثر ، إلا أنهم في اليوم الثاني وجدوا جثة السائس ملقاة في منحدر ضيق بين جبلين .

فتحقق جلال الدين أن الأميرين اختطفا مع خادميهما ، وأن المختطفين قتلوا سيرون ، لأنهم ضاقوا بمقاومته ، وأمر رجاله بالبحث عنهم فيما حول الجبلين ، وذهب معهم بنفسه ، فلم يجدوا لهم أثرًا ، ولم يسمعوا عنهم خبرًا ، فكاد جلال الدين يموت من الغم ، وامتنع عن الطعام وعزم ألا يبرح ذلك المكان حتى يقف على خبرهم .

وكانت الرسائل تتوالى عليه من نواب بلاده ، يخبرونه بأن جنكيز خان قد قطع بجموعه النهر ، وانقضوا على بخارى فدمروها ، وانتقموا من أهلها شر انتقام من جراء ذلك الفريق البخاري الباسل الذي هاجم مؤخرة التتار في معركة مرو ، فكان سبب هزيمتهم والقضاء عليهم ، وأنهم دالفون على سمرقند ، ففاعلون بها ما فعلوه ببخارى .

ولكن جلال الدين كان في شغل شاغل عنهم من أمر محمود وجهاد ، فكان يعرض أحيانًا عن الرد ، وأحيانًا يعد بقرب المسيرة .

مرت الأيام على جلال الدين وما يزيد حاله إلا سوءا حتى يئس رجاله من رجوعه إلى صوابه ، وكانت الأنباء تأتيهم بتقدم جنكيز خان واستيلائه على المدينة ، يقتل فيها ، وينهب ويدمر ، حتى بلغ تبريز ، فعزّ عليهم أن يبقوا واقفين أمام سلطانهم المرزوء فى عقله ، الميئوس من حاله ؛ حتى يطحنهم التتار وهم ينظرون .

فتسللوا من حوله ولحقوا بإخوانهم المجاهدين ، البخاريين ، والسمرقنديين ، وأمّروا عليهم أحدهم ، فلقوا طلائع التتار بين تبريز وديار بكر ، وقاتلوهم قتالا شديدا ؛ حتى هزموهم وقوى أملهم فى النصر بعد ذلك ، إذ علموا أن جنكيز خان قد قفل راجعا إلى بلاده لعلة شديدة أصابته ، خشى منها أن تودى بحياته فيموت فى غير مسقط رأسه ، وكان قد بلغه ما صار إليه خصمه الكبير من سوء الحال ، فرأى أن القضاء عليه أيسر من أن يقتضى بقاءه في قيادة الجيش واحتمال العلة فى

ديار الغربة ، ولكنه أصدر قبل رحيله أوامر صارمة إلى رجاله ألا يقتلوا جلال الدين إذا ظفروا به ، وأن يجتهدوا فى القبض عليه وحمله حيًّا إليه ؛ ليرى رأيه فيه وينتقم منه بنفسه .

وما لبث التتار أن أقبلوا أفواجا يتدفقون تدفق السيل ، فغص بهم الفضاء ، وأيقن المسلمون ألا قبل لهم بملاقاتهم ، ولكنهم تعاهدوا على الموت في سبيل الله ، فوقفوا فى وجه العدو ، كأنهم البنيان المرصوص ، فلم يستطع أن يتقدم شبرا إلا على أشلاء الأبطال المجاهدين .

سال طوفان التتار بعد انكسار هذا السد المنيع ، فطم تلك البلاد والقرى ، ولم يبقى بينهم وبين الموضع الذى أقام فيه جلال الدين إلا بضعة فراسخ ، ما لبثوا أن قطعوها فوت الريح ، وكانوا قد علموا أين يقيم ، وليس كالتتار سرعة وحركة ، ومهارة فى التجسس واستطلاع أحوال العدو ، فلهم فى ذلك أمور تشبه الخوارق .

وكان قد بقى مع جلال الدين عدد قليل من رجاله ، عز عليهم أن يتخلوا عن سلطانهم العظيم ، وهو فى حاله تلك ، وآثروا أن يحتملوه على علاته ، ويكونوا معه إلى النهاية ، وقد أزعجهم تقدم التتار ، فتأهبوا لحماية مولاهم والذب عنه ، ريثما يعدون العدة للفرار به إلى حيث يجدون مأمنا .

بيد أن التتار قد صاروا إذ ذاك أقرب إلى جلال الدين ورجاله مما ظنوا ، فما شعر هؤلاء إلا بالطلائع قد كادت تحيط به ، فقاموا إلى السلطان وأركبوه الفرس ونجوا به منهم .

وأفاق جلال الدين خلال ذلك ، وأدرك ما هو فيه من خطر ، فانطلق إلى آمد ، فمنع من دخولها ، وكبسه رجال من العدو وأحدقوا به دونها حتى لو شاءوا أن يقتلوه لأمكنهم ذلك ولكنهم إنما أرادوا القبض عليه ، فدافعهم عن نفسه وقتل جماعة منهم ، وذب عنه بعض خواص رجاله ، وشاغلوا رجال العدو حتى خلص منهم .

وطارده فرسان التتار ، وكان لا يبارى فى ركوب الخيل ، ففاتهم حتى دنا من ميافارقين ليحتمي بملكها ، فدخل قرية من قراها ، ولكن الفرسان لحقوه بها ، فبرحها ، ودفع جواده فطار به منهم وصعد إلى جبل هناك يسكنه قوم من الأكراد يتخطفون الناس فلجأ إلى أحدهم وقال له : أنا السلطان جلال الدين استبقنى وأخف مكانى عن العدو الذى يطاردنى ، وسأجعلك ملكا ، فأخذه الكردى إلى بيته وأوصى امرأته بخدمته .

وكان قد لمح جلال الدين كردى آخر موتور منه فعرفه ، ورآه حين دخل البيت ، فأخذ يتربص خلو البيت من صاحبه ، فلما خرج صاحب البيت لقضاء حاجة له جاء الكردى الموتور وبيده حربة فقال :

«لمَ لا تقتلون هذا الخوارزمى ؟» فقالت امرأة صاحب البيت : « لا سبيل إلى ذلك ، فقد أمَّنه زوجى»

فقال الكردى : «لا أمان لهذا : إنه السلطان وقد قتل أخا لى فى خلاط خيرا منه» .

وكان جلال الدين رابط الجأش ولم ينبس ببنت شفة ، وما أتم الكردى كلمته حتى هز حربته فسددها بقوة إلى السلطان ، فحاص عنها فنشبت فى الجدار خلفه ، وأسرع جلال الدين فاختطفها منه وقال له : «الآن سألحقك بأخيك» .

فأيقن الكردى أنه مقتول فقال له : «إن تقتلنى كما قتلت أخى فقد شفيت نفسى باختطاف ولديك !»

كانت هذه الكلمة الصغيرة أشد وقعا على جلال الدين مما لو أصابت الحربة كبده ، فقد زلزلت كيانه ، وأفقدته تماسكه ، وعجب الكردى إذ رأى خصمه ، واجما ينظر إليه نظرة ذاهلة والحربة تضطرب في يده ، وكان قد ملكه الخوف ، وتوقع بين لحظة وأخرى أن تخترق الحربة حجاب قلبه ، ولم يكد يصدق أنه حى بعد لولا أنه سمع بأذنيه قول السلطان يسأله بلهجة حزينة : «ماذا صنعت بهما يا هذا؟» قال الكردى وقد زال عنه بعض خوفه : » إنهما عندى ولن أسلمهما إليك حتى تؤمننى» .

– قال جلال الدين وقد تهلل وجهه : »قد أمنتك» .

– « لا أصدقك حتى ترمى هذه الحربة من يدك ، فألقاها جلال الدين على الأرض» . . قائلا : «اذهب فأتنى بهما ، وسوف أكافئك حين أقدر على مكافأتك» .

فقصد الكردى جهة الباب وهو يتوقع أن الحربة ستدق فى ظهره ، حتى إذا أيقن أنه بمنجاة من بطش جلال الدين به وقف خارج الباب وصاح : «أيها المخبول نجوت منك ! لقد بعت ولديك لتجار الرقيق من الشام فلن يعودا إليك أبدا» .

وهم الكردى بالهرب لولا أن رأى السلطان يتمايل كالذى يدار به حتى سقط على جنبه وهو يقول : «لا حول ولا قوة إلا بالله ! لقد بيع محمود وجهاد بيع الرقيق !»

فكر الكردى راجعا ، والتقط الحربة فطعن بها جنب جلال الدين ، فنشبت بين ضلوعه ولم يحاول جلال الدين أن يدفع الكردى عن نفسه ، بل استسلم له قائلا : »هنيئا لك يا كردى ، لقد ظفرت برجل أعجز جنكيز خان ! أجهز علىَّ وأرحنى من الحياة فلا خير فيها بعد محمود وجهاد» .

وأراد الكردى نزع الحربة الناشبة بين الضلوع فلم يستطع ؛ حتى ساعده جلال الدين على ذلك وهو يقول : »عجِّل بموتى حنانيك !» .

وسدد الكردى الحربة إلى صدر جلال الدين فدقها فيه ؛ حتى نفذ سنانها إلى الأرض وهو يقول : «هأنذا أرحتك من الحياة» .



١ . كيف عاش السلطان جلال الدين فى مملكته الصغيرة فى الهند؟

٢ . إذا كانت التتار أمة لا تطمع فى ملك البلاد وحكمها ، فماذا تريد من الإغارة عليها؟

٣ . لماذا رأى جلال الدين أن الفرصة سانحة لاسترداد بلاده؟

٤ . جهز جلال الدين جيشا قوامه خمسة آلاف وسار بهم وأخذ ولديه محمودًا وجهاد . فماذا كانت النتيجة؟

٥ . بين كيف سيطر على محمود شعور غريب وملك عليه جميع مذاهبه وأنه سيقاتل التتار وينتقم منهم .

٦ . بلغ جلال الدين أن جنكيز خان قد أرسل جيوشا عظيمة ودارت بينهما معارك انتصر فيها جلال الدين . اشرح ذلك .

٧ . عادت المعارك بينهما . بين سبب إخفاق جلال الدين وهزيمته .

٨ . بلغ جلال الدين خطف ولديه مع خادميهما . فماذا فعل؟

٩ . لماذا تغيرت طباع جلال الدين؟ وماذا حدث بعد ذلك؟

١٠ . تسلل رجال جلال الدين من حوله . لماذا؟

١١ . كيف قتل الكردى جلال الدين؟ وما الخديعة التى خدعه بها حتى تمكن من قتله؟

١٢ . ماذا قال جلال الدين لقاتله الكردي حين رماه بالحربة؟



الفصل الخامس

مات جلال الدين ولم يعلم عن محمود وجهاد إلا أنهما اختطفا ، فبيعا لأحد تجار الرقيق بالشام ، أما كيف اختطفا وماذا لقيا بعد ذلك ، فبقى سرًّا مكتومًا عنه إلى الأبد ، وتفصيل ذلك أن السلطان جلال الدين كان شديد الولع بالصيد لا يتركه فى إقامته ولا سفره . وقد بلغ به حب الصيد أن ربما كان يسنح له سرب من الظباء ، أو حمر الوحش فى طريقه وهو سائر إلى غزوة أو قتال فينفتل عن جيشه فى أثر السرب ، ولا يعود ؛ حتى يصيب شيئا منه فيأمر رجاله بحمله . وطالما نصحه خاصة رجاله فى ذلك وحذروه مما قد ينتج عنه من الخطر على نفسه أو على جيشه ، فكان يسلم لهم بصواب رأيهم ويعدهم بألا يقع ذلك منه مرة أخرى ، ولكنه لا يلبث أن يرى صيدا فينطلق فى أثره . ويقول لهم فى ذلك إنه أمر لا يقدر على دفعه . وقد سرى هذا الغرام بالصيد منه إلى ابن أخته من طول ما صحبه الغلام حين كان يخرج لذلك فى بلاد الهند ، وكثيرا ما خرج محمود مع سيرون ، سائسه لاصطياد الأرنب البري خاصة .

وفى أثناء عودة جلال الدين إلى بلاده للقاء جنكيز خان ، لم يشغله ذلك عن الانفتال عن عسكره ، والجرى وراء غزال لاح له فى أول الطريق ، فحبسهم ساعة ينتظرونه حتى رجع .

وبينما كان محمود وجهاد يسيران فى مؤخرة الجيش إذ بصرا عن يمينهما بأرنب برى منطلق بين الحشائش فى أسفل الجبل ، فساق محمود فى طلبه ، وانطلقت جهاد وراءه وجدَّ معهما الحارسان ، ليرداهما عن ذلك حتى غابوا جميعا فى منعطف الجبل ، ولم يكترث لهم أحد من الجيش اتكالا على وجود الحارسين مع الأميرين ، ولم يخامر أحدا منهم شك فى أن هؤلاء سيعودون ويلحقون بهم ، وقد صار مألوفا عندهم أن يتخلف الأميران عنهم قليلا فلا يلبثان أن يعدوا وراءهم حتى يفوتاهم .

أما ما فات الجيش كله علمه ، فهو أن سبعة من الأفراد الموتورين كانوا يسيرون وراءه غير بعيد منه ، متوارين خلف الأشجار أو خلف التلال يتطلعون إليه يقظين حذرين بحيث يرونه من حيث لا يراهم ، قد لمحوا محمودا يطرد وراء الأرنب ناحية الجبل ، وخلفه جهاد والحارسان ، فداروا من خلف الجبل ، وطلعوا عليه من ثنيته فجأة ، فأحاطوا بهم ، وتلقف أحدهم محمودا فأنزله من جواده وكم فاه ، وقبض ثان على جهاد وصنع بها ما صنع رفيقه بمحمود ، وهدد الآخرون الشيخ سلامة وسيرون بقتلهما وقتل الأميرين معهما إذا صاح أحدهما بكلمة ، أو أبديا حركة للفرار ، فهمَّ سيرون بالاستغاثة ، ولكن الشيخ سلامة أشار له أن يلزم الصمت وأن يطيع القوم ، فاستسلما لهما خوفًا على حياة الأميرين ، وطمعًا فى أن يلحق بهم جماعة من الجيش للبحث عنهم إذا استبطأوا عودهم .

ولكن هذا لم يغب عن الأشقياء فجعلوا همهم الفرار بهم من ذلك الموضع بأسرع ما يمكنهم ،

فأردف اثنان منهم الصبيين وسبقاهم إلى الثنية ، وتبعهما الآخرون يسوقون الحارسين بسيوفهم ، حتى إذا بلغوا السفح الأخير من الجبل بدت من قبل سيرون محاولة للهرب ، فما أمهله أحدهم أن طعنه برمحه فى كبده حتى أثبته ، فأخذوه فرموا به فى منحدر ضيق عن يمين الجبل ، وأخذوا بعنان جواده ومضوا في منعطفات الجبال وسلكوا الأودية الضيقة ، ومازالوا كذلك حتى رقوا بهم الجبل الذى لاذ به جلال الدين بعد ذلك ، حين طارده التتار ، فلقى حتفه على يد الكردى الموتور .

وكان يسكن هذا الجبل قوم من الأكراد شطار ، يقطعون الطرق على القوافل فينهبونها ، وعلى المسافرين فيقتلونهم ، ويخطفون أطفالهم ونساءهم فيبيعونهم لعملائهم من تجار الرقيق الذين كانوا يرتادون هذا الجبل لهذا الغرض الممقوت ، فيحملهم هؤلاء إلى أسواق العراق ومصر والشام .

لم يقم محمود وجهاد بجبل الشطار إلا بضعة أيام ، حتى جاء أحد تجار الرقيق إلى الجبل ، فعرضوهما عليه بعد أن غيروا اسميهما العربيين باسمين أعجميين فاشتراهما منهم بمائة دينار ، أما الشيخ سلامة فإنه لما عرض على التاجر أبى أن يشتريه ، وقال : «ما أصنع بهذا الشيخ الفانى؟» فاستاء الشيخ من ذلك ، فقد كان يود أن يصحب الأميرين لعلهما يستأنسان به ، أو يحتاجان إلى خدمته ، ولو بعض حين ، ريثما يوطنان نفسيهما على هذا الأسلوب الجديد من الحياة الشاقة التى تختلف عن حياتهما السابقة كل الاختلاف ، ولما يئس من مرافقتهما ؛ لأن التاجر أبى شراءه حزن لذلك أشد الحزن إلا أنه تعلل بأنه مهما رافقهما فلابد أن يفترق عنهما يوما فى سوق النخاسة ، فسلم أمرهما إلى الله .

وأراد أن يزودهما بنصيحة تنفعهما فى حياتهما الجديدة ، فتوسل إلى البائعين ؛ ليأذنوا له أن ينفرد بهما ، كى يودعهما ، ويسدي إليهما نصائح تنفعهما ، فأذنوا له بذلك ، وكان مما يسر له موافقتهم أن محمودا كان لا يكف عن التبرم والشكوى ولا يفتأ يلعن خاطفيه ويسبهم ويعلن أنه ابن أخت السلطان جلال الدين ، وأن جهاد ابنته ، وأن من باعهما أو اشتراهما فهو متعرض لنقمة السلطان وسطوته ، وكان يضرب بيده أو يركل برجله أى واحد من هؤلاء يقترب منه ، فيعاقبونه بالضرب الموجع ؛ ليمتنع عن ذلك فلا يمتنع ، وأن جهاد كانت تواصل البكاء لا يرقأ لها دمع ، ولا يسوغ لها طعام ، حتى نحل جسمها ، واصفر وجهها ، وخشى عليها من جراء ذلك ، فقال لهم الشيخ : إنه لو خلا بهما فتلطف فى نصحهما لربما استطاع أن يفثأ لوعتهما ، ويهدئ ثورتهما ، ويصرفهما عما هما فيه من البكاء وعدم الانقياد ، فكان فى ذلك مصلحتهما ومصلحتهم ومصلحة التاجر ، وكان يقول لهم ذلك بغاية الحكمة والرزانة ، فاستنصحوه واستصوبوا رأيه ، وقبلوا طلبه .

ولما خلا بهما قال لهما بصوت يفيض رقة وحنانا ، ويتنازعه الحزن والتجلد : « يا أميرى الحبيبين قد رأيتما ما نحن فيه من البلاء والمكروه ، وإن علينا أن نلقاه بالصبر حتى يأتينا الفرج من الله ، وإنه لقريب إن شاء الله ، إنكما حديثا السن ، طريا العود ، ولكن الله قد رزقكما من الذكاء والفطنة ما تفوقان به على كثير ممن هو أكبر منكما سنًّا . أنتما من أولاد الملوك ، فجدير بكما أن تصبرا صبر الملوك ، إن الجزع

لا يفيدكما شيئا بل يزيد بلاءكما وشقاءكما ، وربما يسلمكما إلى مرض يودى بحياتكما ، فيشق ذلك على مولاى السلطان جلال الدين حين يطلبكما بعد أن ينتهى من قتال التتار فلا يجدكما . يا ولدى العزيزين إن هؤلاء اللصوص اختطفوكما ، فباعوكما لهذا التاجر ، وإن مصلحته أن تكونا معه بخير حتى يبيعكما بثمن يرضيه . فاسمعا له وأطيعاه ؛ ليحسن معاملتكما ، ولا يتعرض لكما بسب إو إهانة . وإنه يعرف قدركما ولا يجهل قيمتكما ، وسيطلب بكما ثمنا كبيرا فلا يتصدى لشرائكما إلا السراة والأمراء ومن فوقهم من الملوك والخلفاء حيث تعيشان فى قصورهم عيشة صالحة ، حتى تنقضى هذه المحنة القصيرة إن شاء الله . . . إن مولاى السلطان جلال الدين سينتصر على التتار بإذن الله ، وسأكتب إليه بأمركما فسيبعث فى طلبكما من أطراف الأرض ، وسترجعان إليه فيفرح بكما وتفرحان به . ولكى يسهل عليه الاهتداء إليكما ، عليكما أن تصغيا لما أقول ، إياكما أن تقولا لأحد إنكما من أولاد جلال الدين ، اكتما هذه الحقيقة عن كل أحد لأن هذه الحقيقة قد تسبب لكما متاعب أنتما فى غنى عنها ، وقد تحول دون سهولة الاهتداء إليكما حين يسعى فى طلبكما مولاى السلطان ، إذ قد يضن بكما من تكونان فى حيازته ، فيبالغ فى إخفائكما ، ويحول بينكما وبين وسائل الإعلان عن مقركما ، إما بالكتابة إلى مولاى السلطان أو الاتصال بأحد معارفه أو رسله . أما إذا بقى هذا السر مكتوما حتى تحين ساعة الطلب ، فسيكون يسيرًا عليكما أن تهدياه إلى مقركما ، حيث يأخذكما إليه ، والحمد لله قد كفانا هؤلاء اللصوص مؤنة تغيير اسميكما ، فليعتمد كلاكما اسمه الجديد ، ولا يجد فى ذلك حرجًا ؛ فإنه اسم مؤقت ينتهى أجله حين تنقشع هذه الغمامة ، ويومئذ يموت المملوك قطز ، وتموت المملوكة جلنار ، ويعود الأمير محمود بن ممدود ، والأميرة جهاد بنت السلطان جلال الدين إلى القصر الملكي بغزنة ، حيث يرثان ملك آل خوارزم شاه ، بعد عمر مديد لمولاى السلطان .

قال محمود : «هيهات أن يكون المملوك ملكا ، إنى لا أريد المُلك ، وحسبى أن أعود أنا وجهاد إلى خالي ، وأقاتل التتار معه» .

فقال الشيخ : «اذكر قصة يوسف الصديق - عليه السلام - كيف بيع بدراهم معدودة لعزيز مصر ، فما لبث أن صار مَلكًا على مصر ، وهكذا تحدثنى نفسى أنك ستكون كيوسف غير أن يوسف كان من بيت النبوة ، وأنت من بيت المُلك ، يا ليتنى أعيش حتى أراكما تملكان البلاد ، ولكنى شيخ كبير لا أحسب عمرى يمتد بى إلى ذلك العهد السعيد» .

وكانت جهاد تصغى لحديث الشيخ بكل جوارحها ، وقد كفكفت دمعها ، واطمأنت إلى صدق ما يقول ، فما قال الشيخ كلمته هذه حتى قالت له : «كلا ستكون معنا دائما ولن تفارقنا» .

فقال الشيخ : «يسمع الله منك يا أميرتى الصغيرة ، إنى سأبقى هنا : لأن التاجر أبى أن يشترينى لكبر سنى ، ولكنى سألقاكما قريبا إن شاء الله عند مولاى جلال الدين ، فلا أفارقكما حتى الموت ، ولعل بقائى هنا أنفع لنا ، إذ أكون قريبا من بلادنا فأكاتب السلطان بأمركما ، وأطمئنه بوجودكما» .

وأحس الشيخ بأن مدة الانفراد بالصبيين قد طالت ، وخشى من غضب الجماعة عليه ، فأعاد عليهما مجمل حديثه السابق تثبيتا له فى أذهانهما . وأكد عليهما ألا يبوحا بحقيقة حالهما لأحد ، وأن يطيعا أمر مولاهما : ليحسن معاملتهما ، ثم دنا منهما فضمهما إلى صدره وهو يقول : «أستودعكما الله حافظ الودائع» . فطفقا يبكيان ويقبلا رأسه ، ثم قام بعد أن هدأهما وجفف دموعهما ، وسار بهما إلى مجلس القوم ، حيث ينتظرهما التاجر ليمضى بهما فقال له : «يا سيدى إنى قد أوصيتهما بطاعتك فلن يخالفا أمرك ، فأوصيك بهما خيرًا ، إنهما حديثا السن قليلا التجارب ، فارفق بهما وأحسن سياستهما بارك الله لك فيهما وبارك لهما فيك» .

وعجب القوم إذ رأوا الغلام قد لان جانبه ، وانكسرت شكيمته ، بعد أن كان عصيا عنيدا ، والجارية قد سكن جأشها ، واطمأن بالها ، فتبعا مولاهما طائعين ، غير متمردين ولا متذمرين ، غير أنهما لما ارتحل التاجر بهما على بغاله ، غامت عيونهما بالدمع ، والتفتا إلى جهة الشيخ وجعلا يلوحان له بأيديهما حتى اختفيا .

واختلف القوم فى أمر الشيخ ماذا يصنعون به ، فمن قائل : نطلقه يمضى حيث يشاء ، ومن قائل : نستخدمه وندعه يحتطب لنا ، حتى اتفقوا آخر الأمر على أن يبقوه عندهم حتى يبيعوه لتاجر آخر قد يرغب فى شرائه .

وما أوى الشيخ سلامة إلى محبسه ، حتى انكب على وجهه ، وجعل يبكى بكاء مرا ، وهاجت شجونه ، فتذكر أيامه فى خدمة مولاه الكبير ، السلطان خوارزم شاه ، وخدمة السلطان جلال الدين من بعده ، وما شهدت عيناه من الأحداث والنكبات التى حلت ببيتهما ، وكان آخرها هذا الذى نزل ببقية ذلك البيت المجيد ، وأفضى بهذين الأميرين الصغيرين إلى ذل العبودية وهوان الرق ، حيث يباعان فى أسواق النخاسة ، ويتنقلان فى أيدى المالكين .

ومما زاده ألما وملأه حسرة وغمًا ، أنه – وهو خادمهما الأمين – قد استعمل نفوذه عليهما ، وثقتهما به واطمئنانهما إليه ، فى حملهما على الرضاء بهذا الهوان ، واستنزالهما عن إبائهما وعزتهما ، ليخضعا خضوع العبيد لمن اشتراهما بمائة دينار ، وأنه استغل سذاجتهما وسلامة نيتهما وقلة بصرهما بالحياة ، فخدعهما عن حقيقة حالهما ، وكنه مصيرهما وأوهمهما ضلة وكذبا أن هذه محنة طارئة لا تلبث أن تزول وغمة عارضة لا تلبث أن تنقشع .

نعم إنه أشفق عليهما من إهانة المولى وقسوة المالك ، ولم يرد بهما إلا الخير ، إذ نصحهما بالخضوع وحسن الطاعة ، ولكن علام هذا كله ، وفيم هذا الحرص على البقاء ، وما قيمة الحياة إذا فقد المرء حريته وشرفه ، وصار سلعة تباع وتشترى؟ فكيف بأمير وأميرة نشأ فى أكبر بيوت الملك ، وتقلبا فى أعطاف النعمة والعز ، يراد بهما أن يرضيا بحياة العبد والأمة ، حيث يلقيان صنوف الذل وألوان

الامتهان ، ويلقى إليهما أن فى ذلك خيرهما وسعادتهما لئلا يأتيهما الموت ، فيقطع عنهما فتات الموائد وفضول الشراب !

إنهما ذهبا راضيين لما خلبهما من سحر حديثه ، آملين أن يعودوا إلى كنف السلطان جلال الدين بعد برهة قصيرة من الزمن . فماذا يكون حالهما إذا تبدد منهما هذا الحلم الجميل ، وعرفا الحقيقة المرة : أن لا خلاص من حياة الرق ، ولا فكاك لهما من قيد الاستعباد؟ وأنكى من ذلك أن هذين الأميرين عاشا أليفين متلازمين منذ الطفولة ، لم يغب أحدهما يومًا واحدًا عن الآخر ، ولا يكاد يصبر ساعة عنه ، وقد ظنا حين ذهبا مع النخاس أنهما سيظلان كما كانا رفيقين متلازمين ، ولم يخطر ببالهما قط أن أسواق الرقيق قد تفرق بينهما ، فيقع هذا فى يد رجل من المشرق وتباع هذه لرجل من المغرب ، وكانا يشعران من طول تلازمهما أنهما شخصان لا يفترقان أبدا وأنهما سيعيشان معا ويموتان معا ، وما دار بخلدهما أن أحدا من الناس مهما بلغ من الحول والقوة ، ومهما بلغ في تعذيبهما واضطهادهما يمكن أن يفكر فى إبعاد أحدهما عن الآخر ، فهذا شىء لا سبيل إليه ، وما علما أن تجار الرقيق لا يرعون لمثل هذه الألفة عهدا ، ولا يقيمون لهذه الصحبة الطويلة والتعاطف الأخوى وزنا ، وإنما يعتبرون المال وحده ، ويميلون مع الريح حيث تميل . فإن قدر لهما أن تضمهما يمين مالك واحد ، كان ذلك اتفاقا غريبا وصدفة غير مقصودة ، لا رعاية لهما ولا إبقاء على اجتماع شملهما .

جاشت هذه الخواطر كلها بقلب الشيخ المكلوم ، فشعر بهم عظيم يسد ما بين جوانحه ، ويأخذ بأكظامه ، فمل الحياة وتمنى لو اخترمه الموت ، فأراحه من همومه ، وآلامه . وبقى أياما لا يذوق الطعام الذى يقدم إليه حتى وهنت قوته وساء حاله ، وأصابته حمى شديدة بات يهذى منها طوال ليله ، حتى وجدوه فى الصباح جسدا هامدا لا حراك به ؛ فكفنوه فى ثيابه ، وأهالوا عليه التراب .

مات الشيخ سلامة الهندى ، ولم يدر بخلده وهو ينعي نفسه فى ذلك الجبل النازح أن مولاه وولى نعمته السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه سيلقى حتفه فى ذلك الجبل بعد بضعة أيام من وفاته ويدفن على مرمى حجر من قبره ، فى تربة كل قاطنيها عنهما غريب ، وليس لهما بينهم من صديق أو حبيب .



١ . كيف اختطف محمود وجهاد؟ وماذا لقيا بعد ذلك؟

٢ . بماذا نصح الشيخ سلامة محمودا وجهاد بعد بيعهما لتاجر الرقيق؟

٣ . غير اللصوص اسمى محمود وجهاد إلى اسمين أعجميين ، فماذا أسموهما؟

٤ . هل تأثر الشيخ سلامة بعد أن نصحهما بالرضا والتسليم؟ ولماذا؟



الفصل السادس

أما قطز وجلنار ، فقد وصل بهما التاجر إلى حلب ، فأنزلهما معه فى بيت بعض معارفه ، وكساهما ثيابًا حسنة وأراحهما ، ولم يكلفهما أى عمل يقومان به ، ولم يحبسهما فى المنزل بل تركهما يجيئان ويذهبان كما شاءا فى ساحة الحى ، وكان لطيفا معهما طوال الطريق ، يقدم لهما الطعام ، ويساعدهما فى الركوب والنزول ، ويجاذبهما أطراف الحديث ويداعبهما ، ويسليهما بالقصص والنوادر باللغة الفارسية التى كان يجيدها إجادة حسنة ، حتى مال الصبيان إليه ، وخف عنهما ما كان يجدان من الوحشة والقلق ، ونظرا إليه كأنه صديق لهما ، لا مالك اشتراهما بالمال . وكان للتاجر مملوك ثالث فى سنهما ، يدعى بيبرس ، قد أحضره إليه أحد وكلائه ، فضمه إليهما ولكنه كان يعامله معاملة قاسية ، ويضربه ويحبسه فى المنزل لا يبرحه مثلهما ، فعجبا فى أول الأمر من خلق الرجل كيف يرفق بهما ذلك الرفق ، ثم يقسو هذه القسوة على الغلام؟ ولكن سرعان ما زال عجبهما حين عرفا بيبرس وتمرده على مولاه ، وسوء خلقه معه ، وميله دائما للإباق منه ، فأدركا حينئذ أن مولاهما حكيم فى سياسته ، يعامل كلا بما يليق به من الشدة واللين . على أنهما مع ذلك لم يخلوا من الرقة لهذا الغلام القبجاقى الأشقر ، ذى العيون الزرق التى تنم عن الحيلة والمكر ، فكان قطز يحسن إليه على غير علم هؤلاء ، ويقتطع له شيئا من إدامه وحلواه فيقدمه له فيلتهمه الصبى التهاما ، فنشأت من جراء ذلك صداقة متينة بينهما ، أما جلنار فكانت مع شفقتها عليه تشعر بنفور شديد منه ، وتتقى نظراته الحادة كأنها سهام ماضية لا تقوى على احتمالها عيناها الوديعتان .

وما هى إلا أيام قلائل حتى حل موعد السوق بحلب ، وكان يوم الأربعاء من كل أسبوع ، فتقاطر إليه الناس من سائر مدن الشام وقراه ؛ ليشهدوا منافع لهم ويبيعوا ويبتاعوا ، وكان يقام فى رحبة واسعة فى طرف من أطراف المدينة تنصب فيها الخيام ، وتضرب فيها السرادقات العظيمة وتقسم أقساما : فقسم للحبوب والغلال ، وقسم للأقمشة والملابس من الصوف والقطن والكتان والحرير ، وقسم للآنية والسرج وسائر أدوات المنزل ، وقسم للأدوية والعطور ، والأدهنة والمقويات ، وقسم للجوارى والعبيد ، وقسم للخيول والمواشى ، إلى آخر ما هنالك ، وكان كل قسم من هذه الأقسام يسمى سوقا ، فسوق الغلال ، وسوق البز ، وسوق الرقيق ، وسوق الخيل ، وهلم جرا .

ولما أصبح يوم الأربعاء أمر التاجر مواليه الثلاثة فاغتسلوا وكساهم ، وأصلح شعورهم وطيبهم ، ثم مضى بهم إلى السوق الكبير ، أما بيبرس فقد أمسك التاجر بيده يجره جرا وهو يسبه ويلعنه ، وأما قطز وجلنار فقد أطلقهما ، فسارا فرحين ما يظنان إلا أنهما ذاهبان لشهود هذا الموسم العظيم ، والتفرج على مافيه ، حتى بلغ بهم سوق الرقيق فإذا سرادقات عظيمة مملوءة بالجوارى والغلمان من بيض وسود وألوان بين ذلك شتى ، وقد جلسوا على الحصر جماعات متفرقة ، وقام على كل جماعة

منهم الدلال الذى عهد إليه ببيعهما ، فيأخذ الدلال أحدهم ويوقفه على دكة منصوبة أمامه ، وينادى عليه بين الذين حضروا للابتياع بكلمات مسجوعة أو منظومة فى الإشادة بمحاسن المعروض للترغيب فى شرائه . وهؤلاء السماسرة يفتنون فى ذلك افتنانا عجيبا ، ويستعين كثير منهم بالشعراء ؛ لينظموا لهم مقطوعات فى أوصاف الجوارى والغلمان ونعوتهم المختلفة ، فينادون بها على من يعرضون من الرقيق بحسب ما يقتضيه المقام .

وما أن سلم النخاس مواليه الثلاثة إلى أحد الدلالين حتى جعل يقلبهم ، ويصعد النظر فيهم ، كأنه يختبر نعوتهم ، ويتبين سماتهم ، ثم كتب أسماءهم فى دفتره ، وتحت كل اسم منها صفته وسنه وأصله ، وأقل قيمة يطلبها صاحبه فيه ثم دفعهم إلى الحصير ، فقعدوا عليه بين غيرهم من الرقيق الذى عنده .

أما بيبرس فقعد مطمئنا لا أثر عليه من امتعاض أو اكتئاب ، وجعل يجيل نظراته الحادة فيمن حوله من الناس ، فإذا رأى عبدا أسود ، أو جارية شوهاء أو غلاما قبيح الخلقة ، ضحك عليه ، وأشار لقطز إليه غير مكترث بالدلال الذى كان يحده بالنظر ، مرة بعد مرة ، ويقطب له ليردعه بذلك عن عمله ، فما يجيبه بيبرس بغير إخراج لسانه ، وتحريك حاجبيه .

وأما قطز وجلنار فقد غلبهما الوجوم ، وأصبحا لا يعيان شيئا مما حولهما ، وظنا نفسيهما فى منام لا فى حقيقة ، لولا أنهما تذكرا ما وقع لهما من اختطاف اللصوص ، ثم بيعهم إياهما للنخاس ، وما زالا بعد فى ريب من أن يكون التاجر الواقف أمامهما بعد إذ سلمهما للدلال ، هو عين ذلك الرجل الذى أحسن إليهما منذ يومهما ، وأظهر لهما ذلك البر وتلك الرعاية . وترقرق الدمع فى مآقيهما فكانا يمسحانه بطرف ردائهما مسارقة ، وما أمسك دمعهما أن ينسكب إلا حياؤهما من أن يبدو عليهما الضعف بين من حولهما من الناس ، أو يظهروا أقل جلدا ، واحتمالا من زميلهما الضاحك العابث .

ومرت ساعات طويلة شهدا كيف تعرض الإماء والعبيد والغلمان ، وينادى عليهم ، ويقلبهم الراغبون فى الشراء ظهرا لبطن ، لا فرق بينهم وبين السلع ، فينفق من ينفق منهم ، فيمضى لسبيله مع من اشتراه ، ويبور من يبور ، فيعاد إلى مكانه فى الحصير كاسف البال . حتى جاء دورهما ودور صاحبهما فبدىء ببيبرس ، ونصب على المنصة وهو يلتفت يمينا وشمالا ، وقد جرد من ثيابه إلا ما يستر وسطه ، فبدا يابس الساقين ، بارز الصدر ، مفتول الساعدين ، فنادى المنادى وهو يضرب على صدره وظهره :

من للفتى القبجاقى ؟	ينفع فى الحماق
يدفع عن مولاه	كيد الذى عاداه
ستطلع الأيام	إن صح ظنى فيه

مغامـرا مقدامـا　　　　يعزمـن يؤويه
يهـزأ بـالأهـوال　　　　فى ساحة النزال

فتقدم إليه رجل يظهر من سحنائه وزيه أنه تاجر من مصر ، فاشتراه ونقد الدلال ثمنه مائة دينار . وكان مالكه النخاس لا يطمع فى أكثر من خمسين دينارا ولكن الدلال لما لحظ تطلع التاجر المصرى إليه وشدة رغبته فيه ، جعل يرفع قيمته حتى بلغ بها مائة ، فكان فوق أجرة الدلالة نصف ما زاد من قيمته على ما حدده المالك ، أى خمسة وعشرون دينارا . وقد فرح الدلال بهذه الصفقة فرحا كبيرا جعله يبالغ فى ملاطفة التاجر المصرى ويقول له :

«خذه إليك . . . بارك الله لك فيه ، وحافظ على هذا الغلام الخبيث ، فإنه شرس أباق» .

ولم يكن بيبرس يعرف العربية إلا قليلا ، ولكنه فهم من حركات الدلال وإشارات يده ، ونبرات صوته ، معنى الكلام الذى نادى به عليه ، فوقف حين وقف على الدكة مختالا بنفسه ، مدلا بقوته ، ونزل حين نزل منها ومشى إلى مولاه المصرى مزهوا يكاد يخرق الأرض تيها ، ولم يمض المصرى بعد أن اشترى بيبرس ، بل عاد إلى مكانه الأول ولزمه ، ينظر إلى الصبيين الوضيئين كأنه يرغب فى شرائهما أيضا ، أو يريد أن يرى كم يبلغ ثمنهما .

وأخذ الزحام يشتد على حلقة الدلال حينما تهيأ لعرضهما ، وكان فى الحاضرين رجل دمشقى جميل الهيئة ، تبدو عليه مخايل النعمة واليسار ، قد وخطه الشيب في رأسه ولحيته ، فزاده وقارا وهيبة ، وقد حضر إلى سوق الرقيق من الصباح الباكر ، فظل زمنا يطوف على حلقات السماسرة ، يجيل بصره فى وجوه الرقيق ، وكلما لمحت عينه صبيا أو صبية ، وقف عنده يتأمله تأملا دقيقا ، حتى وصل إلى حلقة دلالنا حافظ الواسطى ، فما وقع بصره على قطز وجلنار ، حتى خفق قلبه ، وقال فى نفسه : «هأنذا قد وجدت بغيتى» ، ووقف برهة يتفرس فى الصبيين ، فما يزداد إلا ميلا إليهما ورغبة فيهما ، ثم دار على الحلقات الأخرى كرة أخرى كأنه أراد أن يتثبت لنفسه ويستيقن أن ليس فيها أصلح له منهما ، وأوفق ، أو إنما شاء أن يصرف الأنظار عنه ، ولا سيما نظر الدلال لئلا يعرف تعلقه بهما فيغليهما عليه . ثم عاد إلى الحلقة واتخذ لنفسه مقعدا فى جانب منها ، بحيث يرى الصبيين ، فظل يسارقهما ويسارق الناس النظر إليهما طوال لبثه هناك ، ينتظر أوان عرضهما .

وما لبث قطز وجلنار أن شعرا بمكان هذا الشيخ الجميل الهيئة وتكراره النظر إليهما دون سائر الحاضرين الذين شغلهم التطلع إلى المعروضين قبلهما ، والاستماع إلى ما ينادى به الدلال الفصيح عليهم ، من طرائف البيان الممتع ، فألهاهم ذلك عنهما ، وهما يمسحان دمعهما الفينة بعد الفينة ، خلسة عن الأعين ، إلا عين ذلك الشيخ الذى كان لا يغفل عنهما لحظة ، كأنه مشغول بهما عما الناس فيه ، فتضايقا أول الأمر من عينه العالقة ، وحسباه رقيبا موكلا باستطلاع ما يحاولان ستره عن

العيون من لواعج همهما، لما شعرا به من الذل والمهانة فى ذلك الموقف البغيض، ولكنهما ما لبثا إذ رأيا الطيبة الناطقة فى وجهه ، والحنان الفائض من عينيه، أن تبدل شعورهما نحوه ، فصارا يميلان إليه، وطفقا يبادلانه النظر بحب وطمأنينة ، أحس بهما الرجل فشاع السرور فى وجهه، ولولا مراعاة الحاضرين لقام إليهما فاحتضنهما كما يحتضن الأب ولديه يلقاهما بعد غياب طويل ، وكذلك كان شعور الصبيين نحوه شبيها بشعوره نحوهما ، إذ أحسا كأنه صديق لهما يعرف حقيقة حالهما ، وسر نكبتهما ، قد جاء لينقذهما مما هما فيه ، وما يدريهما ألا يكون رسولا من قبل أبيهما السلطان جلال الدين ، قد بعث فى طلبهما بعد أن فرغ من قتال التتار. ألم يقل لهما ذلك الشيخ سلامة الهندى؟ ألم يعدهما بأنه سيكاتب السلطان بأمرهما من الجبل؟!

كان الصبيان يجيلان هذه الأفكار فى رأسيهما فى وقت معًا، كأنما يستبقان فى شوط واحد ، ولا بدع فى ذلك من أمرهما ؛ لأنهما درجا معا حتى بلغا من التآلف والتمازج أن صار أحدهما يعرف خبيئة نفس الآخر، ومكنون صدره، كأنما يشعران بقلب واحد. ولبثا ينتظران أوان عرضهما بفارغ الصبر، وهما لا يشكان فى أن صاحبهما سيتقدم لشرائهما ولا يغليهما عنده ثمن، وتشوقا إلى معرفة سره إذا ما اشتراهما ومضى بهما من ذلك السوق الذى أندى جبينهما ، ولقيا فيه الخزى والهوان.

أما الدلال فإنه ما كاد يفرغ من أمر بيبرس حتى وجد الناس يتطلعون إلى الصبيين ، وما يشكون فى أنهما شقيقان لشدة تقاربهما فى الملامح ، واتفاقهما فى الدم فوقف أمامهما لا يدرى بأيهما يبدأ ، وكانت سنته فى ذلك أن يبدأ بالأقل قدرا ؛ ليحتفظ ببقاء الناس فى حلقته، متطلعين إلى من يفضله من الباقين عنده ، وقد حار أى الصبيين يقدم ؛ لأنه لما يجزم أيهما يفضل أخاه ، ولكن قطز قطع عليه هذا التحير فى التخير. إذ قام فتقدم يعرض نفسه ، فما وسع الدلال إلا قبول عرضه ، فأوقفه على الدكة ووجهه يحمر خجلا ، يكاد ينبجس منه الدم ، ونادى عليه والعيون ثابتة فيه :

من للغلام الوسيم — من للنجار الكريم
ذكاؤه فوق سنه — وحسنه دون يمنه
سماحة وشجاعة — وعزة ووداعة
لولا صروف الليالى — ما بيع هذا بمال؟

ولم يكد الدلال يتم نداءه هذا حتى تسابق الراغبون فى شرائه أيهم يفوز به، فجعلوا يتبارون فى رفع قيمته ، حتى بلغوا بها مائتين وسبعين ، فأتمها الدمشقى ثلاثمائة ، فلم يجرؤ أحد على الزيادة ، فسلمه الدلال إليه وهنأه به. ومضى الغلام إلى مولاه الجديد فرحا بحمد الله على أن لم يظفر به سواه ووقف قريبا منه ، وما لبث الشيخ أن كلمه كلاما لينا تطييبا لخاطره ، فلم يفهم قطز ما يقول ، ولكنه أدرك أنه يلاطفه بذلك ، فود لو أن كان يعرف اللسان العربى ليجيبه على حديثه.

فاكتفى بأن ابتسم له ، ولم يمهلهما الدلال طويلا إذ أخذ حينئذ بيد جلنار ، فأقامها على الدكة فتوجه انتباههما وانتباه الناس إليهما ، وقد تورد خداها وأخذت ترنو إلى قطز وإلى مولاه الشيخ كأنها تستعطفه أن يحوزها ولا يدع أحدا غيره يفوز بها دونه .

ولم يخف على الدلال تطلع الحاضرين . ولا سيما الرجل الدمشقى لشرائها ، ولو شاء لاستغنى بعرضها عن المناداة عليها ، ولكنه لم يشأ أن يخل بعاداته هذه ، ولم تطب نفسه بالسكوت عن الإشادة بمحاسن هذه الصبية البارعة الحسن فجعل يقول :

يا قطرة من الندى   يا فلقة من القمر
يا نسمة من الشذى   تنفست وقت السحر
حاملة فى ردنها   أطيب أنفاس الزهر

فتنافس الحاضرون فى شرائها ، ولكن الرجل الدمشقى ظل يزايدهم فى الثمن حتى بلغ ثلاثمائة دينار ، وكان قد عزم على أن يقف عند هذا الحد ولا يزيد عليه . وكاد يتركها لمنافسه الذى زاد عليه عشرة دنانير لولا أن نظر إلى قطز فرآه ممتقع الجبين يابس الشفتين ينتفض من القلق ، والدمع فى عينيه يستعطفانه ألا يبخل بالزيادة لئلا يفرق بينه وبين رفيقته . فرق له ، وغلبته الشفقة ، فزاد أربعين دينارا دفعة واحدة ؛ ليقطع على منافسه السبيل ، فعرف المنافس أن لا فائدة من المزايدة فتركها له . وما كان أشد فرح الغلام إذ أعلن الدلال أنها لمولاه ، وقدمها له فنقده الشيخ ثلاثمائة وخمسين دينارا ، ومضى بهما وهما لا يكادان يصدقان من الفرح أنهما قد نجوا من خطر الافتراق .



١ . كيف عامل التاجر قطز وجلنار بعد أن وصل بهما إلى حلب؟

٢ . لماذا كان يعامل مملوكه بيبرس معاملة قاسية؟

٣ . ماذا حدث حين أخذهما إلى السوق لبيعهما؟

٤ . كيف اشتراهما الدمشقى؟



الفصل السابع

اطمأن بالصبيين المقام بدمشق عند سيدهما الجديد الشيخ غانم المقدسى، ونزلا فى قصره الكبير بدرب القصاعين، تحيط به حديقة غناء حافلة بالكروم وأشجار التين والتفاح والزيتون. وكان الشيخ غانم المقدسى من أعيان دمشق ووجهائها المعدودين، له أملاك كبيرة وضياع واسعة ورثها عن آبائه، وكان رجلا طيبا يحب الصدقة ويحضر مجالس العلم، وقد كبر فى السن ولم يسلم له من الولد إلا ابن يدعى موسى كان قد أنفق فى تربيته وتهذيبه كثيرا من المال؛ ليجعل منه رجلا صالحا يخلد ذكره، ويخلفه فى بيته المجيد، ولكن موسى أخلف ظن أبيه فيه، فنشأ فاسد الخلق ميالا إلى اللهو ومخالطة عشراء السوء من الفتيان الخلعاء الماجنين، وقد حاول أبوه بكل وسيلة أن يصرفه عن ذلك فلم يفلح، وما زاد موسى إلا عتوا ونفورا حتى يئس من إصلاحه، فترك حبله على غاربه واعتبره كأن لم يكن. ولولا مكان والدته وشفاعتها فيه لطرده من بيته وتخلص من معرته. وقد دفعه يأسه من ولده إلى التفكير فى أن يبتاع غلاما وسيما حسن الطلعة عسى أن يتخذه ولدًا يأنس به، ويطمئن إليه، ويجد عنده من البر والاستقامة ما فقده فى ولده. فجهد زمنا يتتبع أسواق الرقيق ليجد الغلام الذى يطمح إليه حتى وجد ضالته فى قطز فاشتراه ولم يتردد، لما توسم فيه من الخير والنبل، وعنَّ له لما رأى جلنار أن يشتريها أيضا، ليتخذها ابنة تؤنسه وتؤنس زوجته العجوز.

وشاء الله ألا تخطئ فراسة الشيخ فى الصبيين فلم تمض عليهما فى حوزته إلا أيام قلائل حتى تبين إخلاصهما فى حبه وتعلقهما الشديد به. فأحبهما وأنزلهما من نفسه منزلا كريما، وبالغ فى رعايتهما والحدب عليهما، ووكل بهما من ساعدهما على تعلم اللسان العربى، فكان لهما من ذكائهما ما أسرع بهما إلى معرفته وإتقانه فى زمن قصير.

ووردت الأنباء إذ ذاك بموت الطاغية جنكيز خان فى مسقط رأسه، وأن قومه التتار الذين كانوا يقاتلون السلطان جلال الدين قد انحسروا إلى بلادهم، ورجعوا عن غزو بلاد الإسلام لما بلغهم خبر هلاكه. ففرح الناس بذلك فرحا عظيما، وذهب عنهم ما كان يساورهم من الخوف والهلع، وحمدوا الله على أن كفاهم شر أولئك الغزاة المتوحشين الذين ينزلون الهلاك والدمار والنقمة والعذاب بكل بلد ينزلونه، وبلغهم كذلك موت السلطان جلال الدين قتيلا فى جبل الأكراد حين لجأ إليه بعدما انهزم من عدوه، فمنهم من شمت بموته، ومنهم من حزن عليه لما قام به وقام أبوه من قبله من جهاد التتار وصد جموعهم عن بلاد الإسلام.

استفاضت هذه الأخبار فى دمشق حتى صارت حديث الناس فى مجالسهم وأسمارهم، وتذكروا وقائع جلال الدين وخوارزم شاه مع التتار، وما حل بهما وببيتهما من النكبات العظام، حتى انطوى

ملكهما ، وانقطع دابرهما ولم يبق من أهلهما من أحد . ولكن أحدا منهم لم يعلم أن ابنة جلال الدين وابن أخته يعيشان بين ظهرانيهم فى قصر من قصور مدينتهم العظيمة ، وعند رجل من كبار أعيانها . وقد حزن قطز وجلنار لما بلغهما موت جلال الدين ، وقد كانا يمنيان أنفسهما بالرجوع إليه ، فانقطع أملهما فى ذلك ، وأيقنا أنهما سيبقيان فى رقهما إلى الأبد ، وإنما عزاهما فى ذلك وخفف من حزنهما ما كان يجدان من بر مولاهما وحسن رعايته وإحسانه ، فجعلهما يسلوان مصابهما وشيكا .

ومرت السنون سراعا ، وتوالت الأحداث تترى ، وانقضت لهما فى بيت الشيخ غانم المقدسى عشرة أعوام أو تزيد نميا فيها وترعرعا حتى بلغ قطز مبلغ الرجال ، وبلغت جلنار مبلغ النساء ، وكانت الألفة بينهما تنمو معهما وتترعرع ، فشعرا بفيوض من السعادة لم يشعرا بمثلها قط تغمرهما فتنسيهما كل ما مر بهما من نعيم الملك ، وما اختلف عليهما بعد ذلك من صروف الأيام ونكباتها . وحليت الدنيا فى عينهما فصارت رياضا وأنهارا وورودا وأزهارا ، وطيوفا من ضياء الشفق البهيج ، وروحات من نسيم الفجر العليل يتقلبان منها فى أيام كلها أصيل وليال كلها سحر .

وكان مولاهما الشيخ وزوجته يعلمان بهذه الصلة البريئة الطاهرة بينهما فشملاهما بالعطف والرضا ، وتعهداها بالتنمية ، ووعداهما بتزويج أحدهما من الآخر حينما تتهيأ الفرصة ويخف الشيخ من مرض الشلل الذى ألم به ، لكى يحتفل بعرسهما .

ولما تطاول به المرض أراد أن يحتاط لمستقبلهما فأوصى لهما بجزء من أملاكه ، وبأن يعتقا إذا ما دهمه الموت قبل أن يهيئ لهما أمرهما .

على أن الجنة التى يعيش فيها هذان الحبيبان لم تخل من شيطان يكدر صفوها عليهما ، وينفث فيها سمومه نكاية بهما وسعيا فى إخراجهما منها ، فهذا موسى الخليع الفاسد قد زادت غيرته من قطز لما انفرد به دونه من ثقة أبيه حتى سلمه مقاليد خزائنه ، وأسند إليه إدارة أمواله وأملاكه ، فكان قطز يوزع صدقاته ونفقاته على أقاربه وذويه ، وينفق على حاجات القصر ومن فيه من الخدم والعبيد ، ولا يخرج دينار ولا درهم إلا من يده ؛ فشق ذلك على موسى ، وغاظه أن يتسلم راتبه اليومى من يد مملوك أبيه . ومما زاد حقدا عليه أنه كثيرا ما يحتاج إلى المال لينفقه في سبيل غيه وفساده ، فيتوسل إلى قطز ليعطيه زيادة على راتبه من غير علم أبيه ، فيأبى قطز ويقول له : «هذا مال سيدى ، وإنما أنا أمين عليه فلا أفرط فيه ، ولكن استأذن أباك فإن أذن لك أعطيتك منه ما تحب . . . . » . فيتوعد قطز ويتهدده ، وقطز لا يأبه له .

ولم تسلم جلنار من إيذائه ومضايقاته ، إذ كان يغازلها ويتعرض لها بكل سبيل ويسمعها كلمات يندى لها جبينها ويمجها سمعها ، فلما كثر ذلك عليها شكته إلى مولاتها فعنّفته أمه على فعله قائلة له : إنها زوجة قطز ولاسبيل له عليها ، وهددته بقطع نفقته وطرده من المنزل إذا عاد إلى مضايقتها ، وزاده هذا كراهية لقطز وغيرة منه . وكان قطز يعطف على هذا الشاب الفاسد ويرق لحاله ، ويتحمل

كثيرا من أذاه ولا يشكوه إلى أبيه لئلا يؤذيه ويزيد من مرضه ، وكان كثيرا ما ينصحه بالإقلاع عما هو فيه من الشراب والفساد أو الإقلال منهما ، ويعده بالسعى عند والده ليرضى عنه ويزيد فى راتبه ، فما يزيده هذا إلا بغضا لقطز ، وتعاليا عليه ، وتماديا فى غيه .

واشتدت العلة بالشيخ غانم ، فقلق عليه جميع من فى القصر ، إلا ابنه موسى ، فقد فرح بذلك وجهر بأن سيخلو له بموت أبيه فيتصرف فى أمواله وأملاكه كما يشاء ، وينتقم من قطز ، فيهينه ويضطهده وينتزع جلنار منه ، ويكرهها على الخضوع لما يريد ، وتمادى فى الغى حين أيقن بقرب وفاة أبيه .

ومات الشيخ غانم المقدسى بعد حياة مديدة قضاها فى البر والتقوى والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، والإنفاق على اليتامى والأرامل ؛ فبكاه الناس وأسفوا لفقده وترحموا عليه ، وإذا ذكروا ابنه موسى عز عليهم ألا يخلف هذا الرجل الصالح إلا ذلك الولد الطالح !

وأما قطز وجلنار فقد رحل عنهما منه والد كريم ، رءوف بهما رحيم ، فبكياه أحر البكاء وواسيا زوجته العجوز بكل مافى وسعها ، وقاما على خدمتها ، وصبرا فى سبيلها على ما يصيبهما من لسان موسى ويده ، إذ تنمر بعد وفاة أبيه ، وجعل يضطهدهما ، ويعتدى على قطز بالسب والضرب ، فما يجيبانه بغير الصبر والسكوت إكراما لمولاهما ورعاية لمولاتهما الحزنى ، ريثما تنتهى أيام العزاء فيبرحان القصر إلى حيث يتزوجان ويعيشان آمنين هانئين كما دبر لهما ذلك مولاهما الفقيد .

وما علما أن موسى حتى جد فى الكيد لهما واتصل بجماعة من فقهاء السوء فأبطلوا له وصية أبيه بصدد عتقهما والأملاك التى أوصى بها لهما . فما راعهما إلا موسى قد جاء يخبرهما ببطلان الوصية وبقائهما على رقهما ، فعز عليهما أن ينهار بين غمضة عين وانتباهتها ما بنياه من الآمال وأن يعودا لا إلى كنف مولاهما الشيخ الصالح - إذن لهان عليهما الأمر - ولكن إلى رق ابنه الفاسق الظالم ليعذبهما ويهينهما ما شاء له حقده وانتقامه ، ولما علمت مولاتهما العجوز بما فعل ابنها غضبت من عمله ، وصبت لعناتها على رأسه ، وطفقت تواسيهما وتقول لهما : إنهما سيكونان تحت رعايتها وحمايتها ولن يمسهما موسى بسوء ، ووعدتهما بأنها ستجتهد حين تقسم التركة أن تجعلهما من نصيبها فتعتقهما وتزوجهما وتجعل لهما رزقا يعيشان منه .

وعلم موسى بما عزمت عليه أمه ، فأجل قسمة الميراث طمعا فى أن يحول دون ما تريد . وفى خلال ذلك أخذ يتقرب إلى جلنار ويقول لها : «أصبحت اليوم ملك يمينى» ، فتهرب من وجهه ، وتلوذ بسيدتها فتحميها منه . . وأحيانا يأتيها ويقول لها متلطفا : «سأتخذك زوجة لى وستكونين سيدة هذا القصر ، لك فيه الأمر والنهى ، ويكون قطز عبدا لك» ، فما تجيبه إلا بالسكوت والإعراض .

ولما طال ذلك عليه ويئس من رضاها ، ثار به الغضب ، وأقسم ليفرقن بينها وبين قطز ، لينتقم منها ومنه ، فذهب إلى وصى أبيه وادعى أن جلنار كانت سبب الفرقة والخصام بينه وبين والدته ، وأنه

سيعود إلى بر والدته وطاعتها إذا بيعت هذه الجارية النمامة ، وجعل يلح عليه فى بيعها ، وكان قد أحضر سمسارا معه ، ليجىء بمبتاع للجارية ، وجعل له على ذلك أجرا ، فما كان من الوصى إلا أن باع الجارية للسمسار ، وباعها السمسار لرجل من مصر .

فوجئت أم موسى بما كان من بيع جلنار على غير علمها ، فبعثت إلى الوصى تعاتبه على ما صنع ، وتلح عليه أن يستقيل ويستعيدها منه ، ولكن موسى قد أوعز للرجل المصرى ، فأبى البيعة ولكنه اعتذر إليها بأن ذلك لم يبق فى إمكانه إلا أن يقبل الصفقة ، وأصر على طلب الجارية ، فما وسع الوصى إلا تسليمها إليه . ولما علمت جلنار بأنها ستحمل وشيكا إلى مولاها الجديد ، بكت بكاءا شديدا وتشبثت بثياب مولاتها مستغيثة بها ألا ترضى بتسليمها ، قائلة : «اقتلينى يا سيدتى ولا تسلمينى إلى هؤلاء» ، فضمتها العجوز إليها ، وأجابتها والدموع تنهمر من عينيها : «تعلمين يا جلنار أن ليس لى من الأمر شىء ، وأنك لأعز علىَّ من ابنتى ، وقد اجتهدت أن أحتفظ بك ، ولكن ماذا أصنع وقد باعوك بغير علمى؟ لعن الله ابنى فشد ما عذبنى وآذانى ، يا ليتنى عقرت فلم أحمل به ، أو ليتنى إذ حملت به أسقطه! لن يكف عنى هذا الولد العاق حتى يلحقنى بأبيه . حسبى الله منك يا موسى حسبى الله منك» .

وكان قطز واقفا ينظر إليهما ، ويبكى ، حتى رأى موسى قد أقبل ومعه السمسار وجماعته ، فكفكف دمعه وكتم جزعه ، وأظهر التجلد مكانه ، ووقف كأنه تمثال من الصخر الأصم ، ولما رأتهم جلنار وعلمت أن لا مناص لها من المسير معهم ، أرسلت ثياب مولاتها الوالهة الحسرى ، واندفعت إلى حبيبها قطز تودعه وداعًا حارًا مفعمًا بالحسرة والألم .

وهو يقول لها : «أستودعك الله يا حبيبتى ، أستودعك الله يا جلنار ، سيجمع الله شملنا بحوله وقوته» ، فاستأخرت عنه جلنار وهى تقول : «أستودعك الله يا محمود ، استودعك الله يا حبيبى» . ومالت إلى مولاتها فأهوت على رأسها تقبله حتى بللته بدموعها ، والعجوز تلثم أطرافها وتبكى ، إلى إن تقدم قطز فجذبها وهو يقول : » حسبك يا جلنار ، توكلى على الله ولا تحبسى أصحابك ، وثقى بأن الله موجود ، وهو على جمعنا إذا يشاء قدير» .

فأشار موسى للسمسار قائلا : «امض بها يا هذا ولا تدع وقتنا يمضى فى هذا العبث» . فأخذ السمسار بيدها ، فمضت معه ، وعينها تتلفت مرة إلى سيدتها ومرة إلى حبيبها حتى توارت ، وبقى قطز واقفا مكانه كأنه جماد ينظر إلى سيدته الباكية الحزينة ، وتنظر إليه حتى إذا ما اختفى موسى فى أثر السمسار وجماعته ، غلبت الرقة قطزا ، فدنا منها باكيا ، وجعل يقبل رأسها ويديها قائلا : »أشكرك يا سيدتى الكريمة ، لقد بذلت كل جهدك ولا لوم عليك فيما حدث» .

فقالت له : « أحسن الله إليك يا بنى ، ستكون عندى بمثابة ابنى ، إن شئت أعتقتك فمضيت حرا إلى حيث تريد» .

قال لها : «يا مولاتي لا أريد بخدمتك بدلا ، بيد أني أخاف أن يتحرش بي موسى - وقد نفد صبري - فأسيء فيغضبك ذلك مني» . فقالت : « معاذ الله أن أغضب لموسى منك . لو قتلته لأرحتني منه» .

فأجابها : « ما يكون لي أن أعتدي على ابن مولاي الذي أكرم مثواي وأحسن إلي» .

واستأذن قطز مولاته ، فمضى إلى صديقه الحميم الحاج علي الفراش ، وكان شيخا صالحا يخدم سريا آخر من سراة دمشق وأعيانها ، يقال له ابن الزعيم ، كان يسكن في قصر قريب من قصر الشيخ غانم المقدسي ، لا يقل عنه سعة وفخامة ، وكان قطز كثير الاختلاف إليه ، يجلس معه على مصطبة كبيرة مظللة بفروع الشجر تقع عند مدخل بستان ابن الزعيم ، فيشكو قطز همومه إليه ويبثه آلامه ويستشيره في شئونه ، ويتجاذبان أطراف الحديث في شئون مختلفة ، وكان الحاج علي شديد العطف على قطزوالحب له ، وقد أحسّ في ضميره بما أعطي من قوة الفراسة وصدق الحدس ، أن لابد لهذا المملوك في صباحة وجهه ، ونبل خلاله من سر يكتمه عن الناس جميعا . فاجتهد زمنا أن يكتشف هذا السر من صديقه الشاب فلم يوفق ، إلا أن ظنه لم يزدد على الأيام إلا قوة عنده بما كان يؤيده من فلتات لسان صاحبه في ثنايا حديثه ، فجعل يضم بعضها إلى بعض ، ويستخرج منها صورة غامضة لأصل هذا الغلام .

فلما أقبل عليه حيّاه ، وفرش له على المصطبة كعادته ، وأخذ يعزيه في وفاة مولاه ويعدد مناقبه ومكارمه ، فمضى قطز يشكو إليه ما أصابه من اضطهاد موسى بعد وفاة أبيه ، وما مني به من فراق حبيبته جلنار وكيف أنه سئم الحياة بعدها ، فجعل الحاج يلاطفه ويسليه ، وبينما هو كذلك ، إذ أقبل موسى فدخل الباب وبيده سوط ، فلما دنا منهما نظر إلى قطز نظرة الغضب ، وقال له : « ماذا تصنع هنا يا هذا؟ أما تذهب لعملك في القصر؟» ، فلم يجبه قطز وأشاح عنه بوجهه ، فاستشاط موسى غضبا وأراد أن يضربه بالسوط فتلقاه قطز بيده وأمسك بطرف السوط فلم يقدر موسى على انتزاعه ، وقال له قطز عند ذاك : «لو شئت لأوجعتك بسوطك هذا ضربا ، فمثلك أيها السكير لا يقدر على مثلي ، وما يمنعني من البطش بك إلا احترامي لذكرى أبيك» .

فلطمه موسى على جبينه فاحمر وجه قطز ، ونظر إليه بعينين متقدتين كأنهما جذوتان من النار ملأتا قلب موسى رعبا ، فانصرف عنه وهو يسبه ويلعن أباه وجده ، وقطز جامد في مقعده على المصطبة ، لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة ، وسوط موسى في يده ، وعيناه عالقتان بالباب حتى اختفى موسى ، فبقي هنيهة واجما على حاله تلك ، ثم ارتمى على المصطبة ، ساترا وجهه بيديه ، وجعل يبكي بكاء شديدا ، حتى رق له صاحبه ، فطفق يمسح على ظهره ويقول له : «خفض عليك يا قطز ، فالأمر أهون من أن يثير دمعك ، أتبكي من لطمة خفيفة من يد جبان ضعيف؟» .

فرفع قطز إليه رأسه قائلا وقد تقلص دمعه : « سامحك الله ، أتظن بكائي من تلك اللطمة؟ إن بكائي من لعن أبي وجدي ، وهما خير من أبيه وجده» .

- « لا يدفعنك الغضب أن تقول ما ليس بحق يا قطز ، أنت والله خير منه ألف مرة ، أما أبوك وجدك فليسا بخير من أبيه وجده المسلمين ، إذ شرف الإسلام فوق كل شرف » .

- « أتظن أبى وجدى كافرين؟ لا والله إنهما لمسلمان من آباء مسلمين » .

فأظهر الحاج على الفراش استغرابه كمن يشك فى صدق ما يقول ، فعز على قطز أن يظن به صديقه الكذب فاندفع يقول : » ألم تسمع يا حاج بجلال الدين بن خوارزم شاه ، الذى جاهد التتار ؟ » .

- بلى : ليس فى الدنيا أحد لم يسمع بالسلطان جلال الدين » .

- « فأنا ابن جهان خاتون أخت جلال الدين ، ووالدى الأمير ممدود ابن عمه ، واسمى محمود ، وإنما سمانى قطز اللصوص الذين اختطفونى ، فباعونى ، عاملهم الله بما يستحقون » .

فتهلل وجه الحاج على وقال : « الآن تحققت فراستى وصدق ظنى فيك . والله الذى لا إله إلا هو لقد حدثنى قلبى أول يوم عرفتك فيه أنك لست مملوكا جلب من مجاهل ما وراء النهر . وأنك ترجع إلى أصل كريم . فلما بلوتك واختلطت معك عرفت أن لك سرا تكتمه عن الناس جميعا فحدست أنك ابن ملك أو أمير نكبه الزمان فألقاه فى أيدى باعة الرقيق ، فما زلت من يومئذ أجتهد فى معرفة سرك ، وقد سألتك مرارا عن أصلك ، فكنت تقول لى إنك لا تعرف عنه شيئا ، ولكنى رجحت آخر الأمر أنك من أولاد جلال الدين بن خوارزم شاه » . فنظر إليه قطز مستغربا ، وسأله :

- « هل عرفت ذلك قبل أن أخبرك الآن؟ » .

- « إى والله قبل أن تخبرنى بزمان طويل » .

- «شىء لعمر الله عجيب ، كيف عرفت ذلك يا حاج على؟ » .

- « لما رجح عندى أنك من أولاد الملوك أو الأمراء جعلت أقص عليك من أنبائهم ، وأختبر أثر حديثى فى وجهك كلما ذكرت ملكا من الملوك أو أميرا من الأمراء ، فكنت إذا ذكرت جلال الدين عندك ووقائعه مع التتار ، ألمح تغييرا فى وجهك ، واختلاجا فى شفتيك ، وقد كررت هذه التجربة فأيقنت أن لك صلة بجلال الدين ، ورجحت أنك من أولاده » .

فتبسم قطز ، وعجب من ذكاء صاحبه الحاج وفطنته وقال له :

- « الآن عرفت لماذا كنت مغرى بأخبار الملوك والسلاطين ، تعيدها على مرة بعد مرة » .

وسكت قطز قليلا ثم ما لبث أن عاودته شجونه ، فقال بصوت يخالطه البكاء : « بالله يا صديقى الحاج ألا ما أشرت على ماذا أصنع فى مصابى هذا ، فإنك ما علمت لذو رأى ، إنهم أبطلوا وصية مولاى- رحمه الله - بعتقى وعتق حبيبتى جلنار ، ولم يكتفوا بذلك حتى فرقوا بينى وبينها ، فباعوها لرجل من مصر ، إى والله لقد فرقوا بينى وبين جلنار ابنة خالى جلال الدين ، التى أحبها وتحبنى ،

ونشأت معها منذ الصغر ، ولم أفترق عنها إلا اليوم . قل لى كيف آوى إلى هذا القصر وقد فارقه مولاى الشيخ الذى أكرم مثواي وتبنانى ، وخلا من جلنار التى كانت سلواى فى هذه الحياة ، وعزائى فى كل ما أصابنى من نكبات الأيام؟ كيف أصبر على خدمة ذلك الوغد اللئيم الذى سلبنى حريتى وسعادتى ، وأمعن فى اضطهادى وإهانتى ؟ إن هذا القصر أصبح عندى كالجحيم ، لا أطيق رؤيته ، فما بال الإقامة فيه ، ما لهؤلاء يستعبدوننى وقد ولدتنى أمى حرا؟ أليس فى الأرض من عدل ينصفنى من هذا الظلم؟ ما لى أراك صامتا يا حاج على؟ تكلم ، قل لى ما أصنع فى أمرى « وهنا غلبه البكاء ، فعاقه عن المضى فى الكلام .

سكت الحاج على برهة كأنه يفكر فى طريقة لخلاص صديقه ، أو فى جواب يقنعه ويرضيه ، ثم قال له : « ولكن فى القصر سيدتك العجوز ، وهى تحبك وتعزك ولن ترضى أبدا أن يمسك من موسى أى سوء» .

فقال له قطز : » نعم إنها تحبنى وتعزنى وتعتبرنى كولدها ، وقد وعدتنى أن تجعلنى حين تقسم التركة من نصيبها فتعتقنى ، ولكنها ضعيفة لا حول لها ولا قوة ، وقد غلبها ابنها على كل شىء ، ولا تقدر على صده أو منعه مما يريد . إنى أخشى أن أقع فى ملك يمين موسى ، فينتقم منى ، ويبالغ فى إهانتى وتعذيبى ، خلصنى يا حاج على خلصنى !» .

- « الله يخلصك يا بنى . . هون عليك يا قطز فسيجعل من ضيقك مخرجًا» .

- « دعنى من كلمات المواساة والتهوين والتعليل ، فإنها لا تنفعنى شيئا ، وفكر لى فى طريقة للخلاص مما أنا فيه من العذاب» .

- «لقد فكرت لك فى طريقة للخلاص مما أنت فيه من العذاب ، ولكن عليك أن تصبر يومين أو ثلاثة أيام ريثما أدبر هذه الطريقة» .

- «سأصبر لك أكثر من ذلك ، فقل لى بالله ماهى؟» .

- «سأقص على سيدى ابن الزعيم خبرك : فسيشتاق لرؤيتك حين يعرف أنك من أولاد السلطان جلال الدين ، فقد كان مع شيخه ابن عبد السلام كثير الاهتمام بنجدة جلال الدين فى جهاده للتتار ، فإذا قابلته فسأذكر له طرفا من حال موسى ابن الشيخ غانم معك واضطهاده لك ، وسأعزز قولك عنده ، فأقص عليه ما وقع منه اليوم فى حقك على مرأى منى ومسمع ، وما أشك فى أنه سيرثى لحالك ويعطف عليك ، فأشير عليه عندئذ بشرائك منهم ، وما أحسبه يتأخر عن ذلك . واعلم أنك ستسعد فى خدمة سيدى ابن الزعيم» . وسيكون لك مثل المرحوم الشيخ غانم أو خيرا منه» .

- «حسبى أن أعيش بجوارك يا صديقى الحاج ، ولكنى أخشى ألا يرضى موسى ببيعى لسيدك إذا علم أنى سأسعد عنده» .

- « لن ندع موسى يعلم بشىء من هذا ، وسيطلبك سيدى بنفسه من الوصى ، ولن يتردد الوصى فى إجابة طلبه ، فاطمئن ولا تخف شيئا ، فسأدبر لك كل شىء تدبيرا متقنا » .

- «بارك الله فيك يا حاج على ، لقد فرجت كربى ، فرج الله كربك يوم القيامة» .

وقام قطز عن مقعده من المصطبة قائلا : «دعنى أنصرف فأرجع إلى عملى فى القصر ، لعل مولاتى تحتاجنى فقد أبطأت عليها فى الرجوع ، وغدا أراك إن شاء الله» .



١ . كان الشيخ غانم المقدسي سيدهما الجديد ينزلهما منزلًا حسنًا ويكرمهما . بين ذلك .

٢ . لسيدهما ولد فاسق سيئ الخلق . كيف كانت معاملته لهما؟

٣ . لماذا كان الشيخ غانم جادًا في شراء غلام يأنس به؟ ولماذا اشترى جلنار؟

٤ . ما الأنباء التي وردت وتناقلها الناس حتى حزن قطز وجلنار؟

٥ . لقد عكر صفوهما موسى ابن الشيخ . فماذا فعل؟

٦ . ماذا حدث بعد وفاة الشيخ؟

٧ . هل فرق بينهما موسى؟ وكيف كان ذلك؟

٨ . كان لقطز صديق حميم يخدم ابن الزعيم لعب دورًا في حياة قطز . بين ذلك .

٩ . كيف اشتدت الكراهة بين قطز وموسى ابن الشيخ؟

١٠ . كيف عرف الحاج على الفراش أن قطز هو الأمير محمود ابن أخت جلال الدين؟

١١ . ما الطريقة التي فكر فيها الحاج على الفراش لخلاص قطز؟ وهل وفق فيها؟



الفصل الثامن

لم تمض ثلاثة أيام على ما سبق، حتى أتم الحاج علي الفراش الخطة التي دبرها لخلاص صديقه، فنجحت على خير وجه، وانتقل قطز إلى ملك السيد ابن الزعيم، فسلا ما كان فيه من البلاء بموسى ومضايقاته، وانطوت صفحة من حياته، شيعها بدموعه وحسراته، فقد كانت على علاتها من أجمل أيام عمره وأسعدها، إذ أشرق فيها الحب على قلبه فملأه نورا، وأتى على ما في زواياه من ظلمات الهم والحزن واليأس، فبدده وأبدله به مسرة وجذلا و غبطة وأملا. كان يعيش فيها مع جلنار في دعة وسلام، مشمولين برعاية مولاهما الرحيم وزوجته البارة، وقد ذاقا فيها من لذة الأمن وطمأنينة الاستقرار ما لم يذوقاه منذ طفولتهما، فقد عاشا ما عاشا قبل ذلك في جو مضطرب، يسوده القلق والفزع، وتهدده الحروب والغارات، وتراوحه وتغاديه الفجائع والنكبات، حتى استقر بهما المقام في كنف الشيخ غانم، فلقيا من عطفه وبره ما أنساهما مرارة اليتم، وذل الرق، وألم التغرب والتشرد، ونعما بعيشة راضية آمنة مطمئنة، وكان أكبر نعمة تمت عليهما عنده، نعمة الحب.

لم يكد قطز يسكن إلى كنف مولاه الجديد، ويستريح قلبه من عنت موسى واضطهاده حتى تذكر فراق جلنار، فذهبت نفسه حسرات في أثر حبيبته الذاهبة، وشفَّه الوجد والحنين حتى اصفر وجهه ونحل جسمه وتقرحت مقلتاه من طول السهر والبكاء، كأنما كان مشغولاً عن ألم فراقها بما كان يكابده من المحن بموسى، فلما سلا هذه المحنة وتنفس الصعداء في قصر سيده الجديد، فرغ لمحنته الكبرى بفراق حبيبته جلنار، وكذلك قد تنزل بالمرء مصيبتان فيضيق بصغراهما وتشغله عن كبراهما حتى يظن أنه قد سلاها، فما هي إلا أن تنقشع الصغرى، فإذا الكبرى تعود من جديد فتطبق على قلبه.

رق السيد ابن الزعيم لحال مملوكه الأمير الخوارزمي، فبالغ في تكرمته والبر به، واجتهد أن يصرفه عن لوعته وحزنه، فكان يدنيه منه ويقول له: «كفاك يابني حزنًا على حبيبتك الحسناء جلنار، فإن شئت زوجتك جارية مثلها أو أجمل منها».

فيجيبه قطز في أدب جم: «لا يا مولاي، لا أرغب في الزواج من غيرها، وإن تكن أجمل منها، إنها ابنة خالي، نشأنا معًا ولم نفترق منذ ولدنا»، فيقول له سيده: «إنك لعلى حق يا قطز، إذ ليس في وسعنا أن نزوجك أميرة مثل ابنة جلال الدين، ولكني أنصحك أن تجتهد في سلوانها إشفاقًا على نفسك، وإبقاء على صحتك وشبابك، واصبر لعل الله يجمع شملكما من حيث لا تحتسبان».

وأوصى ابن الزعيم خادمه الحاج على الفراش، بألا يألو جهدًا في العناية بقطز وتسلية همه، ولم يكن الحاج على بحاجة إلى وصية سيده بصديقه الحميم، فلم يدع وسيلة من الوسائل لتسليته وتعزيته إلا استعملها، وكان الحاج علي لبق الحديث، حسن التصرف، خبيرًا بأدوار القلوب، عليمًا بعلاجها،

فما زال بصديقه الحزين، يقبضه ويبسطه، ويسليه ويعلله، ويضرب له الأمثال في ذلك، ويتنزه به ضواحي المدينة ورياض الغوطة، ويرود به زحمة الأسواق، ويغشى به مجالس العلم في المسجد حتى استطاع أن يكسر سورة الحزن في قلبه، ووكل الباقي إلى الأيام؛ لتقضي عليه.

أخذ المملوك الشاب عقب ذلك جذبة إلهية، فتعلق قلبه بالعبادة والتقوى، فكان يصلي الفروض لأوقاتها، ويحافظ على النوافل، وأكثر من تلاوة القرآن، وتردد على مجالس العلم في جامع المدينة، ولاسيما دروس الشيخ ابن عبد السلام، فقد أغرم بها فكان لا يفوته درس، ولم يتصد للقراءة عليه، أو على غيره من العلماء، بل كان يكتفي بالحضور والاستماع، وكان سيده ابن الزعيم يشجعه على ذلك، ويثنى عليه، وما كلفه قط عملا يحول بينه وبين حضور هذه المجالس.

وجاء الشيخ يومًا إلى دار ابن الزعيم يزوره، فأكرمه واحتفل به، فلما استقر بهما المجلس دخل قطز عليهما بشراب الورد ليقدمه للشيخ، فلما رآه الشيخ التفت إلى مضيفه، وقال له: «من هذا الشاب؟ أحسبني رأيته مرة في حلقة الدرس». فأجابه ابن الزعيم: «هذا مملوك كان لجاري الشيخ غانم – رحمه الله – اشتريته قريبًا، وهو يحبك يا سيدي ويحضر دروسك ويستمع إليك».

قال الشيخ وهو يتفرس في وجه قطز: «إنه ما علمت لشابٌ صالح».

فقال ابن الزعيم: «أجل إنه صالح ومن أصل كريم».

وكان الشيخ قد فرغ من شرابه عند ذلك، فرد الكأس إلى ساقيه، فانصرف وقد خجل من ثناء الشيخ عليه، ومضى ابن الزعيم يحدث ضيفه الكريم بخبر مملوكه، وأنه من بيت السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، وأن اللصوص اختطفوه وابنة السلطان وهما صغيران فباعوهما في سوق حلب، وأن الشيخ غانم المقدسي اشتراهما فرباهما إلى آخر قصتهما. فعجب الشيخ من هذا الحديث وتلا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ آل عمران: (٢٦)

فقال ابن الزعيم: «إني ما اشتريته إلا لأعتقه، ولولا حبي له وخشيتي أن يفارقني فتضيق به سبل الحياة لأعتقته من قبل».

فقل الشيخ: «شكر الله لك يا بن الزعيم جميل صنعك فيه، إن جلال الدين لَحَرِىّ أن تحفظه في ولده . . . ألا تدعوه فأراه قبل أن أنصرف؟».

فقام ابن الزعيم وعاد بقطز معه، وقدمه للشيخ فتلقاه بالبشر، وطيب خاطره، وأقعده قريبًا منه، وقال له: «إن جلال الدين كان حبيبًا إلى نفوسنا، إذ كان يجاهد التتار، ويدافعهم عن بلاد الإسلام، وأنت ابن أخته ولك عندنا منزلة وحرمة، وقد أحسن الله إليك إذ أفضى بك إلى كنف هذا السيد وهو من الصالحين المجاهدين، لا غضاضة على مسلم في خدمة مثله، وسيعتقك ويحسن إليك . . .».

فقبل قطز يد الشيخ، وقال بصوت يخالطه البكاء لما تأثر به من كلامه: «أنا مملوك سيدي ابن الزعيم وعبد إحسانه، لا أحب أن يعتقني، ولا أريد أن يحرمني شرف خدمته».

فقال ابن الزعيم: «بل أنت ولدي يا قطز، ونحن جميعًا خدام الدين وخدام الشيخ ابن عبد السلام».

كذلك عرف الشيخ ابن عبد السلام قطز، فصار يدنيه من مجلسه إذ حضر لاستماع الدرس، ويلتفت إليه، ويسأله عن سيده ابن الزعيم ويحمله تحيته، وأحيانًا يبعثه برسالة إليه، وسرعان ما وثق به سيده والشيخ، لما رأيا فيه من رجاحة العقل وحصافة الرأي وكمال الرجولة، والاضطلاع بمهام الأمور، فأتمناه على أسرارهما، فكان أحدهما يقول له ما يشاء من كلام ليبلغه للآخر لا يأتمنان أحدًا غيره عليه، من أمور تتصل بحركتهما السياسية أو الإصلاحية لا في دمشق وحدها بل في سائر بلاد الشام وغيرها من البلاد الإسلامية. فعرف قطز في هذه المدة القصيرة التي قضاها في خدمة ابن الزعيم كثيرًا من أحوال العالم الإسلامي إذ ذاك. وأحوال ملوكه وأمرائه والحزازات التي بينهم والمنافسات على الملك، وموقف كل منهم من معاداة الصليبيين أو موالاتهم، وأدرك السياسة التي كان الشيخ وأنصاره ينتهجونها، والمرمى الذي يرمون إليه من توحيد بلاد الإسلام وتكوين جبهة قوية من ملوك الإسلام وأمرائه لطرد الصليبيين من البلاد التي يحتلونها في الشام، ولصد غارات التتار التي تهددهم من الشرق.

وقد اقتضت هذه السياسة أن تخص بالمناصرة والتأييد أقوى ملوك المسلمين وأصلحهم للاضطلاع بهذه المهمة الكبرى ممن لا يميلون إلى موالاة الصليبيين أو مصانعتهم، وأن تسعى للقضاء على من يواليهم أو يخضع لنفوذهم من الملوك والأمراء، فكان الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر على رأس الفريق الأول، وكان على رأس الفريق الثاني عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق، وكان العداء بين هذين مستحكمًا، والتنافس بينهما شديدًا على الملك، فلا غرو أن يوالوا ملك مصر ويدعوا له، ويعادوا ملك دمشق ويعتبروه خائنًا للإسلام.

وكان الشيخ ابن عبد السلام يراسل الملك الصالح أيوب، ويحرضه على تطهير بلاد الشام من الصليبيين أسوة بجده المجاهد العظيم السلطان صلاح الدين، ويعده بمناصرة عامة أهل الشام، فيتلقي ردودًا منه يعده فيها بالقيام بذلك عندما تسنح الفرصة وتتم الأهبة. وقد علم الصالح إسماعيل بحركة ابن عبد السلام. فأراد القبض عليه، ولكنه خشي أنصاره أن يثوروا له فيؤلبوا العامة عليه، فأجل ذلك إلى حين.

وقوى عزم الصالح أيوب على المسير إلى الشام، فاشتد خوف الصالح إسماعيل، وعزم على غزو مصر قبل أن يغزو ملكها بلاده، فبعث إلى أميري حمص وحلب يطلب منهما النجدات، وكاتب الفرنج واتفق معهم على مساعدته والمسير معه لمحاربة سلطان مصر، وأعطاهم في سبيل ذلك قلعتي

صفد والشقيف وبلادهما، وصيدا وطبرية وأعمالها، وسائر بلاد الساحل، وما اكتفى بذلك حتى أذن لهؤلاء الأعداء في دخول دمشق، وشراء الأسلحة وآلات الحرب من أهلها.

وأدرك الشيخ ابن عبد السلام الخطر الذي يتهدد بلاد الإسلام من هذا الخطب الفادح، فكتب رسالة قوية إلى الصالح أيوب يحثه فيها على التعجيل بالجهاد، ويتوعده فيها بغضب الله ونقمته وعذابه إذا تهاون في المسير حتى يتم ما أراده أعداء الإسلام به، مؤكدًا له أن تبعة ذلك ستكون على رقبته إذا قصر فيما أوجبه الله عليه، وأنذره بضياع ملكه وخسارة دنياه وآخرته، وأخذ الشيخ يكثر الاجتماع بأنصاره ومريديه يحمسهم ويأمرهم بالاستعداد للقيام بواجبهم من الجهاد في سبيل الوطن، وكان يفعل كل هذا في السر، حتى إذا كان يوم الجمعة وامتلأ الجامع الكبير بالناس، دخل الشيخ ابن عبد السلام من الباب الخاص بالخطيب فرقى المنبر فتطلعت إليه العيون، واشرأبت إليه الأعناق، وساد الحاضرين صمت عميق كأنما على رءوسهم الطير، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه عليه الصلاة والسلام، ثم ذكر الجهاد وفضائله وكيف كان النبي وأصحابه يجاهدون المشركين حتى علت كلمة الله، وبلغت دعوة الإسلام إلى المشرق والمغرب وأورث الله المسلمين البلاد، وجعلهم خلفاء الأرض ما قاموا بالدين واستقاموا على طريقته، فلما غيروا ما بأنفسهم غير الله عليهم فسلط الأعداء على بلادهم ينتقصون أطرافها، ويستأثرون بخيراتها، ويسومون أهلها الخسف والهوان، ويذيقونهم ألوان العذاب؛ ابتلاء من الله ليهلكَ مَنْ هَلكَ عن بيِّنة ويَحيَا من حيَّ عن بينة، وأن آخر هذه الأمة لايصلح إلا بما صلح به أولها، ولم يصلح أولها إلا الجهاد في سبيل الله. ثم ذكر ما أوجب الله على المسلمين من طاعة أولى الأمر منهم، ليستقيم بها أمر معاشهم ومعادهم، وما أوجب على أولي الأمر من النصح للإسلام وأهله، والقيام بحماية بلادهم وسد ثغورهم حتى يأمنوا على دينهم، وأعراضهم وأنفسهم وأموالهم.

ولما أخذ في الخطبة الثانية جعل يدعو الله أن يعز الإسلام وأهله، وأن ينصر من له في بقائه صلاح المسلمين، وكان يدعو في آخر خطبته للصالح إسماعيل، فقطع الدعاء له في هذه الخطبة واكتفى بالدعاء لمن يعلي كلمة الإسلام وينصر دين الله.

وفرغ الشيخ من خطبته، وأقيمت الصلاة، والناس لا يصدقون أنهم سمعوا ما سمعوه من الشيخ في خطبته، لشدة ما حمل على الصالح إسماعيل، وندد بفعلته في كلمات واضحة صريحة لا غموض فيها ولا إبهام.

وانصرف الناس من الجامع، ولا حديث لهم إلا خطبة الشيخ ابن عبد السلام يفخر من سمعها على من لم يسمعها، ويود من لم يسمعها لو أنه خسر شطرًا من عمره، وسمعها، واتفق السامعون على الإعجاب بها، واختلفوا في وجه الإعجاب، فمن معجب ببلاغة الشيخ، ومن معجب بقوة حجته، ومن معجب باطراد بيانه وتسلسله، ومن معجب بشجاعته ورباطة جأشه.

واتفق الناس في الإشفاق على مصيره، ولكنهم اختلفوا في تقدير ما يناله من عقوبة الصالح إسماعيل، فمن قاطع أنه سيقتله، ومن ذاهب إلى أنه سيحبسه، ومن مرجح أنه سينفيه ويصادر أملاكه، وآخر يرى أنه يعزله عن الخطابة، ويشتت شمل أنصاره، على أنهم جميعًا آسفون: لأنهم لن يسمعوه يخطب على منبر جامعهم بعد ذلك اليوم.

وكان الصالح إسماعيل غائبًا عن دمشق يومذاك، فكتب إليه بما كان من الشيخ، فورد كتابه بعزله من الخطابة والقبض عليه وحبسه حتى يرجع إلى دمشق فيرى فيه رأيه. وكان أنصار الشيخ قد أشاروا عليه بأن يغادر البلاد وينجو بنفسه من يد الصالح إسماعيل، وأعدوا له وسائل الهرب، لكنه أبَى ذلك، وألحوا عليه فأصر على الإباء، فعرضوا عليه أن يختبئ في مكان أمين لا يهتدي إليه الصالح إسماعيل ورجاله، فرفض هذا الاقتراح أيضًا وقال: «والله لا أهرب ولا أختبئ وإنما نحن في بداية الجهاد، ولم نعمل شيئًا بعد، وقد وطنت نفسي على احتمال ما ألقى في هذا السبيل، والله لا يضيع عمل الصابرين».

وقبض على الشيخ ابن عبد السلام، وسجن، وثار أنصاره فطالبوا بالإفراج عنه، وقد حاول الصالح إسماعيل قمع الثورة فلم يفلح، فما وسعه إلا أن يأمر بالإفراج عن الشيخ ابن عبد السلام، ولكن الصالح إسماعيل ألزم ابن عبد السلام بملازمة داره، وبألا يفتي، ولا يجتمع بأحد ألبتة؛ فشق على أنصاره أن يحال بينهم وبينه للاسترشاد بآرائه فيما يجب عليهم عمله، وفكروا في حيلة للاتصال به فإذا السيد ابن الزعيم قد أمر مملوكه قطز أن يتعلم الحلاقة، وإذا قطز قد حذقها، وتشبه بالحلاقين في زيه وحركته، ففرحوا بهذا الحل الطريف، وبعثوا قطز فذهب إلى الشيخ في داره، فلم يشك أحد من مراقبيه في أنه حلاق قد جاء ليزين الشيخ، فلما دخل عليه لم يعرف الشيخ أنه قطز إلا من صوته فسر به. فبلغه قطز أخبار سيده ابن الزعيم وغيره من أنصاره وما أصاب بعضهم من عقوبة الملك الصالح إسماعيل.

وكذلك تردد الحلاق قطز على الشيخ فوصل بينه وبين أنصاره. يطلعه على خططهم وأعمالهم وسائر ما يهمه من أخبار البلاد. ويبلغهم أوامره وإرشاداته فيقومون بتنفيذها، ولا يبالون ما يصيبهم في ذلك من قتل أو حبس أوتعذيب. وكانا ربما انتهيا من حديثهما في السياسة فتبسط الشيخ إلى حلاقه، وتشقق بينهما الحديث في شئون شتى من هزل الحياة وجدها.

وجاء قطز يومًا آخر متهلل الوجه، طيب النفس، عليه أثر الاغتسال، والطيب ينفح من رأسه وثيابه، فسأله الشيخ ملاطفًا: «ما هذا يا قطز هل تزوجت البارحة؟».

فتبسم الشاب وقال: «لا يامولاي الشيخ، لقد أقسمت ألا أتزوج إلا بابنة خالي جلنار، ولكني رأيت النبي ﷺ البارحة في المنام، فأخبرت سيدي فأمرني بالاغتسال والتطيب فجئت كما ترى».

فقل الشيخ : «خيرًا صنعت وبخير أشار عليك سيدك فحدثني عن رؤياك؟» .

فخفق قلب الشاب وسرت في جسمه رعدة كأنه يتهيب أن يقص رؤياه على الشيخ العظيم ، ولكنه رأى طلاقة وجه الشيخ وإقباله عليه فشجعه ذلك على الحديث فقال : «أرقت البارحة ونابني ضيق شديد ، فقمت فتوضأت ، وصليت النفل وأوترت ، ودعوت الله ، ثم عدت إلى فراشي فغلبتني عيناي ، ورأيت كأني ضللت طريقي في برية قفراء فجلست على صخرة أبكى ، وبينما أنا كذلك إذا بكوكبة من الفرسان قد أقبلت ، يتقدمها رجل أبيض جميل الوجه ، على رأسه جُمة[1] تضرب في أذنيه ، فلما رآني أشار لأصحابه فوقفوا وترجل عن فرسه ، ودنا مني فأنهضني بقوة ، وضرب على صدري ، وقال لي : «قم يا محمود فخذ هذا الطريق إلى مصر ، فستملكها وتهزم التتار» .

فعجبت من معرفته اسمي ، وأردت أن أسأله من هو؟ فما أمهلني أن ركب جواده فانطلق به فصحت بأعلى صوت : «من أنت؟» .

فالتفت أحد أصحابه وهم ينطلقون في أثره : «ويلك ، هذا محمد رسول الله ﷺ» ، وانتبهت من نومي ، وأنا أحس برد أنامله في صدري ، فما ملكت نفسي من الفرح أن انطلقت إلى سيدي فوجدته يتوضأ ، فلم أصبر حتى يفرغ من وضوئه ، فخرجت إلى الحاج علي الفراش فوجدته على فراشه ، فأيقظته وقلت له : «رأيت رؤيا عظيمة ، رأيت النبي ﷺ» ، فهب من فراشه وأقبل علي فرحًا يريد أن أقصها عليه ، فقلت له : «لا أقصها إلا على سيدي أولًا» ، فقال لي : «أتبعك إليه فأسمعها معه» ، فانطلق معي ، فوجدنا ابن الزعيم حين خرج من المغتسل ؛ فلما رآنا تعجب من إقبالنا معًا ، فقال له الحاج على : «إنه رأى النبي ﷺ ياسيدي ، ويريد أن يقصها عليك» ، فابتسم سيدي وأقبل على فحدثته بما رأيت في منامي ، ففرح وبشرني وأمرني بالاغتسال فأغتسلت وطيبني بيده وقال لي : «اذهب إلى مولانا الشيخ فاقصص رؤياك عليه وانظر ماذا يقول لك في تعبيرها» .

فسكت الشيخ هنيهة متعجبًا من الرؤيا ، ثم قال : «مازلت تفكر في الملك وهزيمة التار ياقطز حتى أتاك النبي ﷺ فبشرك بهما» ، إنها لرؤيا عظيمة كما ذكرت ، فإن تكن صدقًا فستملك مصر حقًا وتهزم التتار ، فإن النبي ﷺ يقول : «من رآني فقد رآني حقًا فإن الشيطان لا يتمثل بي» .

فجعل الشاب يقبل رأس الشيخ ويلثم يده ظهرًا لبطن ، وهويقول : «بشرك الله يا سيدي» فقال له الشيخ ممازحًا : «ما بشرتي إذا تحققت رؤياك وصرت ملكًا على مصر؟» فسكت قطز قليلًا وهو يبتسم كأنه يعد في نفسه جوابًا للشيخ ثم قال ، وقد لمعت عيناه : «لو كنت ياسيدي الشيخ تحب الدنيا لسقت إليك بدر الذهب والفضة . ولكني سأرجع إلى رأيك في كل شئون ملكي ، فأقيم الشرع ، وأنشر العدل ، وأحيى ما أمات الناس من سنة الجهاد ، فهذه بشارتك عندي» .

١ الجُمة : بضم الجيم مجتمع شعر الرأس أو مجتمع شعر الناصية .

فرح الشيخ من حسن جوابه، واستنار وجهه كأنه القمر، وقال: «إنك لصادق القول وصالح العمل يا قطز، وإنك لجدير بأن تكون ملك المسلمين»، ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك يوسف الصديق عليه وعلى آبائه السلام ...»، ولم يكد الشيخ يؤمن على دعائه حتى رأى البكاء في عيني قطز، فظنه أول الأمر يبكي من الفرح، ولكنه لم يلبث أن انخرط[1] في البكاء ورآه يزفر بشدة تكاد تشق صدره وتقصم أضلاعه، فدنا الشيخ منه وسأله عما يبكيه فأجابه الشاب بصوت يخالطه النشيج: «لقد علمت يا مولاي الشيخ أن الله سيستجيب دعاءك لي، فذكرت حبيبتي جلنار، وعز علي أني لن أراها أبدًا، فوددت لو دعوت الله أيضًا أن ألقاها فأتزوج بها».

فرق له الشيخ، وسنحت على ثغره بسمة خفيفة، ولم يقل شيئًا، بل عاد فرفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إن في صدر هذا العبد الصالح مضغة تهفو إلى إلفها في غير معصية لك، فأتمم عليه نعمتك، واجمع شمله بأمتك التي يحبها على سنة نبيك محمد ﷺ».

وما أتم الشيخ دعوته حتى جف دمع الشاب، وسكن لاعج قلبه، وطفق يتمتم: «الحمد لله، سألقاها، سأتزوجها». فقال الشيخ: «إن شاء الله».

١ انخرط: تمادى في البكاء واشتد.



١ . ما الطريقة التي فكر فيها الحاج علي الفراش لخلاص قطز؟

٢ . هل هدأت نفس قطز في بيت ابن الزعيم؟

٣ . كيف كانت معاملة ابن الزعيم لقطز؟

٤ . بماذا تعلق قلب قطز وما الذي صار إليه؟

٥ . هل كلفه سيده عملًا يحول بينه وبين رغبته في التردد على مجالس العلماء؟

٦ . اتخذ قطز لنفسه أستاذًا عالمًا وشيخًا فاضلًا فمن هو؟ وما علاقة الشيخ بابن الزعيم؟

٧ . ما رأي الشيخ في قطز؟ وما رأي قطز في ابن الزعيم؟

٨ . كيف ندد الشيخ ابن عبد السلام بالملك الصالح إسماعيل في خطبته حتى قبض عليه؟

٩ . ماذا فعل أنصار الشيخ ابن عبد السلام؟

١٠ . كيف كان ابن الزعيم يتصل بابن عبد السلام في داره؟

١١ . ما الذي رآه قطز في منامه؟ وبماذا أجابه الشيخ ابن عبد السلام؟



الفصل التاسع

خشي الصالح إسماعيل من الشيخ ابن عبد السلام و أنصاره فرأى أن يطرده من بلاده ليكفى شره، فنفاه، وقبض على ابن الزعيم ففرض عليه غرامة كبيرة وصادر بعض أملاكه ، ثم أطلقه لقوة شيعته، وقبض على من سواه ممن صح لديه انتماؤه إلى الشيخ ابن عبد السلام، فسجن بعضهم ونفى بعضًا وصادر أموال بعض.

وكان يوم خروج الشيخ بأهله من دمشق يومًا مشهودًا، شيعه أهلها فيه بالبكاء والنحيب، فسار يقصد مصر فعرج على الكرك، فأقام بها أيامًا عند صاحبها الملك الناصر داود، استطاع في خلالها أن يقنعه بتأييده في الخطة التي يسعى لتحقيقها.

ولما قدم الشيخ ابن عبد السلام إلى مصر أكرمه الملك الصالح أيوب، وولاه خطابة جامع عمرو، وقلده قضاء مصر والوجه القبلي، فوجد الشيخ مجالًا كبيرًا للعمل، وأخذ يحث الصالح أيوب عن كثب على التعجيل بقتال الصالح إسماعيل وأحلافه الصليبيين.

وبلغ الصالح إسماعيل اتفاق الناصر داود مع صاحب مصر بسعي ابن عبد السلام، فندم على أن نفاه من بلاده وكان قد طابت نفسه واستراح باله بعد رحيل الشيخ ابن عبد السلام وتبدد شمل أنصاره فاستقرت له الأحوال بدمشق، وظن أن الثورة التي أشعلها الشيخ ابن عبد السلام في قلوب المؤمنين من أهلها قد انطفأت ولم يبق إلا رمادها، وما علم أن جذوتها باقية تحت الرماد تنتظر ريحًا تكشف عنها فإذا هي حمراء ملتهبة، على أن اطمئنانه لم يدم طويلًا إذ سرعان ما عصف به ما بلغه من اتفاق صاحب الكرك مع عدوه صاحب مصر.

أما السيد ابن الزعيم فكان قد حزن لرحيل صديقه وشيخه ابن عبد السلام عن دمشق، ولولا اشتباك مصالحه بها وارتباطه بعشيرته العديدين فيها للحق به في مصر، على أنه تعزى بما أصابه الشيخ في طريقه إلى مصر من النجاح في التوفيق بين صاحبها وبين الناصر داود، وبما لقيه من الحفاوة والتكرمة عند الصالح أيوب، وخفف من ألمه أيضًا أن في بقائه بدمشق ما يمكنه من القيام بعمل من الأعمال يعود بالخير على الفكرة التي تعاون مع الشيخ على الجهاد في سبيلها.

ولم يكن قطز بأقل حزنا من سيده لفراق الشيخ وكان أشد أسفه على تلك الأيام السعيدة التي تردد فيها على الشيخ في معتقله حين كان يقوم بالوساطة بينه وبين أنصاره متنكرًا في زي الحلاق، فقد نعم فيها بخلوات جميلة معه أفاض عليه فيها من نفحاته وأسراره، وأقبسه من أنواره، ونفث فيه من روحه، وأفاده من واسع علمه ما ملأه حكمة ويقينا، وبصيرة في الدين، ومعرفة بالحياة، وغرامًا بالجهاد في سبيل الله.

ولو لم ينل فيها من الشيخ إلا الدعوتين العظميين اللتين دعا بهما له: «اللهم حقق رؤيا عبدك قطز كما حققتها من قبل لعبدك ورسولك يوسف الصديق عليه وعلى آبائه السلام»، والثانية الأحب إلى نفسه: «اللهم إن في صدر هذا العبد الصالح مضغة تهفو إلى إلفها في غير معصية لك، فأتم عليه نعمتك، واجمع شمله بأمتك التي يحبها على سنة نبيك محمد ﷺ» - لكفتاه، وكان قطز يحفظهما عن ظهر قلب ويعتز بهما، وكثيرًا ما كان يدعو بهما في أثناء صلاته أو بعدها، إلا أنه كان يحذف من الدعوة الثانية كلمة «الصالح»، وكان لا يخالجه شك في أن الله استجابهما من الشيخ، وكلما تذكر منظره حين دعا بهما وتوجه إلى ربه وإخلاصه الدعاء ازداد يقينًا بقبولهما وإيمانًا، فقد شعر عندما انطلقتا من فم الشيخ بأنهما اخترقتا حجب السموات السبع وتردد صداهما في جنبات العرش.

فلا غرو أن تبدل حالة قطز منذ دعا له الشيخ، فأضحى شديد الثقة بنفسه مبتهج الخاطر في يومه، قوى الرجاء فيما يدخره له الله في غده من شرف الملك وسعادة الحب، وأي شرف في الدنيا أعظم من ملك مصر؟ وأي سؤدد أكبر عند الله وأحب إلى نفسه من هزيمة التتار؟ ثم أي سعادة في الحياة أحلى في قلبه من لقاء حبيبته جلنار؟!

وقد تعلم من الشيخ أن النعمة لا تدوم إلا بالشكر، فإذا كان هذا حال النعمة الراهنة التي في قبضة اليد، فما ظنك بالنعمة المنتظرة التي هي بعد في ضمير الغد، فليشكر نعمة الله التي يتقلب فيها، ليزيده النعمة التي ينتظرها ويرجوها، وأساس الشكر التقوى، وملاك التقوى الجهاد في سبيل الله: جهاد النفس بكفها عن الآثام وردعها عن الشهوات، وجهاد العدو بدفعه عن بلاد الإسلام.

دخل قطز على سيده يريد أن يأخذ رأيه فيما عزم عليه، فقال له: «ياسيدي يا أعز الناس على، إنك في غنى عن خدمتي، وما اشتريتني ولا استبقيتني إلا لمنفعتي، وقد رأيتك لا يعرض لك أمران في أحدهما مصلحتك، وفي الآخر مصلحة المسلمين، إلا آثرت ما فيه مصلحة المسلمين على ما فيه مصلحتك، فلو أذنت لي فخرجت أقاتل في سبيل الله مع جيش مصر لرجوت أن أبلى فيه بلاء حسنًا، فإني أجيد الطعان والضرب، وأحسن الركوب والرماية، وقد نشأني خالي - رحمه الله - على الفروسية منذ صباي».

فقال ابن الزعيم وقد اهتز طربًا لما رأى من حماسة مملوكه للجهاد: «مرحى يا قطز، مرحى يا سليل خوارزم شاه! هذا والله دم الجهاد، يثور في عروقك، وما يكون لي أن أخمده، ولكني أرى أن تقوم بما هو أنفع للمؤمنين وأنكى على العدو من إلحاقك بمصر لتزيد عدد جيشها رجلًا واحدًا، وقد علمنا رسول الله ﷺ أن الحرب خدعة، فإذا صح عزمك على بيع نفسك لله ابتغاء لمثوبته، وخدمة لدينه، فأصغ لما أقوله واتبع ما أرشدك للقيام به: اخرج في غمار جيوش الصالح إسماعيل كأنك واحد منهم، حتى إذا تصاف الفريقان، فصحْ بأعلى صوتك في الفريق الذي أنت فيه بأن جيش الملك الصالح أيوب إنما يقاتل الصليبيين الكفار، وأن جيش الصالح إسماعيل إنما خرج مع الكفار

لقتال المسلمين ، ثم أهب بالمسلمين من جيش الصالح إسماعيل أن ينحازوا لإخوانهم ، ليقاتلوا جميعًا أعداءهم الكفار ، وتقدم فانحز أنت وجماعتك الذين سأبعثهم معك من إخواننا المخلصين ، فسينحاز الباقون معكم ، وتدور الدائرة على هذا الملك الخائن وأحلافه الفرنج إن شاء الله» .

فقال قطز ، وقد اقتنع بسداد رأي مولاه : «رأيك الرأي يا مولاي ، أنا عبدك سأصدع بأمرك» .

قال سيده : «إنما أنت ابني وسأفخر بك ما حييتُ ، ولكن حذارِ يا بني أن يتسرب منك هذا السر إلى أحد ، فإن للصالح إسماعيل عيونا وجواسيس في كل مكان» .

فقال قطز : «اطمئن يا سيدي فلن أخبر به أحدًا» . وأراد ابن الزعيم أن يضرب لمملوكه مثلًا في كتم السر ، فسأله : «ما رأيك في صديقك الحاج علي الفراش ، أكتوم للسر هو وأمين عليه؟» .

فأجابه غير مدرك ما رمى إليه السيد بسؤاله : «أجل يا مولاي إنه كتوم أمين» .

فبدره السيد قائلًا : «فاكتم هذا السر عنه أيضًا ، واعلم أن عدوك لا يفشي سرك وإنما يفشيه الصديق ، أفهمت مرادي يا قطز؟» .

فقال قطز : «نعم يا سيدي فهمت ، ولك علي عهد الله أن يقطع لساني ولا أبوح بهذا السر لأحد ولا للحاج علي الفراش» .

وتكاملت جيوش الملك الصالح إسماعيل ، ووردت إليه عساكر حمص وحلب ، وجاءته كتب حلفائه الفرنج بأنهم على أُهْبةٍ للمسير لنجدته ، فخرج بعساكره من دمشق ، وسار حتى نزل بنهر العوجاء ، فبلغه أن الناصر داود قد سبقه إلى البلقاء ليقطع عليه الطريق حتى يأتيه الجيش المصري الذي كان في طريقه إلى الشام ، فسار إليه الصالح إسماعيل وحمل عليه بعساكره ، فلم يثبت لهم جيش الناصر لقلة عددهم ، وانهزم الناصر إلى الكرك ، واستولى الصالح على أثقاله ، وأسر جماعة من أصحابه ، وعاد إلى العوجاء و قد قوى ساعده واشتدت شوكتُه ، وكان قطز وجماعته مندسين في غمار الجيش لا يعلم بأمرهم أحد ولم يصنعوا شيئًا ينتظرون الجيش المصري وخروج الفرنج للقائه .

وسار الصالح إسماعيل حتى وصل إلى «تل العجول» حيث توافدت عليه جيوش حلفائه الفرنج من مختلف بلاد الساحل فانضموا إليه ، وأقاموا جميعًا متربصين قدوم الجيش المصري ليناجزوه القتال .

وأقبلت طلائع الجيش المصري ، فندب الصالح جيوشه للقتال ووضع جيش الصليبيين على ميمنته ، وعساكر حمص وحلب على ميسرته ، وجيش دمشق في القلب وكان هو عليه ، ولما تواجه الجمعان لم يشك الصالح إسماعيل وحلفاؤه الفرنج في أن النصر سيكون لهم لما رأوا من قلة الجيش المصري ، ورأى رجال الجيش المصري أنفسهم أنهم قد أضاعوا الفرصة إذ جاءوا بعد انهزام الناصر داود ، فضعف رجاؤهم في النصر ، واضطروا إلى الثبات ليشاغلوا عدوهم ريثما تأتيهم الإمدادات ، والتحم القتال ، وكاد المصريون ينهزمون ، وإذا بصوت يرتفع من صفوف الشاميين بين القلب والميسرة : «يا أهل الشام

حي على النصر، حي على الشرف!».

فما شك عساكر الشام في أنه يحرضهم على قتال المصريين، فتحمسوا له، وإذا الصوت يرتفع ثانيًا: «يا أهل الشام، اتقوا الله في أنفسكم لا تعرضوها لغضب الله، إن أهل مصر إنما جاءوا ليقاتلوا أعداءكم الصليبيين، وأنتم تقاتلون إخوانكم المسلمين فقاتلوا جميعًا أعداء الله وأعداء الشام ومصر، قاتلوا الصليبيين!».

ولم يكد قطز يتم كلمته حتى مرق من صفوف الشاميين وتبعته جماعته إلى صفوف المصريين، فما لبث الشاميون أن تسللوا من صفوفهم في القلب والميسرة وانحازو إلى المصريين، حتى لم يبق مع الصالح إسماعيل إلا شراذم قليلة من حثالة جيشه.

وقد ظن المصريون أول الأمر أنها خدعة يراد بها تطويقهم فتقهقروا قليلًا ريثما يتبينون حقيقة الأمر، ولكن قطزًا أدرك ما ساور المصريين من الشك فتدارك الموقف إذ دفع جواده إلى ميسرتهم للقاء الصليبيين، وأشار للشاميين فتبعوه، فأخذ يقاتل بهم الفرنج، فعندئذ تحقق المصريون أن الأمر ليس بخدعة، فجمعوا صفوفهم وتقدموا إلى القتال جنبًا إلى جنب مع إخوانهم الشاميين، فأوقعوا بالفرنج وقتلوا عددًا كبيرًا، وانهزم جيش الصالح إسماعيل ومن بقي حيًا من رجاله فلحقوا بدمشق.

وعاد المصريون إلى بلادهم منتصرين وساقوا أسرى الفرنج معهم، وتفرق إخوانهم الشاميون، فمنهم من سار معهم إلى مصر، ومنهم من لحق بغزة التابعة لمصر، ومنهم من لحق بالكرك عند الناصر داود.

أما قطز، فقد التمسه المصريون عقب انتهاء المعركة ليحتفلوا به، ويعرفوا له ما صنع، كما فعلوا بغيره من إخوانهم الشاميين، ولكنهم لم يجدوه، فظنوا أنه قتل في المعركة، فبحثوا عنه في القتلى فلم يقفوا له على أثر، وقد سألوا الشاميين عنه، فلم يعرفه منهم أحد حتى النفر الذين انحازوا معه في البداية قالوا لا نعرفه، وقد صدقوا في هذا؛ لأن السيد ابن الزعيم لما ندبهم للخروج قال لهم: «إنكم ستسمعون رجلًا من أنصارنا المخلصين يصرخ داعيًا للانحياز، فاتبعوه»، ولم يسم لهم ذلك الرجل.

فاختلفت آراء القوم فيه، وتردد القول بينهم بأنه روح من أرواح المجاهدين الأولين قد ظهر للناس؛ ليوحد كلمة المسلمين، ورجح بعضهم أنه روح صلاح الدين الأيوبي، ولم يجزم بأنه رجل من الأحياء - وإن كانوا يجهلون اسمه - لا روح من الأرواح إلا أولئك النفر الذين بعثهم ابن الزعيم؛ لينحازوا معه ولكنهم كتموا اتفاقهم مع ابن الزعيم عن الناس جميعًا، لئلا يصل خبره إلى الصالح إسماعيل فيبطش بصاحبهم، فتركوا القوم يهيمون ما شاءوا في أودية الظنون.

ولم يعلم حتى هؤلاء النفر أين ذهب قائدهم المجهول، إذ انسل من بينهم خفية حينما رأى انهزام الصليبيين، وفرار الناصر ورجاله، فعطف جواده ودفعه مشرقًا فانطلق به كالسهم لا يلوي على شيء إلى أن ابتعد عن الميدان، فمضى يطوى الأرض طيًا حتى وصل إلى الكرك، فقصد قصر الملك الناصر

داود فبشره بانهزام الصالح إسماعيل وأحلافه الفرنج، فأكرمه الناصر وخلع عليه وهو لا يعلم عنه شيئًا إلا أنه أحد الشاميين الذين انحازوا إلى المصريين قد بعثوه بشيرًا بالنصر.

ولما انصرف من عند الناصر وخرج على جواده من باب المدينة تردد حينًا؛ أي صوب يتوجه؟ فقد اشتد به الشوق إلى مصر وعظم حبها في قلبه وأحس أنها وطنه المختاردون سائر بلاد الأرض، وقوى ميله إلى التعجيل بالسفر إليها لولا أنه تذكر سيده ابن الزعيم بدمشق فعز عليه أن يتوجه إلى مصر بغير إذنه، وشعر أنه إن فعل ذلك كان كالعبد الآبق من سيده، وهو وإن كان يعلم حب سيده له، وإيثاره مصلحته على مصلحة نفسه، إلا أنه لا يرى من الصواب أن يبت في مثل هذا الأمر الخطير قبل أن يستأذنه، ويحصل على موافقته، وما لبث أن لوى عنان جواده متوجهًا تلقاء دمشق.

فرح السيد ابن الزعيم برجوع مملوكه سالمًا إليه، وأثنى على كفايته في تأدية المهمة التي كلفه القيام بها، فشكره قطز قائلًا: إن الفضل في ذلك يرجع إلى سيده لما أحسن من تربيته، وغرس فيه من حب العمل الصالح، ثم عرض عليه ميله إلى الرحيل إلى مصر، ليلتحق فيها بخدمة الملك الصالح أيوب، لعله يستطيع أن يقوم فيها بعمل يرضي الله ويخدم به الإسلام تحت إرشاد شيخه ابن عبد السلام، فقال له سيده: إنه لايسعه إلا أن يأذن له بذلك وإن كان فراقه عزيزًا عليه، وعرض عليه أن يكتب له عتقه، فرجاه قطز ألا يفعل، وتوسل إليه أن يبعث معه من يبيعه لسلطان مصر فينتظم بذلك في سلك مماليكه، فلم يصعب على ابن الزعيم فهم مراده، إذ كان يعلم ما يجول في خاطر مملوكه الشاب، وما يحلم به من الصعود إلى المناصب العالية في مصر، وهو يذكر رؤياه العظيمة، وما أوحت إليه من الطموح إلى الملك؛ ليحقق به أمله في الحكم الصالح، ولا ينسى دعوة الشيخ ابن عبد السلام له بأن يحقق الله أمله هذا العظيم، وأمنيته في لقاء حبيبته المالكة عليه لبه، ولا يستبعد ابن الزعيم نفسه أن يبلغ هذا الشاب القوي الأمين، ما يطمح إليه، لما عرف فيه من الخلال التي تؤهله لما يريد.

وما هي إلا أيام حتى تجهز قطز للمسير فودعه سيده بدموعه الحارة، وتعانقا عناقًا طويلًا، بث كلاهما فيه ما يكنه للآخر، واشتجرت فيه عواطف الحب والحنو بعواطف الولاء وعرفان الجميل.

وسير ابن الزعيم معه خادمه الأمين، الحاج على الفراش، ليرافقه في الطريق وليبيعه في مصر للملك الصالح أيوب، ولا يبيعه لأحد غيره، وأوصاه أن يقدم ثمنه لصديقه الشيخ عز الدين بن عبد السلام، يتصرف فيه كما يشاء.

وقبل أن يغادر الرفيقان درب القصاعين بدمشق، التفت قطز فألقى نظرة على قصر سيده ابن الزعيم، ثم ألقى نظرة أخرى على قصر مناوح [1] له قد خيم عليه السكون وسادت فيه الوحشة، وكانت له في كل شرفة من شرفاته ذكرى مع حبيبته جلنار، ولما خرجا من باب المدينة وجازا رياض الغوطة الغناء، جعل قطز يقول: «ما أقصاك علينا يا دمشق وما أدناك منا يا مصر!».

١ مناوح: مجاور.



١ . إلى أين قصد الشيخ بعد طرده من دمشق؟ وماذا لقي في مستقره الجديد؟

٢ . ما موقف ابن الزعيم وقطز بعد طرد الشيخ ابن عبد السلام؟

٣ . ما الدعوتان العظيمتان اللتان دعا بهما الشيخ ابن عبد السلام لقطز حتى حفظهما وأخذ يرددهما في أثناء صلاته؟

٤ . تغيرت حالة قطز منذ دعا له الشيخ فأصبح قوى الرجاء والأمل . اشرح هذه العبارة .

٥ . اشتاق قطز للقتال فاستأذن ابن الزعيم فماذا قال له سيده هذا؟

٦ . عمد ابن الزعيم إلى حيلة رائعة نصح بها قطز فما هي؟ وهل تحققت؟

٧ . إلى أين ذهب قطز بعد انهزام الصليبيين؟

٨ . وهل أذن له سيده ابن الزعيم بالسفر إلى مصر؟ ولماذا؟

٩ . ما الهدف من إرسال الحاج علي الفراش مع قطز إلى مصر؟ وما الوصية التي أوصاه بها



الفصل العاشر

كان قطز قد بيع للملك الصالح أيوب كما أراد ، غير أنه لم يلبث عنده إلا قليلًا حتى وهبه الملك الصالح لعز الدين أيبك الصالحي أحد أمراء مماليكه الأثراء [1]

فاغتم قطز أول الأمر ، وحسب ذلك من سوء طالعه أن يوهب لمملوك مثله ، ولكنه ما لبث أن لقي من ثقة هذا الأمير واعتماده عليه واصطفائه له - فوق ما رأى من نفوذه العظيم عند مولاه الملك - ما أعاد الاطمئنان إليه فأحبه وأخلص له .

وما اصطفاه عز الدين أيبك إلا بعد أن بلا من شجاعته وأمانته وصدقه ما جعله جديرًا بثقته واصطفائه ، فقد كان الأمير أيبك - كغيره من أمراء مماليك الصالح - معنيا باصطناع الرجال الأمناء واصطفاء الأتباع المخلصين وشراء ودهم وولائهم ، ليتقوى على منافسيه في السلطة ومنازعيه الحظوة لدى مولاهم ، وكانوا في ذلك يحذون حذو أستاذهم الملك الصالح أيوب ، فكما استكثر من المماليك ، وأربى في ذلك على كل ما سلف من ملوك أهله ، حتى بنى لهم القصور في جزيرة الروضة ، وأغدق عليهم النعم وآثرهم على من سواهم بالمناصب والرتب ، ليتقوى بعصبيتهم له على من ينازعه الملك من إخوانه وأبناء عمومته من الأمراء الأيوبيين - كذلك فعل أمراء مماليكه نسجا على منواله ؛ فأخذ أحدهم يستكثر من المماليك ، ويصطنع الأتباع والأشياء ؛ ليشتد بهم ساعده ، ويكونوا له قوة على من سواه من الأمراء . وقد اصطلحوا على تسمية المماليك التابعين لمالك واحد - أو أستاذ واحد على اصطلاح ذلك العصر - خشداشية ، كل منهم خشداش أخيه أي زميله أو قرينه . وتقوم هذه الصلة بينهم مقام القرابة ولحمة النسب ، إذ لا قرابة بينهم ولا نسب ، فقد جلبوا من أمم شتى وأصقاع مختلفة .

وكان قطز من أول ما وطئ أرض مصر موكل القلب بالبحث عن حبيبته جلنار ، وقد فكر كثيرًا في الطريقة التي يتمكن بها من الاهتداء إليها ، فظل زمنا يتصفح وجوه الناس لعله يجد بينهم شخصًا من معارف سيده القديم الشيخ غانم المقدسي ممن قد رآه ورآها عنده فيسأله هل رأى جلنار أو سمع بها في مصر؟ ولكنه لم يلق أحدًا منهم ، ثم خطر بباله أن يغشى سوق الرقيق بالقاهرة ؛ لعله يجد أحدًا من النخاسين يعرف عنها خبرًا فجعل يتسلل من مولاه ويتردد على سوق الرقيق ويسأل كل قادم من تجاره عن جارية تدعى جلنار فلا يعرفها له أحد .

وبينما هو واقف في السوق ذات يوم إذ مر به شيخ قد اشتعل رأسه شيبا غير أنه لم يزل به فضل من القوة والنشاط ، ومعه عدد من الغلمان والعبيد يريد بيعهم ، فراعه أن الشيخ وقف عن مشيه لما رآه ، وأخذ ينظر إليه ، ويتفرس في وجهه ثم اقترب منه فدعاه باسمه ؛ فعجب قطز وبقى حائرًا ينظر

---

١ الأثراء : الخُلصاء ، يقال فلان أثيرى أى من خُلصائي

إليه، فقال له الشيخ: «أنسيتني يا قطز؟» فقال له قطز: «لا أذكر أني عرفتك، فمن أنت؟»، فتأوه الشيخ قائلًا: «أجل إنك ما عدت تعرفني؛ لأن الأيام قد غيرت معالم وجهي. أما تذكر جبل الأكراد وسوق الرقيق بحلب؟»، وما أتم الشيخ كلمته حتى تذكر قطز النخاس الذي اشتراه من اللصوص في جبل الأكراد وباعه في حلب، فتبين له أنه هو عينه، فصافحه قطز بحرارة وشوق، وجعلا يتحدثان عما فعلت الأيام بهما منذ افترقا في حلب وسأله النخاس فيما سأله أين هو الآن وفي خدمة من مِنْ الأمراء أو الملوك؟ فأجابه قطز بأنه في خدمة الأمير عزالدين أيبك الصالحي فسأله عن حاله عند أستاذه؟ فأخبره بأنه سعيد عنده ومقرب إليه، ففرح النخاس وقال في لهجة المفتخر: «إن يدي مباركة على مماليكي، فما بعت منهم أحدًا إلا صار له بعد ذلك شأن عظيم». وجعل يعدد طائفة من الأمراء والمماليك ويقول إنهم كانوا تحت يده فأصبحوا اليوم من أركان الدولة. ثم قال له: «أتذكر رفيقك القبجاقي الأشقر بيبرس، ذلك الغلام الشقي الآبق؟».

فخفق قلب قطز لما تذكر ذلك الغلام الأزرق العينين الذي بيع معه في سوق النخاسة بحلب، فقال لسائله: «بيبرس.. بيبرس.. نعم أذكره. أين هو الآن؟».

فابتسم التاجر وقال: «ألم تلقه؟ ألم تعرفه؟ إنه اليوم خشداش لأستاذك تحت إمرته خمسون فارسًا».

فسكت قطز وسرح فكره قليلًا، فظن التاجر أنه غار من رفيقه فمضى يقول: «إنه سبقك ياقطز أليس كذلك؟ ولكن لا تبتئس فستكون مثله وخيرًا منه». فقال قطز: «كلا، ليس بي ما ذكرت، ولكني لم أر هذا الشخص في خشداشية أستاذي».

«لعلك رأيته فما عرفته، لقد أصبح اليوم شابًا كبيرًا طويل القامة، ولكن سل أستاذك عنه، سله عن ركن الدين بيبرس البندقداري يدلك عليه». ثم حياه مودعًا معتذرًا بشغله وقال له: «إذ شئت أن تراني فسل عني موسى شاكر العطار في سوق العطارين». وأراد الانصراف، فاستوقفه قطز قائلًا: «معذرة، إنك حدثتني عن رفيقي بيبرس ولم تحدثني عن رفيقتي جلنار، أما تعرف أين هي؟».

فقال له التاجر: «من أين لي أن أعرفها؟ إني قد أعرف الغلمان الذين بعتهم أما الجواري فتحجبهن عني القصور! ألم تكن معك عند الوجيه الدمشقي؟».

- «بلى، ولكنهم باعوها بعد وفاته لرجل في مصر».

- «إن مصر كبيرة يا بني، وليس من اليسير عليك أن تهتدي إليها». فلم يشأ قطز أن يستوقف الرجل أطول مما فعل، فودعه وانصرف.

ولما رجع قطز إلى دار أستاذه سأله عن ركن الدين بيبرس البندقداري، فقال له أستاذه: «دعك منه فإنه من جماعة فارس الدين أقطاي الجمدار». وكان قطز يعلم ما بين عزالدين أيبك وفارس الدين

أقطاي من عداوة وتنافس، فلم يشأ أن يلقى على مولاه السؤال عن بيبرس، وصرف الحديث عنه.

ثم ظل بعد ذلك يبحث عن بيبرس البندقداري حتى دل عليه، فوجده جالسًا مع جماعة من كبار المماليك الصالحية المتشيعين لأقطاي الجمدار، فانتظره حتى خرج مَن عندهم فلقيه قطز مبتسما مادًّا إليه يده ليصافحه فأنكره بيبرس وقال له بلهجة خشنة: «من أنت يا هذا؟ أنا لا أعرفك».

فقال له قطز: «أنا رفيقك يا بيبرس، أنا قطز».

«ما أعرف لي رفيقًا اسمه قطز، اذهب يا هذا لعله شبه عليك».

«أنسيت ذلك الغلام الذي كان معك في دار النخاس بحلب، والذي كان يطعمك من حلواه، ويشركك في إدامه؟».

فصاح بيبرس: «قطز أنت قطز»، ومال على رفيقه فاعتنقا ثم قال بيبرس: «وأين أختك تلك الصغيرة التي كانت معنا؟».

- «جلنار؟!».

- «أجل جلنار.. أين هي؟».

فتنهد قطز: «إنها ليست بأختي، ولكها قريبتي، وقد كانت معي بدمشق ثم بيعت لرجل من مصر». وهنا لم يملك دموعه أن استعبر.

فعجب بيبرس من أمره وقال له: «ماذا يا قطز.. أتحبها؟»، فأجابه قطز: «نعم.. إني أحبها.. إني أحب جلنار، أما رأيتها هنا أو سمعت بها قط يا بيبرس؟».

فرق له بيبرس وقال له: «إني لم أسمع باسم جلنار هنا، ولو رأيتها لما عرفتها، فلابد أنها قد أصبحت شابة كبيرة». وسكت هنية ثم نظر إلى رفيقه ضاحكًا، وجعل يضرب على منكبه ويقول له: «هون عليك يا قطز، فسترى أن الجواري الجميلات هنا كثيرات».

قال له قطز: «إني لا أحب غير جلنار، ولا أريد أن أعرف أحدًا سواها».

فأجابه بيبرس، وهو على حاله ذلك من الضحك والاستهتار: «دعك من هذا، طيب خاطرك يا صديقي، فسأعرفك بعشرات من الجواري الحسان تختار منهن من تحب. فقل لي أين أنت؟ فإني أحب أن أراك وأجلس معك فأقول لك أشياء كثيرة وأسمع منك أشياء كثيرة».

فقال له قطز: «إني في خدمة أستاذي الأمير عز الدين أيبك».

فنضبت البشاشة التي كانت على وجه بيبرس، وأدرك قطز سبب ذلك وأراد أن يقول لصاحبه شيئًا، ولكن بيبرس سبقه قائلًا: «ما يضرنا أن يكون أستاذك عدوا لصديقي فارس الدين أقطاي فإنَّا صديقان قبل أن نعرفهما، ولولا أني أطمع في رتبة أنالها من وراء هذا الأحمق المتكبر لتركته، والله يا

قطز إني لست دونه في شيء، ولكنه سبقني في الخدمة بسنوات».

وهكذا توطدت الصداقة بين هذين المملوكين الشابين على ما بينهما من تفاوت في الرتبة، وتباين في المزاج والأخلاق، فكانا يخرجان للصيد معًا، ويسمران في كثير من الليالي، ولا يفترقان إلا على موعد.

أصبح عز الدين أيبك لثقته بتابعه قطز يبعثه برسائله ووصاياه الخاصة إلى السلطان، فصار قطز يتردد على قلعة الجبل يذهب برسالة ويعود برسالة، حتى أصبح معروفًا عند رجال القصر السلطاني وحرسه، موثوقا به مأمونًا جانبه، فكان ينطلق كما يشاء في دهاليز القصر وممراته دون أن يصحبه حارس أو رقيب، وذات يوم بينما كان عائدًا من القصر، مارًا بالدهليز الذي تطل عليه مقصورة الملكة شجر الدر، حظية السلطان وزوجته، إذ بوردة تسقط قدامه في الدهليز، فوقف هنية ينظر إليها، وهم بالتقاطها، ولكنه خشي من ذلك فتركها ومضى في سبيله، وعاد يومًا آخر فلما بلغ ذلك الموضع عند منصرفه من القصر، سقطت أمامه وردة ثانية كأختها الأولى، فعجب من أمرها وتحقق أنه مقصود بها وأنها لم تقع أمامه اتفاقًا، فنازعته نفسه أن يرفع طرفه إلى المقصورة ليرى الشخص الذي ألقاها، ولكنه تهيب ذلك لما سمع عن الملك الصالح أيوب من شدة الغيرة على نسائه وجواريه، وما يدريه ألا تكون هذه تجربة أريد بها ابتلاء أمانته واستقامته، وأن يكون الشخص الذي ألقاها هو السلطان نفسه واقفًا مع زوجته شجرة الدر، فسرت في مفاصله رعدة شديدة عندما خطر له هذا الخاطر فطرد من نفسه حتى الهَمَّ بالتقاطها، وخشي حتى النظر إليها، فمضى منطلقًا في طريقه.

وبقى قطز أيامًا وليالي يفكر في أمر الوردة ويذهب في تفسيرها كل مذهب، وود أن يخبر أحد أصدقائه أو خشداشيته بما شهد من هذا الأمر العجيب، ولكنه خاف أن يكون في ذلك إفشاء لسر من أسرار القصر، فعدل عنه وعزم على الاحتفاظ بهذا السر حتى يتكشف له من تلقاء نفسه. وظل ينتظر اليوم الذي يبعث فيه إلى القصر بفارغ الصبر، حتى جاء اليوم المنتظر، فذهب بقلب خافق يتنازعه الخوف والقلق والتطلع، وتلعب به الهواجس المختلفة فتضطرب به بين الإقدام والإحجام، فلما وقعت الوردة أمامه في هذه المرة الثالثة، اشتد خفوق قلبه، واضطراب جسمه اضطرابًا عظيمًا، وعراه ذهول أفقده التماسك ولم يستطع اتقاءه إلا بإبعاد ذلك الشيء الذي سبب له ما هو فيه، فخلص من ذلك الدهليز مندفعًا في طريقه غير شاعر بأنه قد التقط الوردة ورماها في جيب قميصه ليخفيها عن عينيه الزائغتين، وهبط من درج القلعة الكبير ملتاث الخُطى، يكاد أن يقع على وجهه لولا أنه حافظ من الاندفاع السريع عادل بين حركاته وستر ما بينها من التفاوت والاختلاف، والعرق يتفصد من جبينه ويسيل بين ثيابه فلو رآه أحد لأنكره.

ولما خلا بنفسه في غرفته، وأدار قميصه ليمسح عن صدره العرق، وجد الوردة في جيبه، فعجب كيف لم يتذكر أنه التقطها، ونظر فيها مليًا كأنه يستنطقها سرها، وإذ خطر له أنها ربّما ألقتها جارية

عابثة من جواري القصر، رماها من يده كأنه شيء يشمئز منه، وإنه لكذلك إذ جال بخاطره أن الفاعل ربّما يكون حبيبته جلنار، قد ساقتها الأقدار فجعلتها من جواري القصر، فهب من مضجعه واستوى جالسًا على جانب سريره، وجعل يحدق في الزهرة الملقاة على الأرض، فخيل إليه أنها تبتسم له ابتسامة حزينة، وعجب من نفسه كيف لم يخطر بباله هذا الظن من قبل، على طول تفكيره فيها، وملازمة خيالها له، وعلى كثرة ما هام في شوارع القاهرة ودروبها، وجاس خلال قصورها ودورها، راميًا بصره نحو شرفتها، منقلا طرفه بين شبابيكها طمعًا في أن يلمحها، ويعثر على مقرها من تلك المدينة العظيمة، حتى كلت قدماه، وتعبت عيناه، ووجع عنقه.

وقام إلى الزهرة فالتقطها، وجعل يقبلها ويدنيها من صدره، ثم التفت ذهنه إلى قلعة الجبل فأخذ يسائل نفسه: أيمكن أن تطوي تلك القلعة الشامخة بين جدرانها الهائلة أمليه العظيمين اللذين يحلم بهما طول حياته: ملك مصر وجلنار؟ ثم كر راجعًا على نفسه يلومها في أخذها بالوهم العابر، وسكونها إليه، كأنما حسبه أن يتوهم الشيء فيكون، وأن يفترض أنها حبيبته جلنار، فيستحيل في الدنيا أن ترمى الوردة له جارية عابثة من جواري القصر. أليس الأجدر به أن يصبر على الحقيقة حتى تسفر عن نقابها، وعلى الوردة الصامتة حتى تشي بصاحبها؟ فليتريث، وليختبر الأمر على مهل حتى يتبين وجهه، ولكن احترس يا قطز، فإنك في مأوى الأسد!

ولم يطل بقطز الانتظار في هذه المرة، إذ بعث إلى قلعة الجبل من غد ذلك اليوم فذهب وقد نوى أن يسترق النظر إلى المقصورة إذا وقعت - وهو يرجو أن تقع أيضًا - وردة أمامه ليرى من يلقيها، وقد شجع من قلبه وسكن من جأشه رجاؤه أن تكون صاحبة الوردة هي حبيبته جلنار.

ووقعت الوردة الرابعة، فرفع بصره، فرآها وعرفها، وابتسمت له، فابتسم لها، ثم اختفت، فانطلق لسبيله ومضى.

وصار قطز بعد ذلك يراها كلما صعد إلى القلعة، فيعود منها فرحًا، كأنما ملك الدنيا واستيقظت في قلبه ذكريات الحب القديم، واستبد به الحنين، وغلبته نشوة الظفر ونوازع الفرح، واشتاق إلى صديقه يبثه ذات صدره، فيشاطره فرحه، ويحمل عنه بعض همه؛ فذهب إلى صديقه ركن الدين بيبرس البندقداري، فأخبره بأنه عثر على حبيبته جلنار، وأنه رآها في قصر السلطان من مقصورة الملكة شجر الدر، وقص عليه كيف تم ذلك، فلم يجد عند بيبرس طربًا لهذا الخبر، كأن لسان حاله يقول: «أي شيء في هذا؟ وماذا يعنيك أن ترى جارية ترمي لك بوردة من شرفة عالية في قصر السلطان لا سبيل إلى الوصول إليها؟».

وأخذ بيبرس يصرف عن ذلك، ويخوفه من التعرض لجواري القصر، ويذكر له ما عر ف عن السلطان من شدة الغيرة على نسائه وجواريه، ويقول له: إن في غيرهن مندوحة عنهن. وجعل يسفه رأيه في شدة التعلق بجارية واحدة مثلها فى النساء كثير فرأى قطز أن لافائدة فى الكلام مع مَن

لايعطف على شعوره، ولا يستطيع أن يعرف أن في الدنيا شيئًا اسمه الحب، تختلف به النساء الحسان في عين صاحبه عن حبيبته المصطفاة.

وكان قد انقطع زمنًا عن زيارة الشيخ عز الدين بن عبد السلام نزولًا على أمر أستاذه عز الدين أيبك منذ تغير ما بين الشيخ وبين السلطان، فاستقال من منصبه في القضاء، واعتزل الناس فما يرى إلا يوم الجمعة يخطب على منبر جامع عمرو، وذلك أن الصاحب معين الدين وزير السلطان بنى غرفة له على سطح مسجد يجاور بيته؛ ليتخذها مقعدًا له يقابل فيه أصدقاءه. فأنكر ذلك عليه الشيخ ابن عبد السلام وأمر بهدم ما بنى، فلم يفعل، فشكا أمره إلى السلطان فتغاضى عنه، فما كان من الشيخ إلا أن غضب لدينه وقال كلامًا شديدًا في السلطان ومضى بنفسه وأولاده يحملون المساحي والفئوس حتى هدم البناء ونقل ما على السطح، ثم أشهد على نفسه أنه قد أسقط شهادة الوزير فلا تقبل له شهادة، وأنه قد عزل نفسه عن القضاء، وجهر بأنه لا يتولى القضاء لسلطان لايعدل في قضية ولا يحكم بالسوية، وهكذا أرسلها العالم العظيم كلمة خالصة لله قوية مجلجلة! ولم يثنه عن قولها ما كان بينه وبين السلطان من سابق الود، فما جهر بكلمة الحق في وجه القوة بدمشق ليسكت عنها بمصر، ولو ارتضى لنفسه مصانعة الملوك على حساب دينه لما نفته دمشق ولكان له فيها ما يريد من الثراء الواسع والجاه العريض.

وقد سعى به جماعة من حساده - ومثله لا يخلو من الحساد - عند الملك الصالح أيوب، وجعلوا يوغرون صدره عليه، ويقولون إنه لايثنى عليه في الخطبة كما يفعل غيره من خطباء الجوامع وإنما يدعو له دعاء قصيرًا فردهم السلطان بغيظهم وقال لهم: «دعوه فإني إلى دعائه القصيرلأحوج مني إلى الثناء الطويل من غيره، وما عزلته عن القضاء وإنما عزل نفسه، ولو قبل أن يعود إليه لأعدته، وما يملأ عيني من العلماء غيره، فإياكم أن تعودوا للسعاية عندي بابن عبد السلام!».

فاشتاق قطز أن يرى شيخه ليبثه ما في قلبه، ويسترشد بنصيحته، فزاره سرًا ففرح به الشيخ ولكنه نصحه ألا يعود إليه لئلا يتغير عليه أستاذه إذا بلغه أنه يخالف أمره، ووعده بأنه سيدعو الله له في سره، وأوصاه بالصبر على ما ابتلى به حتى يجعل الله له مخرجًا فيجمع شمله بحبيبته على ما يحبه الله ويرضاه، ورجع قطز من عند الشيخ بقلب راض ونفس مطمئنة، ولبث دهرًا يكتفي من حبيبته بالنظرة العجلى وبالأسبوع تنقضي أوائله وأواخره لا يراها إلا مرة أو مرتين حين يصعد القلعة في حاجة لسيده، ولكن الواشي درى بأمر الحبيبين فما قرت بلا بله، فقد علمت وصائف شجر الدر بما يدور في السر بين الوصيفة جلنار وبين مملوك الأمير عز الدين أيبك فوشين بها إلى سيدتها.

فتربصت الملكة حتى رأت بعينها صدق الوشاية، فعاتبت جاريتها على ما صنعت وتوعدتها بأن ترفع أمرها إلى السلطان إذا هي عادت لما نهيت عنه، فلم تجب المظلومة بغير دموعها وسكتت على مضضها ولم تستطع أن تدلى بحجتها في حب ابن عمتها وأليف صباها، ومن ذا كان يصدقها لو فعلت؟

وبعثت الملكة إلى عز الدين أيبك بما كان من مملوكه، وأوصته أن يتخذ رسولًا غيره إلى القلعة حفاظًا لحرمة السلطان الغيور واتقاء لغضبه؛ فصدع عز الدين بأمرها وتلطف بمملوكه العزيز عليه، الأثير عنده، فعاتبه عتابًا جميلًا على ما كان منه، وأوصاه أن يتقي ذلك الحرم.

فبكى المملوك ولم يستطع أن يدلي بحجته في حب ابنة خاله وأليفة صباه ومن ذا كان يصدقه لو فعل؟

وهكذا حيل بين الحبيبين، وبين ما كان يتمتعان به من النظرات البريئة والبسمات الطاهرة، وضرب بينهما بالأسداد؛ فبكيا ما شاءا أن يبكيا، ولكن الأمل قد انتعش في قلبيهما، فعزاهما بعض العزاء. ولبثا عائشين على الأمل ينتظران فرجًا من الله يرجوان أن يكون قريبًا، وظل قطز في خدمة سيده كما كان، ولم يفقد من حظوته عنده وثقته به شيئًا، غير أنه لم يعد يحمل رسائله إلى القصر.

ومرت السنون تباعًا وتوالت الأحداث وطفق الملك الصالح أيوب يجرد الحملة تلو الحملة، ويبعث القائد من أمراء مماليكه، ليفتح بلاد الشام ويضمها إلى سلطانه. فاستولى على غزة والسواحل والقدس، ثم سلمت له دمشق، وهرب عدوه الصالح إسماعيل فلحق بحلب حيث استجار بحليفه الملك الناصر صلاح الدين فأجاره.

وكان الملك الصالح أيوب شعلة من النشاط، لا يهدأ ولا يفتر ولا يستريح من العمل الدائب في تنظيم بلاده وتجميلها، فقد عمر فيها الأبنية والقصور والقلاع والجوامع والمدارس مالم يعمر أحد من سلفه مثله حتى وهنت قوته، وساءت صحته، فقرر الانتقال إلى دمشق ليستشفى بهوائها، عملًا بنصيحة أطبائه حتى يبرأ من علته.

وانتقلت معه الملكة شجر الدر، وانتقلت مع الملكة حاشيتها ووصائفها وفيهن جلنار الحبيبة، ترى ماذا كان شعور قطز حين فصل الركب السلطاني من مصر يؤم بحبيبته البلد الذي ارتضعا به أفاويق السعادة معا في قصر يناوح قصر سيده ابن الزعيم؟ ترى هل يمر الركب بهذا القصر؟ وهل تذكره جلنار فتتطلع إليه من سجف[1] هودجها بعينين دامعتين..؟ وهل تقع عيناها على قصر آخر قريب منه لا تعلم أنه حنا على حبيبها يوم اضطهده موسى في قصر أبيه؟

شعر الصليبيون بالخطر الذي يتهدد إمارتهم بالشام من جراء حملات الملك الصالح نجم الدين أيوب وانتصاراته، فأرادوا أن ينتهزوا فرصة إقامته بدمشق بعيدًا عن عاصمة ملكه ليغيروا على مصر بسفنهم من البحر، وكاتبوا لويس التاسع ملك فرنسا في ذلك واتفقوا معه على أن يبحر إلى الشرق ويقود بنفسه حملة صليبية كبيرة بأساطيل عظيمة وجيوش عديدة يهجم بها على مصر.

فلما سمع المسلمون بذلك خافوا وأشفقوا على الإسلام أن تقهر قوته في هذا المعقل الحصين من

---

١ سجف: الستر أو الشق

معاقله، وبرز الشيخ ابن عبد السلام من عزلته فتزعم حركة الدعوة إلى الجهاد في سبيل الله، وحض الأمراء على الاستعداد لملاقات المغيرين ودفعهم عن بلادهم، ونسى ما بينه وبين السلطان من الخصومة فكتب إليه أن يسرع بالرجوع إلى مصر لئلا يغار على مصر وسلطانها لاه باستشفائه، وكان مما قاله في كتابه: «إن الإسلام في خطر وصحة السلطان في خطر، والإسلام باق والسلطان فان في الفانين، فلينظر السلطان أيهما يؤثر».

فلما قرأ السلطان كتابه بكى وعجل بالرحيل فعاد إلى مصر محمولًا على محفة لشدة مرضه، ولم يقصد القاهرة بل نزل توا بأشمون طناح «أشمون الرمال» في قصر له هناك؛ ليكون على قرب من خط الدفاع، ولم يسترح من عناء السفر بل أسرع فشحن دمياط بالأسلحة والأقوات استعدادًا للدفاع، وبعث إلى نائبه بالقاهرة أن يجهز الشواني من صناعة مصر، فشرع في تجهيزها وسيرها في النيل شيئًا بعد شيء، ثم سير السلطان العساكر إلى دمياط وجعل عليها قائده الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ.

وأقبلت أساطيل الفرنج تحمل جموعها العظيمة بقيادة ملك فرنسا، وانضمت إليهم سفن فرنج ساحل الشام كله، فأرست في البحر بإزاء المسلمين، وسير ملك الفرنج إلى السلطان كتابًا كله وعيد وتهديد.

فلما قرئ الكتاب على السلطان اغرورقت عيناه بالدموع، لا جزعًا من غارة الفرنج وتهديدهم، بل أسفا وحسرة أن يحول مرضه المدنف دون ما تشتهي نفسه من كمال الاضطلاع بدفع هذا الخطب العظيم.

وما لبث الفرنج أن أنزلوا جيوشهم في البر، وضربت لملكهم خيمة حمراء، فجرت مناوشات بينهم وبين المصريين وقعت على أثرها زلة من قائدهم الأمير فخر الدين إذ سحب العساكر ليلًا من دمياط فارتاع أهلها فتركوا ديارهم وخرجوا كأنما يسحبون على وجوههم طول الليل، فارين إلى أشمون بمن معهم من الأطفال والنساء حتى لم يبق بالمدينة أحد، فدخلها الفرنج في الصباح واستولوا على ما فيها من الآلات الحربية والأسلحة والعدد والأقوات والذخائر والأموال والأمتعة غنيمة باردة. وبلغ السلطان الخبر فغضب غضبًا شديدًا، وقال للأمير فخر الدين: «ويلكم أما قدرتم أن تقفوا ساعة بين يدي الفرنج؟»، وأمر توا بالرحيل إلى المنصورة، وحمل في حراقة سارت به إلى البحر الصغير حتى نزل بقصر المنصورة على النيل، وأمر عساكره فشرعوا في تجديد الأبنية للسكنى بالمنصورة وأقيمت بها الأسواق وأصلح السور الذي على بحر النيل وستر بالستائر، وأقبلت الشواني المصرية بالرجال المقاتلة والعدد الكاملة، ولبى المجاهدون والرجال المتطوعون من عوام الناس دعوة الجهاد في سبيل الله والوطن، فأقبلوا من كل حدب ينسلون، وجاءت جموع من العربان، فأخذوا يشنون الغارات على الفرنج ويناوشونهم.

ولكن العلة قد اشتدت على السلطان ، وأحس دنو الأجل ، فما أذهله ذلك عن التفكير في مصلحة الدين والوطن ، فأوصى زوجته شجر الدر ومن يثق بهم من رجاله أن يكتموا موته إذا مات لئلا تضرب قلوب المصريين وتذهب ريحهم ، كما أوصاها بأن تعد من يقلد توقيعه ليستعان به في المكاتبات على كتمان موته ، حتى يقدم ابنه وولي عهده توران شاه من حصن كيفا .

وأسلم الملك الصالح روحه إلى الله وهو يذكره ويسأله أن ينصر المصريين ويحمي بيضة دينه ، وما عنده إلا زوجته وطبيبه ، وحزنت شجر الدر على زوجها العظيم وحبيبها المخلص ، ولكنها حبست دموعها ولم تدع الحزن يطغى عليها فينسيها وصية زوجها في الاحتياط لمصلحة الدولة وحفظ شمل المصريين مجتمعًا وهيبتهم في صدور أعدائهم واقرة ، فتركت جثة السلطان للطبيب يتولى غسلها وتحنيطها ، وأحضرت الأمير فخر الدين والطواشي جمال الدين فنعَتْ إليهما السلطان ووصتهما بكتمان موته خوفًا من الفرنج ، ورسمت لهما الخطة التي يجب عليهما انتهاجها ثم استقدمت الأمراء الذين بالمعسكر وقالت لهم إن السلطان قد رسم بأن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم توران شاه صاحب حصن كيفا أن يكون سلطانًا بعده وللأميرفخر الدين بالتقدمة على العساكر والقيام بالأتابكية وتدبير المملكة . فقالوا جميعًا سمعًا وطاعة ، وأقسموا يمين الولاء قاطبة .

وأخذت شجرالدر تدبر الأمور وتصدر الأوامر حتى لم يتغير شيء ، إذ بقي الدهليز السلطاني على حاله ، والسماط في كل يوم يمد ، والأمراء يحضرون للخدمة ، وهي تقول دائمًا : «السلطان مريض ما يريد أن يزعجه أحدٌ» . ولكن مثل هذا الخبر العظيم لايمكن أن يبقى طويلًا مكتومًا على الناس . فما لبثوا أن شعروا بأن السلطان قد مات ، غير أن أحدًا لا يجسر أن يتفوه به .

وما لبث الخبر أن تسرب إلى الفرنج فقويت نفوسهم ، فتقدموا من دمياط فارسهم وراجلهم ، ونزلوا على فارسكور وسفنهم على بحر النيل تحاذيهم ، ثم تقدموا حتى نزلوا تجاه المنصورة يفصل بينهم وبين المصريين بحر أشمون (البحر الصغير) فاستقروا بمنزلتهم هذه ، وحفروا خندقًا عظيمًا ، وبنوا حولهم سورًا وستروه بالستائر ، ونصبوا عليه المجانيق يرمون بها على معسكر المصريين ، ووقفت شوانيهم بإزائهم في بحر النيل ، ووقفت شواني المصريين بإزاء المنصورة ، وكان معظم عسكر المصريين في المنصورة بالبر الشرقي ، ورابطَ جمعٌ منهم في البر الغربي (حيث طلخة اليوم) وفيهم جماعة من الأمراء الأيوبيين من أولاد الناصر داود وإخوته ، وأخذ القتال يدور بين الفريقين برًا وبحرًا ، فما من يوم يمر إلا ويقتل من الفرنج ويؤسر ، وقد دأب عامة المصريين على النكاية بهم ، فجعلوا يغتالون ويتخطفون كثيرًا منهم ، ويطرقون معسكرهم فإذا شعروا بهم ألقوا أنفسهم في الماء وسبحوا إلى بر المصريين ، وكانت لهم في خطفهم حيل لطيفة يتفننون في ابتكارها ، ويتنافسون في اختراعها ، ومن ألطفها أن مصريًا أخذ بطيخة فقورها وأدخل فيها رأسه وغطس في الماء إلى أن قرب من بر الفرنج ، فظنوه بطيخة عائمة فما هو إلا أن نزل أحدهم في الماء ليتناولها حتى اجتذبه المصري فعام به حتى قدم به أسير .

واستمر الحال كذلك قرابة شهرين حتى تعرف الأعداء مخائض في البحر الصغير، فما راع الناس إلا فصائل من الفرنج قد تجمعوا في بر المسلمين، يقودهم بطل من أبطالهم هو الكندادارتوا أحد إخوة ملك فرنسا الثلاثة، الذين قدموا معه في هذه الحملة، وكان بطلًا مغامرًا فلم يكد يعبر المخاضة حتى اندفع بفرقته نحو المعسكر المصرى، لينفرد بظفر ذلك اليوم، وكان الأمير فخر الدين القائد العام حينئذ في الحمام، فأتاه الصريخ فخرج مدهوشًا وركب فرسه لينظر الخبر، ويأمرالناس بالركوب، وليس معه سوى بعض مماليكه فلقيه الكند وفرقته، فحملوا عليه ففر من كان معه من المماليك وثبت وحده يقاتلهم ويدافعهم عن نفسه، فصرع جماعة منهم حتى اجتمعوا عليه واعتورته السيوف من كل جانب.

وما أن علم الفرنج بمقتل الأمير فخر الدين حتى انتعشت نفوسهم، وأسكرتهم خمرة الظفر، فانتشرت جنود الكندادارتوا في أزقة المنصورة، حيث أمطرهم السكان وابلًا من الحجارة والطوب والسهام، واقتحم هو بفرقته المعسكر، فتفرق الناس وانهزموا يمينًا وشمالًا حتي وصل إلى السدة الخارجية للقصر السلطاني يفصل بينها وبين القصر فناء واسع، فشرع رجال الحرس السلطاني يدافعون المهاجمين الذين يريدون اقتحام السدة، ولكنهم أدركوا أنهم لا قبل لهم بهذا العدد الهائل من الفرسان المتحمسين وقد جاءوا على غرة فبغتوهم، فأخذوا يستغيثون بأمراء المماليك الصالحية – وكانت منازل هؤلاء قريبًا من القصر وحوله؛ ليكونوا ردءا للسلطان وذودا دونه.

وكان هؤلاء لم يبرحوا بيتهم بعد، ولم يخطر ببالهم قط مثل هذه المباغتة الجريئة في تباشير الصباح، فما راعهم إلا الصريخ، فقاموا إلى أسلحتهم وركبوا خيولهم فزعين إلى مصدر الصوت، فإذا هو آت من جهة القصر، وإذا نساء القصر قد رفعن أصواتهن بالصياح والعويل، وإذا بفرسان الفرنج قد دخلوا السدة، وانتشروا في الفناء، وإذا عز الدين أيبك قد سبقهم إلى الصريخ ودخل من الباب الخلفي، فجعل يقاتلهم دون باب القصر وحوله جماعة من مماليكه وبقية من الحرس السلطاني يقاتلون معه وفيهم مملوكه قطز.

فحاول هؤلاء الأمراء دخول السدة فدفعهم عنها جماعة من الفرنج وقفوا دونها، فصرخ فيهم بيبرس صرخة أدخلت في قلوبهم الرعب، وحمل هو وجماعته عليهم حملة صادقة فرقتهم أباديد وجعل يحاول اقتحام السدة، وكان قطز قد جعل همه أن يشاغل الكندادارتوا ويضاربه بالسيف، فيهيج الكند ويحمل عليه، ليضربه الضربه القاضية فيحيص عنه الشاب حتى يكاد الكند يقع عن فرسه فيعود قطز لمناوشته مبتعدًا به عن باب القصر شيئًا فشيئًا، فاستطاع بذلك أن يشغل الكند الهائج عن الاتصال بجماعته، ولم يكن أحد منهم ليجسر على مساعدته ضد مبارزة الشاب، لئلا يعد ذلك إهانة للكند وتعبيرًا له بالعجز عن القضاء على قرن واحد، فتركوهما لشأنهما فلم يزالا يتواثبان وهما يبتعدان عن باب القصر، ويقتربان شيئًا فشيئًا من السدة، وكان بيبرس قد شتت جماعة الفرنج الواقفين دون السدة وأراد اقتحامها، فلحظ الكند ذلك، وخشي دخول فرسان المصريين، وقد سئم منازلة قرنه

الشاب المراوغ، فتخلى عنه وانطلق جهة السدة فوجد بيبرس قد لز بين مصراعيها، بين الفرنج الدافعين لها من داخل الفناء وبين المصريين الدافعين لها من خارجه. فأهوى الكند عليه بضربة قوية، كادت تفلق رأسه، لو لم يتقها بيبرس بسيفه، فانكسر سيف بيبرس، ورفع الكند يمينه بالسيف ليضربه ضربة ثانية، فعاجله قطز بضربة فهوى صريعًا؛ فكبر قطز وكبر بيبرس وكبر المصريون إثرهما، ودفعت السدة ففتحت على مصراعيها، ودخل الأمراء المماليك وخلفهم الجنود، فتدفقوا في الفناء وكان الفرنج قد ذهلوا لمصرع قائدهم واستولى عليهم الرعب فتفرقوا عن باب القصر يمينًا وشمالاً وقصدوا السدة، ليخرجوا منها فرارًا بأنفسهم، فأمر بيبرس بإغلاقها، وقال لمن لم يدخلها بعد من المصريين: «ابقوا مكانكم نحن نكفيكموهم»، فحال بذلك بين الفرنج وبين الفرار، ووضع المصريون فيهم السيف حتى أتوا على آخرهم.

وإذا غادرنا ساحة القصر وتركنا شجر الدر ووصائفها يحمدن الله جميعًا على ما منّ به على المصريين من تباشير النصر، ويممنا ميدان القتال في شمال المنصورة وبين أزقتها، وجدنا ملك فرنسا قد وصل إلى الميدان بعد أن نام أخوه نومته الأبدية بساعة، وبعد أن اتقد المصريون حماسة لما أحرزوه من النصر في ساحة القصر، فحاول الاستيلاء على تل جديلة الذي نصب المصريون عليه مجانيقهم وأبراجهم وجمعوا فيه قواتهم وعددهم، وأراد أن يستكمل بناء القنطرة من الناحية الجنوبية للبحر الصغير حتى يعبر الرجال إليه. وقد نجح في ذلك كله وفاز بما أراد، ولكن المصريين قد استيقظوا من سباتهم، وانتبهوا من غفلتهم، ووطنوا أنفسهم على بذل أرواحهم فداء لله ولمصر، فجمعوا صفوفهم كأنها بنيان مرصوص، وحملوا حملة واحدة مزقت صفوف الأعداء وشتتتهم بددا، وأذهبت ما صنعوه من التدبير سدى. وانهزموا إلى تل جديلة فلاذوا به، وما كان التل ليعصمهم من أيدى المصريين لو لم يحجز الليل بين الفريقين.

وقدم السلطان الجديد بعد أن طوى السهول وجاب القفار؛ ليخلف أباه السلطان الصالح، ففرح الناس وقويت شوكة المصريين، وكانت الميرة ترد للفرنج من معسكرهم بدمياط في بحر النيل، فصمم المصريون على أن يقطعوها فيقضوا بذلك عليهم فصنعوا سفنًا جديدة وحملوها مفصلة على الجمال إلى بحر المحلة فألقوها فيه وشحنوها بالمقاتلة فسارت بهم حتى وقفت عند مجمع البحرين فكمنت هناك، فلما جاءت مراكب الفرنج خرجت لها من مكمنها، فنازلتها وأخذتها أخذًا وبيلاً، غنم المصريون اثنتين وخمسين سفينة مشحونة بالأرزاق والأقوات وقتلوا ألفا من العدو أو يزيدون.

وما إن انقطع المدد من دمياط عن العدو حتى أذاقهم الله لباس الجوع والخوف، وصاروا محصورين لا يطيقون المقام ويخشون الذهاب، فضاقت بهم أنفسهم وبلغت قلوبهم الحناجر، فأحرقوا مراكبهم بمثل ما يتقد في نفوسهم من نار الغيظ، ثم خربوا بيتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين، وقوضوا معسكرهم ورحلوا جميعًا يريدون دمياط، وولى أسطولهم فرارًا معهم فركب المصريون أقفيتهم، واتبعهم الأبطال

الذين أنجبتهم أرض مصر ، حتى إذا بلغوا فارسكور لقيهم الموت من أمامهم ، وطلبهم الموت من خلفهم ، وأحاط بهم المصريون فأعملوا فيهم سيوفهم وأوسعوهم قتلًا وأسرًا ، والتجأ الملك الخاسر إلي تل المنية – منية عبد الله – ليعصم نفسه من الموت حتى تم بينه وبينهم الأمان فكان من المعتقلين .



١ . ما مكانة قطز عند الملك الصالح أيوب ؟ دلل على ما تقول

٢ . ما هم قطز عندما وطئ أرض مصر؟

٣ . أين قابل قطز النخاس الذي باعه؟

٤ . كيف عثر قطز على بيبرس ؟

٥ . لماذا كان قطز يتردد على قلعة الجبل ، يذهب برسالة ويعود برسالة؟

٦ . ما المفاجأة التي رآها بالدهليز وتكرر سقوطها عليه؟

٧ . كيف اكتشف أن صاحبة الوردة هي جلنار؟

٨ . كيف اكتشفت الملكة شجر الدر حب جلنار لقطز؟

٩ . لماذا انقطع قطز عن زيارة الشيخ ابن عبد السلام؟

١٠ . حيل بين قطز وبين حبيبته . كيف كان ذلك؟

١١ . نسى الشيخ ابن عبد السلام الخصومة التي بينه وبين السلطان . فماذا فعل؟

١٢ . هل أذيع سر موت السلطان؟ ولماذا؟ ومن الذي دبر الأمور؟

١٣ . ما نهاية الفرنج بعد أسر ملكهم؟



الفصل الحادى عشر

وصلت البشائر إلى القاهرة ، فأقيمت فيها الزينات ، ودقت الطبول ، وأعلنت الأفراح ، وسر المصريون بهذا النصر العظيم .

ولكن السلطان الجديد الملك المعظم توران شاه لم يشكر نعمة الله عليه ، ولم يعرف حق أولئك الأبطال الذين حموا بيضة الدين ، وشفوا صدور المؤمنين ، ورفعوا مجد مصر عاليا على العالمين ؛ فأخذ فى إبعاد رجال الدولة ، وإطراح الأمراء والأكابر من أهل الحل والعقد ، وأعرض عن مماليك أبيه الذين كانوا عنده لمهماته ، وقرب جماعته الذين قدموا معه فخصهم بالمناصب والرتب ، واحتجب عن الناس ، وانهمك فى الشراب واللهو ، وبعث إلى زوجة أبيه شجر الدر ـ التى مهدت له الدولة ، وضبطت الأمور فى مغيبه ، حتى سلمته مقاليد الحكم ـ يطالبها بما عندها وما ليس عندها من الأموال والجواهر ، ويتهددها ويتوعدها بالقتل ، فأنفَ لها صنائع زوجها ومماليك أبيه ، فعزموا على قتله ، وشجعهم على ذلك تنكر الناس له وبغضهم لحكمه .

وما هى إلا أيام حتى قتل بأيدى موالى أبيه ، فى سماطه الممدود بفارسكور بين سمع الناس وبصرهم ، فما أجاره منهم مجير .

جلست شجر الدر على أريكة السلطنة بإجماع أمراء المماليك الصالحية واتفاق أعيان الدولة وأهل المشورة ، ونقش اسمها على سكة النقود ، ورددت منابر القاهرة ومصر : « اللهم وأدم سلطان الستر الرفيع ، والحجاب المنيع ، ملكة المسلمين ، عصمة الدنيا والدين ، أم خليل المستعصمية صاحبة الملك الصالح . . . . » .

وكان لويس التاسع قد حمل إلى المنصورة مقيدًا بقيد من حديد ، فاعتقل فى دار القاضى فخر الدين إبراهيم بن لقمان ، ووكل بحفظه الطواشى صبيح المعظمى ، كما اعتقل أخواه شارلس وألفونس فأبقيا مع غيرهما من كبار الأسرى !

فلما استقرت الأمور للملكة شجر الدر ، جرت المفاوضات بين المندوب المصرى الحر ، وبين العاهل الفرنسى المعتقل ، إلى أن تم الاتفاق بينهم على أن تسلم دمياط إلى المصريين ، ويخلى عن الملك ليذهب إلى بلاده ، بعد ما يؤدى نصف ما عليه من الفدية وخفق العلم المصرى على أسوار دمياط ، وعادت كلمة التوحيد ترن على مآذنها ، وشهادة الحق تجلجل فى فضائها ، وأفرج عن الملك الأسير بعد ما فدى نفسه بأربعمائة ألف دينار ، فانطلق إلى زوجته الوالهة بدمياط يندب لها سوء الحظ ونكد الطالع ، وتلومه مرغريت على إلقائه بيده إلى التهلكة ، فيقول لها : « اسكتى ولا تجمعى لى بين عذاب القوم ومرارة اللوم ، ودعينا ننجو بأنفسنا وبمن بقى منا إلى بلادنا » .

وشهدت دمياط بين الدمع والابتسام إقلاع آخر سفينة من سفن لويس التاسع وقومه ، تحملهم عن البلاد التى أرقدوا فى ثراها عشرات الألوف من أبطالهم وجنودهم ، بأيدى أبنائها المصريين .

وكان عز الدين أيبك قد قوى نفوذه فى الدولة وعظم قدره عند الملكة شجرالدر منذ أبلى ذلك البلاء الحسن فى الدفاع عن القصر السلطانى بالمنصورة يوم هجم الأعداء عليه ، فردهم هو ومماليكه عن باب القصر حتى جاء غيره من الأمراء المماليك وجنودهم فأنجدوه وملأوا ساحة القصر بجثث المعتدين ، فلم يكن بدعا أن ترتضيه شجرالدر وينتخبه الأمراء المماليك ليتولى الأتابكية للسلطانة ، ويتقلد منصب التقدمة على العساكر ، وقد كان له أيضا من علو سنه وحنكته وشهامته ما جعلهم يدينون له بالطاعة ويعترفون له بالسبق ، على أن هذا الإجماع منهم عليه لم يكن تاما ، فقد كان فيهم منافسون يرون أنفسهم أجدر منه بالرياسة وعلى رأس هؤلاء المنافسين الأمير فارس الدين أقطاى الجمدار ومن شيعته الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . ولكنهم لم يجرءوا فى أول الأمر على إظهار الخلاف والانتقاض على ما اجتمع عليه الأكثرون ، ورأوا تأجيل ذلك إلى أن تحين الفرصة الملائمة ويساعدهم الوقت .

قامت الملكة العظيمة شجرالدر بتدبير مملكتها أحسن قيام ، يعاونها فى ذلك أتابكها عزالدين أيبك وغيره من مماليك زوجها ووزرائه المحنكين وقواده العظام ، ولكن ما إن استتبت لها الأمور فى الديار المصرية حيث تهيمن عليها روحها فما استتب لها كذلك فيما وراءها من بلاد الشام التابعة لمصر ، فلم يكد يصل خبر قتل الملك المعظم توران شاه وحلول شجرالدر محله إلى الشام حتى طمع أمراؤه وملوكه من البيت الأيوبى فى الوثوب على دمشق وغيرها من البلاد التابعة لسلطان مصر ، وكان أعظم هؤلاء شأنا الملك الناصر صاحب حلب ، الذى جاء إلى دمشق فملكها ، ولم يكتف بذلك بل أعلن أنه سينتقم من شجرالدر ويثأر لنسيبه الملك المعظم توران شاه من قتلته من الأمراء المماليك .

ووردت أنباء ذلك إلى القاهرة ، فساد الاضطراب فيها وتشيع بعض الأمراء من غير المماليك الصالحية للناصر واعتبروه الوارث الشرعى لدولة آل أيوب ، وحرج مركز شجرالدر ، وزاده حرجا أن الخليفة العباسى ببغداد لما بلغه خبر تولية شجرالدر ، بعث كتابا إلى مصر ينكر فيه على الأمراء ويقول لهم : « إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا» فما وسع الملكة إلا أن تخلع نفسها وتنزل عن عرشها لأتابكها ومقدم عسكرها الأمير عز الدين أيبك ، فوافقها الأمراء المماليك على اختياره ، وحلفوا له ولقبوه بالملك المعز ، وأركبوه إلى قلعة الجبل حتى أجلسوه على دست الملك ، وجلسوا معه على السماط .

كان هذا الاستتباب السريع لعز الدين أيبك واتفاق الأمراء المماليك على توليته الحكم دون تباطؤ أو معارضة راجعا إلى نفوذ شجرالدر ثم إلى خشية الأمراء المماليك أن تضيع السلطة من أيديهم إذا قوى دعاة الملك الناصر وأشياعه بمصر ونجحوا فى ضمها تحت سلطانه ، فحينئذ ينتقم الناصر منهم ولايبقى

عليهم بحال ، فوحد الخطر كلمتهم وضم صفوفهم وأعرضوا عما بين بعضهم وبعض من المناقشات والمشاحنات ، وأسرعوا بموافقة الملكة على اختيار عزالدين .

ولكنهم لم يكادوا يتخلصون من دعاة الناصر وأشياعه فى مصر بتشتيت شملهم والقضاء عليهم ، ويشعرون بزوال الخطر عنهم ، ورجوع أمرهم كما كان ، حتى دبت عقارب البغضاء بينهم ، وعاد التنافس القديم بينهم من جديد ، وتولى كبيرهم فارس الدين أقطاى الحملة على عزالدين أيبك ، وإذ كان لا يجرؤ على طلب الأمر لنفسه رأى أن يكتفى بإفساد الأمر على قرينه ، فدعا الناس إلى تولية أمير من البيت الأيوبى ليجتمع الكل عليه ويطيعه الملوك من أهله ، وتبطل حجة الناصر صلاح الدين فى أحقيته بملك مصر ووراثة دولة أيوب ، فما سمع الناس والأمراء المماليك بهذا الرأى حتى مالوا إليه لسداده وقوة برهانه ، فأيدوه وجهروا باستحسانه ، وأخذ العامة فى الشوارع يقولون : «ما نبغى مملوكا يتولى علينا بل نريد سلطانا من آل أيوب» .

ثم عقد الأمراء المماليك مجلسا قرروا فيه أن يقيموا صبيًا من بنى أيوب يكون له اسم الملك ويكونون هم الذين يديرون الملك ويأكلون الدنيا باسمه ، فاختاروا الملك الأشرف موسى ابن الملك مسعود ، وله من العمر ست سنين ، فأقاموه سلطانًا شريكا للملك عز الدين أيبك ، على أن يقوم عز الدين أيبك بتدبير الدولة ، وقرروا أن يبرز اسمهما على التوقيعات والمراسيم ، وينقش على النقود ، وأن يخطب لهما على المنابر .

وركب الملكان الأشرف والمعز تتقدمهما الأعلام السلطانية . وشقا القاهرة بين الجماهير المحتشدة لرؤيتهما ، والمعز يحجب الأشرف ، راكبا أمامه ، بعصا فى يده ، والأمراء تتناوب فى حمل الغاشية ، واحد بعد واحد .

أما فارس الدين أقطاى فقد رأى أنه لم يصنع شيئًا إذ بقى عز الدين أيبك فى سلطانه وقوته ، ولم يفقد من نفوذه شيئًا ، وكانت الأمور كلها فى يده وليس للملك الأشرف إلا الاسم ، على أن نفسه قد طابت قليلاً لأن عز الدين أيبك لم يعد له الحق فى الاستبداد والاستئثار ، دون سائر الأمراء المماليك ، كما لو كان هو السلطان ، فبقى بذلك لأقطاى ولغيره من الأمراء حق الاعتراض على سياسته والتدخل فى شئون ملكه ، على أن يؤجل ما وراء ذلك من مطامعه فى التغلب عليه إلى حين آخر .

ولم يخف على عز الدين أيبك ، ما يضمره أقطاى له ، وما ينويه من التغلب عليه ، فأراد أن يشغله عن ذلك ، ويصرفه عن التدبير له ؛ فجعل إليه قيادة المماليك البحرية ، وسيره لقتال الملك الناصر صلاح الدين ، صاحب دمشق ، الذى كان قد جمع الجموع لغزو مصر ، فسار أقطاى إلى غزة بألفى فارس وقاتل جنود الناصر وهزمهم وعاد إلى مصر ظافرًا ، ولسان حاله يقول لعز الدين أيبك : «هأنذا عدت إليك أقوى مما كنت» .

ولكن عز الدين أيبك باستناده إلى ركن قوى من شجرالدر - وإن اعتزلت الملك - لا تزال هى القوة المصرفة من وراء الستر، وكان نفوذها ماضيا على كل الأمراء، ترفع من تشاء منهم وتضع من تشاء، وكانوا جميعا يعرفون ميلها إلى عز الدين أيبك وثقتها به، فلم يكونوا ليعارضوها فى تقريبه واصطفائه خوفا من غضبها، وكانوا يعرفون أيضا أن شجرالدر تحب السلطة وتعشق النفوذ والسيطرة، ولم تعتزل الملك إلا مغلوبة على أمرها، وكانت ترى فى نفسها الجدارة للحكم، والكفاية لتصريف الأمور، وأنها ما قعد بها عن الاستمرار فى الجلوس على أريكة السلطنة إلا كونها أنثى. فرأت أن تتغلب على قصورها هذا الطبيعى بأن تجعل على عرش المملكة رجلاً من صنائعها، تثق بإخلاصه لها، وتطمئن إلى أنه لا ينتقض عليها فيستأثر بالأمر دونها، فاختارت عز الدين أيبك لأنه كان أطوع الأمراء لها، وأخلصهم لزوجها، وليس له من كثرة الأتباع والمماليك ما قد يطمعه فى الخروج على طاعتها، والتخلص من سيطرتها.

على أنها لم تشأ أن تطمئن إليه كل الاطمئنان، وتذهب فى الثقة به إلى أبعد مما تقتضيه حاجتها للاستئثار به، فلم تقصر كل عطفها عليه بل جعلت للآخرين نصيبا من برها وعنايتها، تضمن به ودهم لها ودفاعهم عن حقها إذا بطر عز الدين أيبك نعمتها، وحاول استلاب النفوذ من يدها، فكانت تطيب نفوسهم وتشعرهم أنها لم تختر عز الدين أيبك لكونه أفضل فى عينها أو أدنى إلى قلبها منهم وإنما أرادت بذلك أن تحفظ سلطتهم، وتصون مقامهم؛ لأنه ليس له من القوة والشراسة وحب الاستبداد مايخشى عليهم منه.

وكان عز الدين أيبك يعلم هذا منها، فكان يتقى إغضابها ويبالغ فى استرضائها، ولا يقطع أمرا دونها، ولم يكن عزوفا عن الاستبداد بالأمر والاستقلال بالسلطة - وإن كان يتظاهر بذلك عندها وعند الناس - ولكنه أحبها ومال إليها قلبه، فلم يجد حرجا فى احتمال سيادتها عليه، وتحكمها فيه، ولم يشعر بغضاضة فى خضوعه لها، وكان عفيفا حييا، لا يكاد يرفع إليها طرفه، وإذا حدثها، حدثها بوقار واحتشام، كما كان يفعل لو أن زوجها السلطان كان حيا بعد، وقد برح به حبها، وما منعه من التصريح لها بما فى نفسه إلا أنه كان يهابها أن يقول لها شيئا كان يراه مستحيلا فى حياة سيده.

ولم يصعب على شجرالدر أن تتبين حبه الخفى لها، فقد شعرت به فأضمرت له مثله، ولكنها كانت تغالب هذا الحب وتدافعه، خشية أن تستسلم له فيحملها هذا الاستسلام على التضحية بما جبلت عليه من شهوة الحكم، وحب السلطان، فأرادت أن تحتفظ بإرادتها حرة، لا يحد منها حب ولا تجور عليها نزوة من نزوات القلب.

نعم إنها كانت تعلم أن لابد لها من التزوج بأحد الأمراء يوما ما؛ لأنها لم تبلغ من الكبر بحيث ينقطع أملها فى الزواج، وتخلد نفسها إلى التأيم. ولكن من ذا يضمن لها إذا هى اصطفت عز الدين أيبك بعلاً يصون لها ما تحب من السيطرة، ولا ينازعها حقها فى السيادة - من ذا يضمن لها حينئذ أن

يبقى لعز الدين أيبك ملكه ، وألا ينتزعه من يده أحد من منافسيه الأقوياء فتخسر بسقوطه كل شىء؟ ولم يزل التنافس بين الأمراء قائمًا على قدم وساق ، فلتتريث حتى ترى لمن تكون الغلبة القاهرة ، فتمد إليه يدها إذا مد إليها يده - وهى موقنة أنه سيفعل - فأى منهم لا يتمنى أن يحظى بها ، ويسعد بحبها؟

وكان سيف الدين قطز شديد الإخلاص لأستاذه عز الدين أيبك - لثقة أستاذه به ، واعتماده عليه فى المهمات ، ولأن أستاذه كان مثله دينا عفيفا ، فأحبه لدينه وعفته ، فكان لا يألو جهدا فى توطيد مركز عز الدين أيبك بما يجمع حوله من الأتباع ، وبما يستميل إليه من القلوب ، وقد عرف أن لأستاذه منافسين أقوياء ، وأن عيونهم لا تنام عنه ، وأنهم يتربصون به الدوائر ليثبوا عليه ويحكموا مكانه ، وهذا فارس الدين أقطاى يفوق أستاذه فى كثرة الخشداشية والأشياع وهو مغامر بطل ، ومن حوله مغامرون أبطال ، ولو لم يكن فيهم إلا بيبرس لكفى ، وقد رأى قطز أن أستاذه يستمد نفوذه من شجر الدر ، وأن شجر الدر لا يمكن الثقة بها ، ولا الركون إليها ، وهؤلاء الأمراء يتقربون إليها ، ولا يبعد أن ينجح أحدهم فى استمالة قلبها إليه ، فتميل عن أستاذه عز الدين أيبك فيتم بذلك سقوطه .

وقد هداه تفكيره إلى أن الضمان الوحيد لبقاء أستاذه فى الحكم هو أن يتزوج عز الدين أيبك شجر الدر ، وكان قد عرف ميله إليها وغرامه بها ، وإن لم يخبره أستاذه بذلك ، فأراد أن يشير على أستاذه بطلب يدها ، فدخل عليه يوما وقال له : « إن سيدى كثير الاختلاف إلى السلطانة ، وإن الناس يقولون إنه سيتزوجها ، ومملوكه الوفى يعتب عليه أن يجهل ما يعلمه الناس عن سيده» . فنظر إليه عز الدين أيبك باهتمام كأنما لذ له أن يسمع مثل هذا الحديث ، وقال له : « لا تصدق مايقول الناس فليس ذلك بصحيح» .

قال قطز : « فسيقولون ما هو أعظم من هذا ، مما لا يطيق المملوك سماعه عن أستاذه العفيف» . ففهم عز الدين أيبك ما أراد ، وقال له : « ما شأننا بهم ، دعهم يقولوا ما يشاءون» .

فقال قطز : « صدقت ياسيدى ، لندعهم يقولون ما يشاءون ليس لنا بهم شأن ، ولكن دعنا أيضا نفعل ما نشاء ليس لهم بنا شأن ، إن سيدى يرغب فيها ، فلماذا لا يطلب يدها؟» .

قال عز الدين أيبك : "من قال لك إننى أرغب فيها؟" .

فأجابه قطز : «إذا لم يشعر المملوك بهموم سيده لم يكن أهلا لثقته» .

فرأى عز الدين أيبك أن لا فائدة من إخفاء الحقيقة عن مملوكه ، وشعر بالارتياح ؛ إذ رأى أن ما كان يجول فى سره كحلم من الأحلام ، قد أصبح حقيقة يتحدث عنها بين يديه ، فقال له : « ومن يضمن لى أنها ترضانى؟» . فقال له قطز : « وهل تجد بين يديها من هو أفضل منك؟» .

- إنى مملوك زوجها ياقطز .

ـ وهل كانت إلا جارية مملوكة؟ ومَن مِن ملوك بنى أيوب يرضَى الأمراء المماليك أن يتزوجها؟ اللهم إلا أن يكون الملك الأشرف، فهل تتزوج هذا الصبى؟ّ!

فضحك عز الدين أيبك عند سماعه هذا، ومضى قطز يقول: «إنه لا يتزوجها إلا أنت أو أقطاى، وقد سمعت أنه قد خاطبها فى ذلك».

فاختفى من وجه عز الدين أيبك الضحك، وظهر مكانه التقطيب والاهتمام، وسأل مملوكه: «ممن سمعت هذا؟»

ـ سمعت من بيبرس، وقال لى أشياء أخرى عن نفسه تأبى الصداقة التى بينى وبينه أن أفشيها.

فسكت عز الدين أيبك طويلا، ثم قال: «ولكنى لا أجرؤ على مخاطبة السلطانة فى ذلك، وقد حاولت ذلك غير مرة فيعقد الحياء لسانى فى كل مرة».

ـ إذا شاء سيدى أعارنى قلبه وأعرته لسانى.

ـ تريد أن أبعثك إليها؟

ـ نعم فأبوح لها بذات صدرك.

ـ ماذا أنت قائل لها؟

ـ دع هذا للموقف يُمل علىّ ما يقتضيه، وأيقن أن لسانى لن يعثر فى شىء لا يرضيك.

فنظر إليه عز الدين أيبك، ضاحكا، وقال مداعبا: «قد عرفتك ياقطز، إنما تريد أن ترى وصيفتها جلنار!».

فابتسم قطز وقال: «ليس هذا بسر عليك، وما أريد أن أكذبك فأنكر أنى أطمع منها فى نظرة، لا أحسب سيدى يستكثرها علىَّ جزاء لى على الخدمة، آه إنى لم ألقها إلا مرة واحدة، يوم دعتنى الملكة ثالث يوم لارتقائها أريكة السلطنة، فأثنت على صنيعى يوم قتلت الكندادرتوا، ثم قالت لى: أتحب هذه الوصيفة؟ فنظرت فإذا جلنار واقفة دونى فأذهلنى ذلك عن جوابها.

فما راعنى إلا صوت الملكة تقول: وتريد أن أزوجكها؟ قلت: لا أرفض نعمة السلطانة, قالت: متى تريد ذلك؟ فقلت: خير البر عاجلة. فابتسمت السلطانة وقالت: لا، حتى ينقضى الحزن على السلطان، آه يا سيدى لا أدرى متى ينقضى هذا الحزن على السلطان».

فسكت عز الدين هنيهة يتعجب من حماسة مملوكه الشاب وطلاقة لسانه فى الحديث، ثم قال له وهو يبتسم: «ينقضى هذا الحزن على السلطان حينما تتزوج السلطانة».

فقال قطز: «أجل ياسيدى فتزوجها من أجلى أنا إن لم يكن من أجلك، وخلصنى من هذا الحزن الطويل».

فأغرب عز الدين فى الضحك ، وقال له : «إذن فأنا الذى أستحق الجزاء منك» .

ولـم يكـن ماسـمعه قطـز مـن صديقـه بيبـرس حديثًـا مختلقًـا ، فقـد ذهـب فـارس أقطـاى حقـا إلـى شـجرالدر وخاطبهـا فـى الـزواج ، وكان جريئـا فمـا عقـد الحيـاء لسـانه ومـا عاقتـه هيبـة الملكـة عـن الإفضـاء إليهـا برغبتـه فـى يدهـا ، وقـد فوجئـت شـجرالدر بهـذا الطلـب الصريـح الجـريء ، ولكنهـا ملكـت أعصابهـا ، وقالـت لـه بهـدوء : إنهـا لا تـرد طلبـه ، ولكنهـا لا تريـد أن تفكـر فـى الـزواج ، حتـى ينتهـى أمـر الملـك الناصـر صاحـب دمشـق ، وتأمـن علـى مصـر وعلـى نفسـها ، مـن غـزوه وتهديـده ، فاقتنـع منهـا أقطـاى بهـذا الجـواب وحسـب ذلـك وعـدًا منهـا بالقبـول فاطمـأن قلبـه ، وجعـل همـه القضـاء علـى الناصـر وجنـوده .

ولمـا ذهـب قطـز رسـولا مـن أسـتاذه إلـى شـجرالدر لـم يشـأ أن يصـرح لهـا برغبـة سـيده فـى زواجهـا ، ولكنـه عـرض لهـا بذلـك تعريضـا لطيفًـا ، فـكان ممـا قالـه لهـا : «مولاتـى السـلطانة ، إن أسـتاذى بعثنـى إليـك فـى أمريـن : أحدهمـا أن تنجـزى وعـدك لمملوكـه بالـزواج مـن وصيفتـك ، والآخـر أنـه إذ يعلـم أنـك لا تحبـين فـراق وصيفتـك ، وهـو لا يقـدر علـى فراقـى ، فإنـه يتوسـل إليـك أن تسـمحى لنـا أنـا وهـى ، بـأن نعيـش فـى خدمتكمـا معـا» .

فسـكتت الملكـة هنيهـة تفكـر فيمـا قـال ، ثـم سـألته فـى صـوت هـادئ رزيـن : « أى هذيـن الأمريـن أحـب إلـى أسـتاذك أن أقضيـه؟» .

فطـرب قطـز إذ أدرك أن الملكـة فهمـت تلميحـه وأرادت أن تسـتوضحه فحـوى كلامـه لتسـتوثق مـن صـواب مافهمـت ، فبدرهـا قائـلا : «الأمـر الثانـى يامولاتـى السـلطانة» .

فقالت له الملكة : «كيف عرفت ذلك؟» .

فأجابها قائلا : «لأن الأمر الثانى يتضمن الأمرين معا» .

فتـورد وجـه الملكـة خجـلا ، وصفقـت بيدهـا فأتـى لهـا بمـاء فـى كـوب مـن الذهـب فشـربت منـه ، ثـم التفتـت إلـى قطـز وقـد سـكن مـا بهـا ، وعـادت إلـى هيئتهـا الأولـى ، وقالـت لـه : « ارجـع إلـى أسـتاذك فقـل لـه إنـى لا أسـتطيع أن أقيـم عرسـا وجنـود الناصـر علـى أبـواب مصـر» .

فقال لها قطز : «يا مولاتى السلطانة ، أحسب أن فى هذا ظلما لى وإخلافا لوعدى» .

فاستغربت الملكة ببصرها ، وهمست تقول : «لا خوف على عز الدين وهذا المملوك عنده» .

وفهـم عـز الديـن ممـا بلغـه قطـز أن شـجرالدر تعـده بقبـول الطلـب بشـرط أن يهـزم الناصـر وجنـوده ، ولـم يكتـف مملوكـه بـأن ينقـل لأسـتاذه كلام الملكـة ، بـل أخـذ يشـرح لـه مـا اسـتنبطه مـن سـرها ، ومـا قـرأه علـى أسـارير وجههـا ، وفسـر ذلـك بأنهـا تحـب أسـتاذه ، لاشـك فـى ذلـك عنـده .

وأخذ عز الدين يشككه فى ذلك ، فيقول له قطز : » ألم أتبين حبك لها قبل أن تخبرنى به؟» .

فيقول له عز الدين : «بلى» ، فيقول قطز لأستاذه : «فقد تبينت حبها لك من حيث تبينت حبك لها . »

فعزم الملك عز الدين أن يسير بنفسه لملاقاة الناصر وجنوده ، وألا يكتفى فى ذلك بتسيير قواده ، لئلا ينفرد دونه فارس الدين أقطاى بظفر هذا اليوم العصيب .

وكان الملك الناصر قد حشد الجنود لأخذ مصر من أيدى المماليك ، وانضم تحت لوائه عصبة من ملوك بنى أيوب بالشام أشهرهم الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق السابق ، فسار إليه عز الدين بعساكره ، واستصحب معه كبار قواده ولقى جموع الناصر بالرمل بين الخشبى والعباسية ، فدارت بين الفريقين معركة هائلة ، كانت الدائرة فى بادئ الأمر على الجنود المصريين ، فانهزموا حتى وصل بعضهم إلى القاهرة فى غد يوم الوقعة وكان يوم الجمعة فما شك الناس فى أن الأمر تم للملك الناصر ، وخطب له فى جوامع البلاد كلها ، إلا جامع القاهرة حيث كان يؤم الناس فيه الشيخ ابن عبد السلام ، فما انقضت صلاة الجمعة حتى وردت البشائر بهزيمة الناصر وفراره إلى دمشق ، وانتصار الملك المعز ، فزينت البلاد لمقدمه ظافرًا ومعه الأسرى من الملوك ، وفيهم الملك الصالح إسماعيل ، فلما مر الموكب بقبر الملك الصالح أيوب ، أحدق المماليك البحرية بالصالح إسماعيل ، وجعلوا يصيحون : «يا مولانا ، أين عينك ترى عدوك إسماعيل ؟» .

ولما دخل المعز إلى القلعة تلقاه السلطان الصغير الملك الأشرف موسى وهنأه بالظفر ، فصاح فارس الدين أقطاى قائلاً للملك الأشرف : « كل ما حصل إنما حصل بسعادتك ، وما سعينا إلا فى تقرير ملكك» ، ولسان حاله يقول للملك المعز : « إياك أعنى واسمعى ياجارة» .

واهتم قطز بأمر الملك الصالح إسماعيل السجين بالقلعة ، وتذكر خيانته لله ولرسوله - أيام كان ملكا على دمشق - وبيعه بلاد المسلمين لأعداء الله الصليبيين وما كان من اضطهاده لشيخه الشيخ ابن عبد السلام وأنصاره المجاهدين ، فأشار على أستاذه المعز بقتله ، فلما رأى تردده فى ذلك استخرج له فتوى من الشيخ ابن عبد السلام باستحقاق هذا الملك الخائن للقتل ، فأمر به المعز فقتل خنقا ، ولقى جزاء خيانته لدينه ووطنه .

وأخذ فارس الدين أقطاى يستنجز شجرالدر وعدها ، فكان يبعث إليها ركن الدين بيبرس رسولا من قبله ، فتتلقاه الملكة بالترحيب ، وتحسن الإصغاء إلى حديثه وهو يعدد لها مناقب صاحبه وشجاعته وفروسيته وقوة ناصره وكثرة أتباعه ، ويصف لها وقائعه وبلاءه فى المعارك التى شهدها ، وأثره فى إحراز النصر لمصر فى كل غارة تشن عليها ، فينطلق لسان بيبرس فى وصف ذلك انطلاقا عجيبا ، ويصوره تصويرًا قويًا يأخذ بمجامع قلب الملكة ، ويستولى على مشاعرها حتى يخيل إليها أنها تسمع صليل السيوف وقعقعة الرماح وحفيف السهام وصهيل الخيل وصيحات الأبطال ، وتشهد الصفوف تزحف ، والصفوف تنهار ، والفرسان تكر ، والأعداء تنهزم وتفر ، وترى الناس أقطاى كالأسد الهائج

يقدم ولا يحجم ، والجواد يتوثب به فيعلو حينا وينزل به حينا ، والسيف فى يمينه ، والأبطال تخر صرعى عن يمينه وشماله .

ولكن بيبرس قلما يصف لها حب صاحبه وغرامه بها ، وإذا تعرض لذلك ففى جمل لا تخرج من القلب فلا تصل إلى القلب ، وأنى لبيبرس أن يصف شيئًا لا يعرفه ولا يحس به؟ وعلام يعنى نفسه فى صوغ كلمات لا تطرب لها شجرالدر كما تطرب لحديثه المتدفق الممتع عن بطولة صاحبه وشجاعته فى ميادين القتال؟

أما قطز فإنه لا يعدد لشجر الدر ماتعلم من مناقب أستاذه وخلاله ، بل يجزئ فى ذلك بالإشارة إلى دينه وعفته ، وصدقه وأمانته ، وإخلاصه ووفائه ، ثم يفيض فى شرح حبه وبث غرامه ، ويصور لها خطرات نفسه وخلجات ضميره ، ويسمعها وجيب قلبه وحنين فؤاده ، واصفا فى خلال ذلك الفينة بعد الفينة صورتها فى عينه جميلة رائعة ، نقية طاهرة ، جامعة بين محاسن الخلق ومكارم الخلق ، وكان قطز إذا ما أخذ فى هذا الحديث نسى أنه ينوب عن أستاذه ويقول على لسانه واستحضر حبيبته جلنار كأنها جالسة أمامه حيث تجلس شجرالدر من أريكتها ، وكأنه يبثها ما فى قلبه من لواعج الحب ومرارة الشكوى ورقة الحنين ، فكانت كلماته تقع من الملكة مواقع الماء من ذى الغلة الصادى ، فما تملك الملكة نفسها أن تتنهد مسارقة من حين إلى حين ، ولولا أنفتها أن يظهر عليها الضعف أمام المملوك الرسول ، وقدرتها على امتلاك عواطفها والاحتفاظ بهدوئها ، لأرسلت دموعها وعلا صوتها بالنحيب .

وكان جواب الملكة العظيمة لكلا الرسولين : أن خطر الناصر على مصر لا يزال قائمًا ، وأنها لن تفكر فى الزواج حتى يزول ، فجعل أقطاى يقود الحملة إثر الحملة لقتال الناصر وأشياعه بالشام ابتغاء مرضاة شجرالدر ، ويغار عز الدين من أن ينفرد خصمه بشرف الانتصار دونه فيسير أحيانا بنفسه لقتال الناصر ، وينيب مملوكه الأمين على البلاد ، حتى تقرر الصلح بينه وبين الناصر على أن يكون للمصريين إلى الأردن داخلا فى ذلك غزة والقدس ونابلس والساحل كله ، وللناصرماوراء ذلك .

فلم يبق لدى شجرالدر ما تعلل به من أمر الناصر دون الزواج ، ولكنها لم تشأ أن تتعجل الفصل فى هذا الأمر العظيم الذى يقوم عليه مستقبلها الغامض ، فم تعدم معاذير أخرى تستأجل بها البطلين المتنافسين ، وظلت توازن بينهما أيهما تمنحه رضاها وتأمنه على مصيرها ، ونظرت فوجدت أمامها رجلين أحدهما يحبها ويخضع لها أكثر من صاحبه ، والآخر تعجب به لقوته وبطولته أكثر من أخيه ، فمال قلبها إلى الأول . ولكنها لم تشأ أن تقطع بقبول عز الدين أيبك ، حتى ترى ما يكون من أمره إذا نفد صبر فارس الدين أقطاى فعزم على مواثبته جهارًا ، فرأت أن تعمل على تأريث نار الخصام بينهما فتستعجل بذلك يوم الفصل ، فقالت لرسول عز الدين أيبك لما جاءها : قل لأستاذك إنى لا أقبل أن أتزوج نصف ملك ، فإذا صار ملكا تزوجته .

ففهم عز الدين أيبك أنها تحرضه على عزل السلطان الصغير ، الملك الأشرف ، والاستقلال بالملك

دونه . وكان قد فكر زمنا فى ذلك ، إذ رأى أن أركان ملكه لا تثبت بدونه ، لأن الأمراء المماليك وخصمه أقطاى خاصة يتخذون حق السلطان الصغير سببا يعترضون به على سلطته ، ويتداخلون به فى شئونه ، فلما وجد شجرالدر تقترح عليه ذلك ، صدع بأمرها وتوكل على الله .

وما هى إلا أيام حتى انفرد الملك المعز بملك مصر ، وأزيل اسم الملك الأشرف من الخطبة ، وقبض عليه فسجن بالقلعة ، والملك الصغير لا يدرى لماذا أجلسوه على العرش ، ثم لماذا أودعوه السجن ، وهو لم يأت عملاً استحق به العرش فى الأول ، ولم يقترف جرما استحق به السجن فى الآخر .

وكبر على فارس الدين أقطاى ما فعل الملك المعز ، وأيقن أن قد آن آوان الجد فى منازلة خصمه العتيد ، فجمع إليه أشياعه وأتباعه واستعد للوثوب ، ولكنه لم يشأ أن يستعجل الأمر ويثب فى وضح النهار لئلا يثير بذلك خوف شجرالدر منه ، فتتقى شره بتحريض سائر الأمراء المماليك عليه - وكلمتها مسموعة عندهم ، ولا يجرؤ أحد منهم على مخالفتها - فيبوء بالخيبة وينتصر خصمه عليه ، لا سيما وهو لم ييأس بعد من اكتساب رضاها إذ ذاك ، ولم تقطع أمله فى الوفاء بما وعدته به ، فهذا رسوله بيبرس لا يزال يتردد ، فتلقاه بما يسره من الوعود ، ويفهم من ذلك أن الملكة لا تمد يدها إلا إلى الغالب .

فقد عزم أقطاى على أن يكيد للملك المعز ، بنشر الاضطراب فى البلاد حتى يظهر بذلك عجز الملك المعز عن القبض على زمام الحكم ، وحينئذ تتلفت البلاد فلا تجد غير أقطاى .

فأوعز أقطاى إلى خشداشيته من المماليك البحرية وأتباعهم ، فعاثوا فى الأرض فسادًا واستطالوا على الناس ، فجعلوا يأخذون أموال العامة ونساءهم وأولادهم بأيديهم ، فلا يقدر أحد على منعهم ، حتى بلغ من بغيهم وفسادهم أن كانوا يدخلون الحمامات ، يأخذون النساء منها غصبا ، فإذا قيل لأقطاى فى ذلك ، قال : » لا قدرة لى عليهم ، فدعوا الملك المعز يكفهم عن البغى فى البلاد« .

أما الملك المعز فقد حاول فى أول الأمر أن يسترضى أقطاى ، فأغدق عليه الأموال ، وأقطعه ثغر الإسكندرية ، وكتب له منشورًا بذلك طمعا فى أن يكف شره عنه وشر أتباعه .

ولكن أقطاى عد هذا ضعفا من جانب المعز ، فزاد طمعه فيه وقوى أمله فى الانتصار عليه .

ونظرت شجرالدر إلى ما انتهت إليه الأمور فى الصراع بين البطلين المتنافسين فيها وفى عرش البلاد ، فأدركت بحكمتها ودهائها ، أن السلاح الذى استعمله أقطاى سيرتد فى نحره يوما ما فيقضى عليه ؛ لأن الناس قد ضجوا من فساد أتباعه وأخذوا يجأرون بالشكوى منه ، فبتت فى أمرها ، وأعلنت الملك المعز بعزمها على التزوج به ، ولم تشأ أن تتباطأ فى ذلك فعجلت به .

وما راع الناس إلا زفاف الملكة شجرالدر إلى الملك المعز ، وإقامة الزينات و الأفراح فى القلعة والقاهرة وسائر المملكة المصرية ، فدقت الطبول ، ونشرت الأعلام ، وقدمت وفود الرجال والنساء من سائر البلاد يهنئون الملكين العروسين على زواجهما السعيد .

وأسقط فى يد أقطاى ، إذ رأى أمله ينهار أمامه ، وأدرك أن شجر الدر كانت تخادعه وتمنيه بالباطل ، فاضطرب قلبه حقدًا عليها ، ونوى أن ينتقم منها ، ولو فقد فى سبيل ذلك رأسه الذى على عنقه فجمع أصحابه وأتباعه وهدد بهم غيرهم من المماليك البحرية ؛ لكى ينضموا إليه ، ويبسط عليهم نفوذه ، وجهر بمعارضة أوامر الملك المعز ، واستبد بتدبير الأمور دونه ، ووضع مقاليد السياسة فى أيدى أتباعه ، فلم يبق للملك المعز معهم أمر ولا نهى ، ولا حل ولا عقد ، وعاد لا يسمع أحد منهم له قولا ، فإذا رسم لأحد منهم بشىء ، أخذ أضعاف ما رسم له ، وإن أمر لأحد من غيرهم بشيء ، لم يمكن من إعطائه ما أمر به ، واجتمع الكل على باب فارس الدين ، وصارت كتب الملك الناصر وغيره إنما ترد إليه ، ولا يقدر أحد أن يفتح كتابا أو يرد عليه ، أو يبرم أمرًا ، أو يتكلم بشىء الا بحضوره .

وهذا عقابه للملك المعز ، فأين عقابه للملكة شجر الدر؟ وأين انتقامه منها؟ إن عقابها لا يتم إلا بإنزالها من قلعة الجبل ، لتحل محلها زوجة له من بنات الملوك . وقد أحكم تدبيره لهذا الأمر من قبل فما راع الناس إلا النبأ العظيم بأن الأمير فارس الدين أقطاى قد صاهر الملك المظفر ، صاحب حماة ، وأن ابنته قد حملت إلى دمشق ، فى موكب عظيم لإحضارها إلى مصر حيث تزف إلى من بيده فيها الأمر والنهى .

وركب أقطاى فى عصبة من أصحابه إلى الملك المعز بقلعة الجبل ، فأخبره بإصهاره إلى الملك المظفر صاحب حماة ، وطلب منه الإذن له بأن يسكن قلعة الجبل بعروسه من سلالة الملوك ، فوجم الملك المعز هنيهة ، ثم قال : إنه سينظر فى طلبه ، فقال له أقطاى : « لا أرى موضعا للنظر فى هذا الطلب ، وإن كنت إنما تريد استشارة شجر الدر ؛ فما أحسبها تستنكف أن تنزل عن سكنها فى قلعة الجبل لابنة ملك من بيت مواليها وأولياء نعمتها » . فانقطع المعز ولم يجب .

ولما سمعت الملكة شجر الدر بالخبر أيقنت بالخطر وأدركت أن الأمر جد كله ولا هزل فيه ، وأن ابنة الملوك آتية لا ريب فيها ، فنازلة بقلعة الجبل كما شاء أقطاى ، إذا لم تعجل بالضرب على يده ، وقد عرفت أنه قصد بذلك إرغام أنفها ، وتحدى كبريائها وكسر نفسها ، انتقاما منها ؛ لأنها آثرت عز الدين أيبك عليه ، وكان قد أزعجها قبل ذلك تحدى أقطاى لسلطة الملك المعز ، وتعديه على حقوقه ، واستبداده بالأمور دونه حتى كأنه هو الملك ، فأخذت تفكر فى التخلص منه ولكن هذه الطامة الأخيرة هى الطامة الكبرى ، فلتظفر به قبل أن يظفر بها .

فأشارت على زوجها ألا يعارض أقطاى فى شىء ، وأن يتظاهر بالرضا عن طلبه ، وأوعزت إلى سيف الدين قطز ، مملوك زوجها ، أن يلقى فى أذن صديقه بيبرس أن الملكة قد عزمت على التحول من قصر القلعة وتركه للأميرة القادمة ، ونفذت شجر الدر هذا التدبير بالفعل ، فجعلت تظل نهارها بقلعة الجبل ، حتى إذا أمسى المساء ، انتقلت مع جواريها وحاشيتها إلى قصر آخر ، أسفل القلعة ، فأوقدت فيه المصابيح ، فلم يشك أقطاى فى أن شجر الدر إنما عجلت بإخلاء قلعة الجبل ؛ لكيلا تأتى زوجته

الأميرة إلا وهى فى قصر آخر ، فتخفف على نفسها بذلك معرة الخنوع لإرادته ، فاطمأن أقطاى إلى حاله واغتر بنفسه ، واعتقد أن الأمور ستواتيه ، وأن الملك سيتم له .

وبعثت شجرالدر إلى مملوك زوجها ، فقالت له : «إنى أريد أن أفى لك بوعدك وأزوجك جلنار ، ولكنى لا أحب أن يتم عرس وصيفتى الأثيرة عندى فى غير قلعة الجبل ، وقد رأيت أننا أخليناها لذلك الذى لا يقدر عليه أحد فى مصر ، ليسكنها مع زوجته !» .

فأدرك قطز أن الملكة تحرضه على قتل فارس الدين أقطاى ، وتعده بإنجاز ما وعدت إذا هو خلصها من شره ، فدار بخاطره أن الملكة ربما لم تماطله وعدها إلى ذلك العهد إلا لتندبه لمثل هذا العمل الخطير ، وتطلب منه أن يقدم إليها رأس أقطاى مهرا لجلنار ، وإنه لمهر كبير ولكن جلنار أثمن من ذلك ، وقد بدا من ظلم أقطاى وبغيه على الناس وفساد أصحابه فى البلاد ما يستحل به دمه ويتقرب إلى الله بقتله ، وكذلك قد رأى أستاذه الملك المعز لن يستقر له أمر ، ولن يثبت له ملك حتى يزول أقطاى من الوجود .

فأعلن قطز إلى الملكة وإلى أستاذه الملك المعز أنه كفيل بقتل أقطاى ، فاتفق الثلاثة على أن يدعى أقطاى لمقابلة المعز فى القلعة ، حتى إذا بلغ الدهليز برز له فقتله ، وأشار المعز على قطز أن يختار جماعة ممن يثق بهم من مماليك المعز وأشياعه ليساعدوه فى مهمته الخطيره ، فقال قطز : «إنى أكفيكه وحدى» .

قال المعز : « إنه شديد القوة كريه اللقاء ياقطز ، ونحن بعد بحاجة إليك ، ولئن أفلت من يدك ليكونن فيه هلاكنا» . وما زال بقطز حتى رضى أن يعاونه اثنان اختارهما من مماليك المعز وهما بهادر وسنجر الغتمى .

وكان قطز وبيبرس لا يزالان صديقين إلى ذلك العهد ، فكان أحدهما إذا أراد الخروج للصيد مع أصحابه دعا الآخر فخرج معهم ، واتفق يوما على أن عزم بيبرس على الخروج للصيد ، مع أصحابه فدعا قطز لمرافقته فى غد ذلك اليوم ، وعلم منه قطز أنه سيخرج مع جماعة كبيرة من أصحابه من كبار أشياع فارس الدين أقطاى ، فرأى قطز أن يغتنم فرصة غياب هؤلاء عن البلد لينفذ ما تعهد به من اغتيال أقطاى ، فأظهر لبيبرس الموافقة على اقتراحه ، ولكنه بعث إليه فى صباح اليوم التالى من اعتذر له عن عدم الخروج بانحراف مزاجه .

ولما تأكد قطز من خروج بيبرس وجماعته دخل على أستاذه فأخبره أن الفرصة قد سنحت .

فبعث الملك المعز إلى فارس الدين أقطاى يدعوه إليه ؛ ليستشيره فى أمر مهم ، وكان أقطاى قد اطمأن من جهته لما أظهره من موافقته ومصانعته ، ولما رأى من نزول شجرالدر عن قصرها بالقلعة ، فلم يصغ إلى مماليكه الذين نصحوه ألا يجيب دعوة الملك المعز ، وقال لهم : » إنى لا أنتظر فى أمر

كهذا حتى يرجع هؤلاء، ولكن هؤلاء يجب أن ينتظروا حتى أرجع».

وركب أقطاى غير مكترث بنصيحة مماليكه، فقالوا: لا نتركك وحدك وركبوا معه، فعندما دخل من باب القلعة وصار إلى قاعة العواميد أغلق باب القلعة ومنع مماليكه من العبور معه، فأحس بالشر ووضع يده على مقبض سيفه، ومنعه كبرياؤه عن النكوص فمضى فى طريقه، فلقيه قطز وصاحباه فى الدهليز، فلما رآهم قال لهم بلهجة الآمر: «اذهبوا فافتحوا الباب لمماليكى».

فقال قطز لصاحبيه: «اذهبا فافتحا لمماليكه، فمر الرجلان، من جانبه حتى صارا خلفه، فمضى به قطز قدما فى الدهليز فقال له: «أعطنى سيفك فلا ينبغى للملك أن يقابله أحد رعيته والسيف معه». فغضب أقطاى وصاح فى وجهه قابضا على سيفه: «أتجردنى من سيفى أيها المملوك القذر؟».

فبدره قطز فطعن جنبه بخنجره وهو يقول له: «بل أجردك من حياتك، وأطهر البلاد من رجسك».

فثار أقطاى وحمل على قطز بسيفه واضعا يده الأخرى على فم الطعنة فى جنبه، فسل قطز سيفه فلقيه به، وأراد الآخران ضرب أقطاى من خلفه فصاح بهما قطز: «دعاه يقتله المملوك القذر وحده لئلا يقول الناس قتله ثلاثة من مماليك المعز". فبقى قطز يواثبه، ويتقى ضرباته الهائلة يبغى بذلك أن تخور قواه للطعنة التى فى جنبه وأقطاى يصيح: "يا ملعون اثبت لى"، فيجيبه قطز: "يازوج الأميرة اثبت لنفسك"، حتى نزف أقطاى الدم ونهكته المواثبة، فخانته قدماه فوقع كالجمل البارك وما تكف يده عن الضرب بسيفه يمينا وشمالا، وقطز أمامه ينظر إليه، وهو يقول لقطز فى صوت كالحشرجة: «ادن منى يا صديق بيبرس، ادن منى».

وكانت الملكة شجر الدر تطل على المشهد من مقصورتها والملك المعز يشرف من ديوانه، فنادت الملكة بصوت يسمعه أقطاى: «يامغرور دع بنت الملوك تنفعك»، فلما سمع صوتها اجتهد أن يرفع طرفه ليراها فوقع على ظهره وهو يقول: «ياخائنة!» ولم يقل بعدها شيئًا.

ولما استبطأ مماليكه الذين على الباب خروجه، أيقنوا بأن المعز قبض على أستاذهم، فانطلقوا يذيعون خبره بين أصحابه، حتى بلغ بيبرس وجماعته وهم فى الصيد فرجعوا مسرعين، وجمعوا أتباعهم فركبوا إلى قلعة الجبل فى سبعمائه فارس يتقدمهم بيبرس فوقفوا تحت القلعة يطلبون تسليم زعيمهم، فما راعهم إلا رأس أقطاى قد رمى به المعز إليهم وناداهم قائلا: «انجوا بأنفسكم قبل أن ينالكم ما نال رئيسكم».

فأسقط فى أيدى القوم وأيقنوا أن المعز لم يجرؤ على ما فعل إلا وقد استعد لهم، فسرى فى قلوبهم الرعب فانطلقوا متفرقين وخرجوا فى الليل من القاهرة، فمنهم من قصد الملك المغيث بالكرك، ومنهم من سار إلى الملك الناصر بدمشق فيهم بيبرس، ومنهم من أقام ببلاد الغور والبلقاء والقدس

يقطع الطريق ويأكل بقائم سيفه ، وجعل بيبرس من ذلك اليوم يقول : « لقد فعلها صديقى فيَّ ، والله ليكونن من قتلاى» .



مناقشة الفصل الحادى عشر

١ . هل شكر السلطان الجديد توران شاه نعمة الله عليه؟ وضح ماتقول

٢ . كيف عامل السلطان زوجة أبيه شجرالدر وما مصيره؟

٣ . كيف عومل لويس التاسع؟

٤ . قوى نفوذ عز الدين أيبك فى الدولة وعظم شأنه . اشرح هذه العبارة وبين أسباب ذلك .

٥ . لماذا خلعت الملكة شجرالدر نفسها ونزلت عن العرش لعز الدين أيبك؟

٦ . رغب عز الدين فى الزواج من شجرالدر وحاول كثيرًا حتى ظفر بها بعد جهد وكان لقطز الفضل الأول فى هذا الأمر . وضح هذا الموضوع .

٧ . ما جواب الملكة شجرالدر لرسولى عز الدين وفارس الدين أقطاى؟

٨ . عزم أقطاى على أن يكيد للملك المعز . فماذا فعل؟

٩ . لماذا أسقط فى يد أقطاى؟

١٠ . كيف دبرت الملكة قتل أقطاى؟ وعلى يد من اغتيل؟



الفصل الثانى عشر

قبض الملك المعز فى صباح اليوم الثانى على من بقى من جماعة أقطاى من المماليك البحرية، فقتل رؤساءهم الذين يخشى منهم وحبس الباقين، واستراح الناس من بغيهم وفسادهم، وظلوا أياما يتذكرون حديث مصرع أقطاى بيد سيف الدين قطز، وأعجبوا بشجاعة قطز وبطولته، وعظم فى عيونهم، وأحبوه من ذلك الحين وعرف الملك المعز لمملوكه الشجاع الأمين فضله عليه وعلى ملكه، فزاد فى تقريبه وترقيته، حتى أعتقه وقلده أكبر منصب فى الدولة وهو منصب نائب السلطنة، فلم يزد قطز إلا إخلاصا له وتفانيا فى خدمته.

ولم تنس الملكة شجرالدر فضل هذا المملوك الشجاع عليها، فبرت له بوعدها وأنعمت عليه بجلنار، وكان الذى تولى عقد تزويجها له هو الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وكانت الملكة هى التى تولت بيدها إصلاحها وتزيينها، وزفتها بنفسها إلى نائب السلطنة سيف الدين قطز.

وأقيم العرس السعيد فى قلعة الجبل، وجلس الملك المعز لاستقبال وفود التهنئة بزواج مملوكه الوفى، كما جلست الملكة تستقبل وفود النساء المهنئات بزواج وصيفتها الجميلة.

وعاش الزوجان السعيدان حينا من الدهر فى قصر من قصور قلعة الجبل تحت رعاية سيديهما الزوجين السعيدين، ولكن الزمان الغادر كان أبخل من أن يبقى على قصرين هانئين فى تلك القلعة التى طالما تعاقبت فيها المآتم والأفراح، فما لبثت يده أن جالت فى حواشى القصر الكبير فتكدر صفوه ونضبت بشاشته ورحلت الطمأنينة عنه.

فإن المعز لم يكد يتخلص من أقطاى وجماعته ويأمن جانبهم وتستتب له الأمور ويدين له الجميع بالطاعة، حتى استثقل سلطة الملكة شجرالدر ونفوذها عليه وتشبثها بما تدعيه من حقها فى الاستئثار بالسلطان دونه، إذ ترفع من تشاء وتضع من تشاء، ويرى أمره مردودًا إلى أمرها وأمرها ليس له رد وكان قد انقطع زمنا عن زوجته القديمة أم ابنه على، فعاد إليها وجعل يفكر فى مستقبل ابنه وتوطيد الأمور له ليكون خلفه على عرش مصر، فاستوحشت شجرالدر منه، وغارت من ضرتها عليها كما غارت منه على سلطتها المهددة بالزوال.

وليست شجرالدر بمن يستنيم للحوادث، أو يترك حبل الأمور على غاربها حتى يضيع حق قلبها فى الاستئثار بزوجها وحق نفسها فى الاحتفاظ بسلطتها العتيدة، فعزمت على الكفاح دون هذين الحقين وعدم التفريط فى شيء منهما مهما يكلفها ذلك من المتاعب، فرسمت للدفاع عن كلا الحقين خطة تجرى عليها، فأما حقها الأول، فقد أمرت زوجها بالانقطاع عن زوجته الأخرى، ولكى تستوثق من ذلك ألزمته بطلاقها، وأما الحق الثانى، فكان أمره يسيرًا عليها إذ جعلت تدنى إليها من لا يميل

إلى الملك المعز من المماليك الصالحية ، وتقربهم وتوليهم المناصب ، وعمدت إلى خاصة رجاله ومماليكه وأشياعه فطفقت تقصيهم وتنزع منهم مقاليد الأمور ، وما زالت كذلك حتى تعاظم نفوذها واستبدت بأمور المملكة فكانت لا تطلع الملك المعز عليها .

أما الملك المعز فقد شق عليه ما فعلت شجرالدر ، ولم تطب نفسه بتطليق أم ولده الذى كان يسعى فى توريث الملك له ، فاشتدت الوحشة بينه وبين الملكة حتى خشيها على نفسه ، فنزل عن قلعة الجبل وأقام بمناظر اللوق حيث يبيت فيها مع زوجته أم على ، ولا يغشى قلعة الجبل إلا وجه النهار ليقوم فيها بشئون الملك ، وظلت الحرب بين الملك والملكة مستعرة من وراء الستار وكلاهما يفكر فى التخلص من الآخر ، ومن عجيب أمرهما أنهما اتفقا فى وسيلة واحدة ظناها ناجعة فى هذا السبيل ، وأخذاها عن عدوهما البطل الصريع فارس الدين أقطاى ، وهى أن يرفعا من قدرهما بالإصهار إلى ملك من ملوك البيت الأيوبى . أما شجرالدر فقد بعثت أحد أمناء سرها بهدية فاخرة إلى الملك الناصر صاحب دمشق ، وأرسلت معه كتابا تعرض فيه على الملك الناصر التزوج بها على أن تملكه مصر وتتكفّل بقتل الملك المعز فخشى الملك أن يكون هذا خديعة منها فلم يجبها بشيء ، وأما الملك المعز فإنه بعث يخطب أخت الملك المنصور ابن الملك المظفر صاحب حماة عروس عدوه أقطاى التى لم تزف إليه ، فلما لم تقبل الأميرة الحموية طلب قاتل خطيبها عاد فبعث إلى الملك الرحيم طلبه وكتب إليه يحذره من شجرالدر ويعلمه بأنها باطنت الملك الناصر .

وعلمت شجرالدر بما كان من خطبة المعز لابنة صاحب الموصل كما علم هو بما عرضت على الملك الناصر ، فتضاعفت الوحشة بينهما ، وكشر الشر عن أنيابه ، ولم يبق للوفاق بينهما سبيل ، واحتاطت شجرالدر فأمرت وصيفتها جلنار بأن تنقطع عن خدمتها فى القلعة ، فانتقلت مع زوجها الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة إلى قصر آخر خارج القلعة - وكان قطز قد حار فى هذه المسألة الدقيقة بين الملك والملكة ، فلأستاذه فضل عليه ولشجرالدر فضل على زوجته وعليه كذلك ، فظل زمنا يصرف أستاذه عن خطبة ابنة صاحب الموصل ويوصيه بأن يتريث فى الأمور ويعالجها بالحكمة والرفق ، حتى تخضع له شجرالدر ، أو يظفر بها إذا اقتضى الحال ذلك ، لكن أستاذه كان يحتج عليه بأنه لا يستطيع إجابة الملكة إلى ما سألت من تطليق أم ولده ، ولا يقدر أن يصبر على مجاهرتها بعداوته واستبدادها بالأمور دونه . فلا يسع قطز إلا السكوت ، غير أنه لما علم بمكاتبة شجرالدر للملك الناصر قوى عنده عذر أستاذه فشد أزره فى الباطن ، ولكنه بقى على ود الملكة فى الظاهر حفظا لسابق جميلها معه ومع زوجته .

وعلمت شجرالدر بعزم الملك المعز على إنزالها من القلعة إلى دار الوزارة ، وأنه جاد فى ذلك ، فعزمت على أن تسبقه بالكيد قبل أن يخرج الأمر من يدها فبعثت إليه من حلف له بأنها ندمت على ما كان منها فى حقه ، واشتاقت إلى مصالحته ، ونزلت عن إلزامها إياه بتطليق أم ولده ، وأنها ما فعلت ذلك إلا بدافع من حبه والغيرة عليه ، متكلة فى ذلك كله على ما لها من الدالة عنده ، وقد تبين لها

الآن أنها أسرفت فى العتاب عليه ، وذهبت فى عتابه إلى أبعد مما يقتضيه استرجاعه إليها .

فرق لها الملك المعز حتى بكى ، وغلبه الحنين إليها ، والشوق إلى سالف عهدها وكان حبها لا يزال حيا فى قلبه وإن رانت عليه المطامع وغشيته أهواء السياسة ، فما لبث أن انتعش لما سمع من استعتابها الرقيق ، وعز عليه ألا يعتبها بعد أن بعثت إليه تسترضيه وترجوه المصالحة ، فقال لرسولها إنه سيصالحها ويبيت عندها تلك الليلة .

وكانت شجرالدر قد أوصت رسولها ألا يخاطب الملك المعز فى حضرة مملوكه نائب السلطنة ، ولكن قطز علم بما جرى فنهى أستاذه عن المبيت فى القلعة ، وحذره من كيد الملكة ، وأكد له أنها تنوى به الشر فلم يجد من أستاذه أذنا مصغية .

ولما اشتد قطز فى نهيه احتد عليه المعز وقال له : «أرأيت لو نهيتك عن لقاء زوجتك جلنار كنت تدعها لقولى؟» ، فعرض عليه قطز أن يصحبه إلى القلعة ، فامتنع وقال له : « ياحبيبى لا تفعل ، كيف أصالحها وأسيء الظن بها؟» . فوجم قطز ، وقال فى نفسه : « ليقضى الله أمرًا كان مفعولاً» .

وقضى الأمر حقًّا وقتل الملك المعز فى الحمام ليلاً بأيدى جماعة من خدم شجرالدر ، وأشيع أن المعز مات فجأة فى الليل ، وصاح الصائح فى القلعة ، فانطلق مماليك المعز إلى الدور السلطانية وقبضوا على الخدم والحريم حتى أقروا بما جرى ، فقبضوا على شجرالدر واعتقلوها فى أحد أبراج القلعة ، ونُصِّب « نور الدين على » ابن الملك المعز أيبك سلطانا بقلعة الجبل ولقِّب بالملك المنصور وكان عمره خمس عشرة سنة ، وأقيم الأمير سيف الدين قطز نائب السلطنة على حاله ، وصار مدير دولة الملك الصغير ولما استقرت الأمور كان أول مافعله الملك المنصور أن أمر فحملت شجرالدر إلى أمه ، فأمرت جواريها فضربنها حتى ماتت وأسدل الستار على الملكة العظيمة المجاهدة شجرالدر ، صاحبة الملك الصالح أم خليل .



١ . ماذا فعل الملك بعد اغتيال أقطاى؟

٢ . كيف جوزى قطز على إخلاصه ووفائه وشجاعته؟

٣ . لم يبق للوفاق سبيل بين شجرالدر والملك المعز . بين ذلك .

٤ . كيف دبرت المؤامرات وتم اغتيال الملك المعز؟

٥ . ما مصير شجر الدر؟



الفصل الثالث عشر

لما قدم بيبرس وجماعته الغاضبون إلى دمشق أكرمهم الملك الناصر، وأغدق عليهم الأموال وخلع عليهم على قدر مراتبهم، وما استقر بهم المقام عنده حتى جعلوا يحرضونه على قتال المعز وانتزاع مصر من يده، فظل الناصر يدافعهم عن ذلك، لا يجيبهم إلى ما طلبوا ولا ييئسهم من إجابته، حتى تجدد الصلح الأول بينه وبين الملك المعز منصوصا فيه على ألا يؤوى الملك الناصر أحدًا من المماليك البحرية، فما كان منهم إلا أن غادروا دمشق ولحقوا بالملك المغيث في الكرك، فأقاموا عنده يحثّونه على غزو مصر، ويعرضون عليه مساعدته في ذلك، فتردد الملك المغيث برهة حتى بلغه موت الملك المعز، فتشجع وسير عسكره مع بيبرس فى ستمائة فارس، فجهز الأمير سيف الدين قطز عسكرًا لقتالهم، فالتقى الجمعان بالصالحية فانكسر عسكر المغيث وانهزم بيبرس إلى الكرك.

شق على بيبرس أن يغلب فى هذه المعركة، وكان قد مَنَّى نفسه بالتقدم إلى مصر وأخذها من يد المعز، والانتقام لرئيسه أقطاى منه ومن أصحابه ولاسيما صديقه قطز الذى أقسم هو ليقتلنه بيده، ولما رجع من هزيمته إلى الملك المغيث بالكرك آنس منه وحشة؛ لأن المغيث اعتقد أنه غدر به وبعسكره إذ حرضه على غزو مصر، فرأى بيبرس أن يعود إلى الملك الناصر لعله يجد عنده من العزم على غزو مصر فى هذه المرة بعد مقتل المعز مالم يجد عنده من قبل، فبعث إلى الناصر يستأمنه ويستحلفه، فأمنه الناصر وحلف له، فرجع بيبرس إليه، وعاد الناصر إلى بره وإكرامه.

وكان خطر التتارفى ذلك الحين قد عاد يتهدد بلاد الإسلام بأشد مما كان فى أيام جنكيز خان، فقد انحدر منهم جيش كبير بقيادة طاغيتهم الجديد هولاكو فعصفوا بالدولة الإسماعيلية فى فارس، ثم زحفوا على بغداد فقتلوا الخليفة أشنع قتلة، ثم مضوا يسفكون الدماء وينتهكون الأعراض وينهبون الدور ويخربون الجوامع والمساجد، وعمدوا إلى ما فيها من خزائن الكتب العظيمة فألقوها فى نهر دجلة، حتى جعلوا منها جسرًا مرت عليه خيولهم واستمروا على ذلك أربعين يوما، وأمر هولاكو بِعَدّ القتلى بعد ذلك فبلغت عدتهم زهاء مليونى نفس.

سرت أنباء هذه الفاجعة التى حلت بعاصمة المسلمين الكبرى. فاهتز لها العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه، وامتحن الله بها قلوب ملوكه وأمرائه ليعلم من يثبت منهم على دينه فينتدب لجهاد أولئك البغاة المشركين، ومن يرتد منهم على عقبيه جزعًا من الموت وخوفا على ما فى يده من زينة العاجلة ومتاع الحياة الغرور، فيوالى أولئك البغاة ويمالئهم على دينه وأمته ووطنه، فهذا الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل قد خشى التتار فأعانهم على إخوانه المسلمين المجاهدين بأربل. وهذا الملك الناصر صاحب دمشق، سليل هازم الصليبيين وسميُّه، قد أنفذ ابنه الملك العزيز بهدايا إلى طاغية التتار ليسأله فى نجدة يأخذ بها مصر من المماليك.

ولكن فى مصر ـ مصر التى حمت الإسلام يوم فارسكور، وهزمت الصليبيين، وسجنت لويس التاسع فى دار ابن لقمان وردته إلى بلاده بخفى حنين ـ رجلا كأنما أعده جبار السماء للقاء جبار الأرض ! ومن أصلح لجهاد التتار من زوج جلنار الذى كان كل همه فى الحياة أن يعيش حتى ينتقم منهم لأسرتهما المجيدة ـ وهذا حظ نفسه ـ وحتى ينتصف منهم للإسلام ـ وهذا حظ دينه وملته؟

فلم يكد نائب السلطنة المصرية يسمع بما حلَّ ببغداد من نكبة التتار، وبتحفز هولاكو للانقضاض على سائر بلاد الإسلام ، حتى ثارت شجونه ، وتمثلت له ذكريات خاله جلال الدين وجده خوارزم شاه، وما كان من جهادهما لهم فى عهد طاغيتهم الأكبر جنكيز خان ، وكيف انتهى ملكهما على أيديهم وتشتت شمل أسرتهما فصاروا فى الناس أحاديث ، وأيقن أن دوره العظيم قد جاء لينتصف حفيد خوارزم شاه من حفيد جنكيز خان ، وأن رؤيا النبى ﷺ قد بدأت تتحقق ، أليس هو اليوم حاكم مصر، ومدبر دولتها، ومصرف أمورها وليس لسلطانها الصغير إلا الاسم؟

وقد سرى الخوف من التتار إلى مصر لكثرة اللاجئين إليها من العراق وديار بكر ومشارف الشام . وأخذ هؤلاء يحدثون الناس بفظائع التتار وأفاعيلهم المنكرة، من أشياء تقشعر لها الأبدان، وتنخلع القلوب جزعا وهلعا، فما يشك الناس بمصر فى أن التتار آتون إليهم لا محالة، وأن دورهم سيحين يوما ما، وقد شاع فيهم اعتقاد قوى بأن التتار قوم لا يغلبون، ولا يقاوم لهم جيش، ولا تتقى منهم حصون، فانتشر بينهم الذعر، وعزم فريق منهم على الرحيل عن مصر إلى الحجاز أو اليمن . وعرضوا أملاكهم ليبيعوها بأبخس الأثمان، فكان على نائب السلطنة أن يبذل جهودا عظيمة لطمأنة الناس وتسكين خواطرهم، وإفهامهم أن التتار ليسوا إلا بشرًا مثلهم، بل هم بما أعزهم الله به من الإسلام أقوى من أولئك الوثنيين، وأجدر أن يثبتوا لليأس ، وأن يبيعوا نفوسهم غالية فى سبيل الله ودينه . وكان الأمير سيف الدين قطز فى خلال ذلك يختلف سرًا إلى بيت شيخ الإسلام ابن عبد السلام ويستشيره فى أمور كثيرة، فإذا سأله الشيخ عما أنجز من الأعمال استعدادًا لقتال التتار، شكا إليه قطز ما يلقاه من المصاعب، لمكان الملك الصبى ، والتفاف بطانة السوء حوله وحول أمه ، يفسدون ما بينه وبين قطز فيتصدى لخلافه فيما يرى القيام به لازما فى هذا الموقف . وكان الملك المنصور قد كثرت مفاسده وشغل عن شئون الملك باللعب، وتحكمت أمه ، فاضطربت الأمور وكرههما الناس . فأخذ ابن عبد السلام من ذلك الحين يشجع قطز على خلع الملك والاستقلال بالسلطنة دونه ، بل جعل يوجب ذلك عليه إذ ليس فى البلاد أصلح منه لجمع كلمة المسلمين، حتى يتأهبوا لدفع غائلة التتار عن بلادهم .

وقد كان عزيزًا على قطز المعزى أن يخلع ابن المعز أستاذه وولى نعمته، وتردد طويلا فى ذلك ، وود لو استطاع أن يمضى فى عمله مع بقاء المنصور فى السلطنة ، ولكنه رأى استحالة ذلك فى مثل هذا الموقف العصيب الذى يحتاج إلى اجتماع الكلمة وسرعة البت فى الأمور . فكان عليه أن يختار بين الوفاء لأستاذه الذاهب، والوفاء لمصر الباقية . وفى الأول تعريض سلامة مصر وسلامة سلطانها

نفسه لخطر التتار، وفى الثانى الرجاء فى حمايتها وحماية سائر بلاد الإسلام من هذا الخطر الداهم، فصح عزمه على خلع المنصور.

واتفق إذ ذاك أن بعث الملك الناصر صاحب دمشق رسولا إلى سلطان مصر الملك المنصور يستنجد بجيش مصر لصد التتار عن بلاده، بعد أن يئس من إجابة هولاكو طلبه، إذ كتب إليه هولاكو يأمره بالخضوع له وتسليم البلاد إليه، فاغتنم قطز هذه الفرصة، وعقد مجلسا بقلعة الجبل عند الملك المنصور، دعا إليه الوزراء والأمراء والعلماء والقضاة وأهل الحل والعقد، وحضره سفير الملك الناصر، فتذاكروا أمر التتار وما أوجب الله على المسلمين من جهادهم، ودفع شرهم عن البلاد، وحفظ بيضة الإسلام منهم، فشعر الحاضرون شعورًا واضحًا بضعف السلطان، وعدم صلاحيته للحكم فى مثل هذه الظروف الحرجة، وأن لابد من سلطان قوى حازم يضطلع بهذا الأمر الكبير، حتى لا يختلف الناس وتذهب ريحهم.

وكان الشيخ ابن عبد السلام فيمن حضر ذلك المجلس من العلماء، فجهر بهذا الرأى فى غير تعريض، واقترح أن يلى الحكم الأمير سيف الدين قطز لصلاحه وقوته، حتى تتفق كلمة المسلمين، فدهش أهل المجلس من شجاعة الشيخ ابن عبد السلام وصراحته، وأشفق عليه أصحابه ومحبوه أن يصيبه سوء من قبل السلطان والأمراء الذين يعز عليهم أن يخضعوا لقطز، ويستأثر دونهم بالسلطة، وحصل اضطراب فى المجلس، وجهر الأمراء المماليك المعزية منهم والصالحية برفض الاقتراح، وعدوه افتئاتا على حق الملك المنصور، وكان أشدَّهم فى ذلك الأميران علم الدين سنجر العتمى وسيف الدين بهادر وغيرهما من مماليك المعز، وكاد يحصل ما لا يحمد فى المجلس، فمنهم من يميل إلى الأمير قطز وهم سواد الناس، ومنهم من يميل إلى الملك المنصور وجلهم من الأمراء وأتباعهم، وخشى الأمير قطز على الشيخ ابن عبد السلام أن يجنى عليه الأمراء، فرتب رجالا أشداء لحراسته حتى أبلغوه مأمنه، وظلوا بعد ذلك يحرسونه أينما ذهب.

وانتهز الأمير قطز فرصة خروج كبار الأمراء ذات يوم للصيد، فقبض على المنصور وأخيه فاقان وأمهما واعتقلهم فى برج قلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطانا على مصر، وجلس على سرير الملك وتلقب بالملك المظفر.

ولما رجع الأمراء من الصيد وبلغهم ما فعله نائب السلطنة ركبوا إلى قلعة الجبل وأنكروا ما كان من قبض قطز على المنصور وتوثبه على الملك، فاستقبلهم السلطان الجديد استقبالا حسنا وألان لهم الحديث، واعتذر لهم بحركة التتار إلى جهة الشام فمصر، والتخوف مع هذا من الناصر صاحب دمشق أن ينضم إلى التتار ويستنجد بهم للإغارة على مصر، وقال لهم: «إنى ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار ولا يتأتى ذلك بغير ملك قادر، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا فى السلطنة من شئتم، وإذا كان فيكم من يرى نفسه أقوى منى على الاضطلاع بهذا الأمر فليتقدم

إلىّ لأحله محلى فيعفينى من هذه التبعة العظيمة ، ويتحمل مسئولية حفظ بلاد الإسلام أمام الله» .

فسكت الأمراء جميعا ونظر بعضهم إلى بعض ثم انصرفوا .

وورد الخبر إلى مصر بأن الملك الناصر لما استبطأ جواب سلطان مصر أخذ يفاوض التتار مرة أخرى ؛ ليساعدوه على غزو مصر . فشق هذا على الملك المظفر ودعا السفير الشامى فقال له : "أما يستحيي صاحبك أن يستنجد بنا على عدو الإسلام ، ثم يستنجد به علينا ؟ إذا لم يكن عنده إسلام فلتكن عنده مروءة !» .

فجعل السفير يهدئ من غضب الملك المظفر ويقول له : « لعله استبطأ جوابكم فخشى أن تكونوا ضده» ، فقال له الملك المظفر وهو يتميز من الغيظ : « فهب أننا كنا ضده لما بيننا من سالف الخلاف والتنافس ، أيرضى لنفسه ولدينه أن يتطوع لأعدائه وأعدائنا وأعداء الإسلام فيعينهم علينا ، ويمهد لهم السبيل للإغارة على بلادنا والقضاء على ما بقى فيها من دين وإيمان؟ والله لئن لم يكف عن خيانته للدين لأسيرن إليه فأحطمنه قبل التتار !» .

أما بيبرس فقد كان فى غزة ، لما بلغه قبض خصمه الأمير قطز على الملك المنصور ، وإعلان نفسه سلطانًا على مصر ، ففكر فى مصالحة عدوه وصديقه القديم ، فبعث إليه يعترف له بالسلطنة ، ويعظم شأنه ويصف له ما يكابده هو من ذل الغربة وعذاب التشرد ، ويتوسل إليه بحق الصداقة القديمة أن يقبل عثرته ويقبل خدمته ، ويأذن له بالرجوع إلى مصر ؛ ليشد أزره فى عزمه على قتال التتار .

فلما قرأ الملك المظفر كتابه ، أدركته الرأفة فبكى وقال : « الحمد لله قد عاد صديقى القديم إلى» ، وكتب إليه جوابا رقيقا يسأله القدوم عليه ويعده بالوعود الجميلة .

ففارق بيبرس غزة ، وسار فى جماعة من أصحابه عائدًا إلى مصر فلما قارب القاهرة ركب الملك المظفر للقائه ، فعانقه واستقبله استقبالا حسنا ، وأنزله بدار الوزارة وأقطعه قصبة قليوب وأعمالها . وأخذ الملك المظفر بعد ذلك يقربه إليه ويستشيره فى أموره ، ويبالغ فى إكرامه ومجاملته خشية من نزواته ، ولم ينس ما يضمره له كبير أتباع أقطاى من الخصومة والحقد ، فاجتهد أن يستل سخيمته من صدره ، ليتخذه عضدًا له فى جهاد أعداء الإسلام ، لما يتصف به بيبرس من الشجاعة والبأس ، وكثيرا ما نصحه بعض بطانته بالقبض على بيبرس حتى يأمن جانبه فلا ينقض عليه فى وقت الخطر ، فكان يعرض عنهم ويقول لهم : «دعونى وصديقى بيبرس ، ليس لى أن أحرم المصريين فضل بأسه وشجاعته» .

وكان بيبرس فى بدء إقامته بمصر يظهر الإخلاص للملك المظفر والاستعداد لخدمته ومناصرته ، ولكنه سرعان ما نسى جميل المظفر وإحسانه إليه ، وعندما كثر اجتماعه بزملائه من المماليك الصالحية الذين رأوا الأمر قد خرج من أيديهم منذ مقتل أقطاى ، وغلبهم عليه المماليك المعزية ، فأوغروا صدره

على الملك المظفر وحسنوا له الانتقاض عليه لاسترجاع سالف سلطانهم، وذكروه بثأر رئيسهم فارس الدين أقطاى، فصادف هذا هوى فى نفس بيبرس، ولكنه أوصاهم بالكتمان، وإرجاء الأمر إلى الحين المناسب، ريثما يدبرون مكيدة للقبض على الملك المظفر وحلول بيبرس محله.

وكان الملك المظفر إذ ذاك يفكر فى تدبير المال اللازم لتقوية الجيش المصرى، وتكثير عدده، وتجهيزه بالأسلحة والعدد وآلات القتال، وجمع الذخائر والأقوات والأرزاق الكافية لإعاشته وتموينه - إذ ليس ببيت المال ما يكفى للقيام بهذا الأمر العظيم - فخطر بباله أن يفرض ضريبة على الأمة وأملاكها لجمع المال اللازم، فعقد مجلسا حضره العلماء والقضاة والأمراء والوزراء والأعيان، وفى مقدمتهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فاستفتى الملك المظفر العلماء فى جواز فرض الأموال على العامة لإنفاقها على الجيش، فتهيب العلماء فى الإفتاء، وخافوا إن هم أفتوا بالجواز أن يغضبوا العامة عليهم، وإن أفتوا بالمنع أن يبوءوا بغضب السلطان، فظلوا يتدافعون الإفتاء حتى صدع ابن عبد السلام بفتياه العظيمة، فسكت العلماء وانفض المجلس على ذلك.

وكانت الفتيا صريحة فى وجوب أخذ أموال الأمراء وأملاكهم حتى يساووا العامة فى ملابسهم ونفقاتهم، فحينئذ يجوز الأخذ من أموال العامة، أما قبل ذلك فلا يجوز. فحار الملك المظفر فى الأمر؛ لأنه إن سهل عليه الأخذ من أموال العامة فليس من اليسير عليه أن يأخذ من أموال الأمراء دون أن يحدث ذلك شغبا فيهم قد يوقد فى البلاد فتنة يصعب إطفاء نارها. فبعث إلى الشيخ ابن عبد السلام، وشرح له صعوبة الأخذ من أموال الأمراء، وتلطف معه ليفتيه بجواز الأخذ من أموال العامة إذ صعب الأخذ من أموال الأمراء، فلم يرض ابن عبد السلام وقال له: «لا أرجع فى فتواى لرأى ملك أو سلطان، وذكره بالله وبالعهد الذى قطعه على نفسه أن يقوم بالعدل وينظر لمصلحة المسلمين، وأغلظ له فى ذلك حتى لم يشك الحاضرون فى أن السلطان سيقبض عليه، فما كان من الملك المظفر إلا أن اغرورقت عيناه بالدموع، وقام إلى الشيخ فقبله على رأسه قائلا: «بارك الله لنا ولمصر فيك، إن الإسلام ليفتخر بعالم مثلك، لا يخاف فى الحق لومة لائم».

وبعث الملك المظفر إلى الأمير بيبرس فاستشاره فى هذا الأمر الخطير، فخوفه بيبرس فى أول الأمر من عاقبة الأخذ من أموال الأمراء، وأكد له أنهم سينقضون عليه ولا يطيعونه، وكان غرضه بذلك أن يحمل الملك المظفر على نقض ما أفتى به ابن عبد السلام، ليغضب هذا العالم لدينه فيثير الناس على المظفر، ولكنه لما بلغه أن المظفر رضى عن الشيخ تشدده فى التمسك بفتياه، وأثنى عليه لذلك، رجع بيبرس إلى المظفر وقال له: «قد رجعت عن رأيى الأول وأرى الآن أن تمضى ما أفتى به الشيخ ابن عبد السلام، وسأكون أول من ينزل عن أملاكه لبيت المال»، وكان بيبرس يريد بهذا أن يثور الأمراء على الملك المظفر، ويخلعوه ويولوا بيبرس مكانه، وقد اجتمع بهم سرًا وحرضهم على ذلك، وأنذرهم بأن قطزًا سيجردهم من أملاكهم وأموالهم ويساويهم بالعامة، وأن فى ذلك إخلالا بشرفهم وإسقاطًا لحقوقهم ولن تقوم لهم بعد ذلك قائمة.

وأخذ أولئك الأمراء يستعدون لذلك اليوم الذى يفاتحهم فيه المظفر بالنزول عن ممتلكاتهم لبيت المال، وتشاوروا طويلاً فيما يقابلونه به عندما يحاول التنفيذ، وكانوا موقنين بأنه سيأخذهم بالشدة، فتهيئوا لمقابلتها بمثلها ولو أفضى بهم ذلك إلى قتله.

وانتهى شيء من خبرهم إلى الملك المظفر فدعا الأمير بيبرس إليه وخلا به وقال له: «اتق الله يابيبرس فى دينك ووطنك، إننا لسنا فى وقت يكون لنا فيه أن نتنافس على الملك، فأمامنا تبعات جسام نحوالأمة والملة. وقد ترى كيف يغير هؤلاء التتار المتوحشون على أطراف الشام وهم قادمون إلينا، فإذا لم ننهض لصدهم فسيكون مصيرنا مصير بغداد، وقد تعين علينا الجهاد فى سبيل الله، فلنمض له ولنجمع عليه، ولا تفرقنا المطامع والأهواء ولا الإحن والعداوات».

فحاول بيبرس أن يتنصل مما عزى إليه، فبدره السلطان قائلا: «لا تنكر ذلك بالقول يابيبرس، ولكن أنكره بفعلك، واعلم أنى لو أردت قتلك لما أعجزنى ذلك، ولكنى أضن برجل مثلك أن يقتل فى غير سبيل الله، وأريد أن أستبقيك ليوم مع أعدائنا مشهود، تكون لك فيه البطولة والفضل».

قال بيبرس وقد ظهر الغضب فى وجهه: «أتهددنى ياسيف الدين؟ فوالله إنى لأقوى منك ناصرًا وأكثر جندًا».

فلم يكد نائب السلطنة المصرية يسمع بما حلَّ ببغداد من نكبة التتار، وبتحفز هولاكو للانقضاض على قال السلطان: «وإنى والله لا أهاب عددك، ولا أخشى ناصرك، ولو امتلأ الوادى بشيعتك من منبعه إلى مصبه لرجوت الله أن ينصرنى عليك ويكفينى شرك لو أفردت وحدى، فإن حسبى الله، به حولى وقوتى، وهو نعم الوكيل!».

فأطرق بيبرس مليا، فمضى السلطان يقول: «إنك جئت إليّ، وقد تقاذفتك بلاد الله الواسعة، فضاقت عليك بما رحبت، تستقيلنى فأقلتك وقبلت عذرك وأدنيتك من مجلسى واتخذتك صفيا لى لا أقطع أمرا دونك، وأقطعتك من مال البلاد لتقوم بخدمتها، فقل ماذا تنقم منى فأنصفك من نفسى؟».

فرفع بيبرس رأسه وقال، وقد سكت عنه الغضب: «إنى ما أنقم منك إلا سوء ظنك بى».

- «إنك أنت الذى أفسدت رأيى فيك، وإنى لمستعد لأعود لحسن ظنى بك إذا قمت بواجبك نحو دينك وأمتك».

- ماذا تريد منى أن أصنع لترجع عن سوء رأيك فى؟

- ابسط يدك فعاهدنى أن تكون معى على هؤلاء المؤتمرين من شيعتك، الذين طالما شبعوا من أموال الأمة، ثم بخلوا عليها بالقليل حين تعرضت سلامتها للخطر.

- أعاهدك بشرفى ودينى أننى أقاتل معك أعداء الإسلام التتار حتى تنتصر عليهم أو أقتل دونك،

أما الأمراء الذين ذكرت فشأنك وشأنهم لا أعينك عليهم ولا أعينهم عليك .

فمد السلطان يده فصافحه قائلاً : «حسبى هذا منك أن تقاتل معى التتار وأن تكون بصدد الأمراء كفافا ، لا علىَّ ولا لىَ» . وحلفه على ذلك فحلف له بيبرس .

ولم ينم الملك المظفر ليلته تلك ، فقد قضاها ساهرًا يفكر فى طريقة يحمل بها الأمراء على تسليم ما عندهم من ذهب وفضة . وفى الصباح دعا وزيره يعقوب بن الرفيع وتشاور معه طويلاً ، ثم اتفقا على أمر نوى التصميم عليه .

ودعا الأمراء المماليك إلى مجلس القلعة ، فلما حضروا جميعا دخل عليهم المظفر فقاموا له وحياهم جميعًا ، ثم بسط لهم القضية التى دعاهم من أجلها وكان مما قاله لهم : » إن الأمراء هم جنود الدولة ، جاءوا إلى هذه البلاد من أسواق الرقيق لا يملكون شيئًا ، فغنوا من أموال الأمة ، وامتلأت خزائنهم بالذهب والفضة حتى إن فيهم لمن يجهز بناته بالجواهر واللآلئ ، ويتخذ الإناء الذى يستنجى به فى الخلاء من فضة ، ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر ، كل ذلك والأمة صابرة عليهم راضية بهم ؛ لأنهم يقومون لها بمهمة الدفاع عن بلادهم ، وتوفير أسباب الأمن لها . وها هو ذا العدو على الأبواب قد أقبل يريد القضاء عليها وعلى دينها وشرفها وعرضها ومالها ، وليس فى بيت المال ما يكفى لتجهيز الجيش اللازم لرد العدو ، فكان علينا أن نأخذ من أموال الأمة لبيت المال إذ لا سبيل لنا غير ذلك ، ولكن الشرع الشريف أفتانا بأنه لا يجوز لنا ذلك حتى ننزل نحن - معشر الأمراء - عما احتجبناه من أموال الأمة ، ونرد لبيت المال ما كنزنا من ذهب وفضة وجواهر وغيرها مما يفضل عن حاجتنا ، فإذا أحصينا ذلك ولم يكف كان لنا حينئذ أن نأخذ من أموال العامة ، وإنى ما دعوتكم الآن إلا لتساعدونى على تنفيذ حكم الشرع فىَّ وفيكم ثم فى الأمة حتى نبرأ إلى الله من مظالمنا ونخرج للجهاد فى سبيله وقد رضى عنا ورضينا عنه ، فينصرنا على عدونا ويثبت أقدامنا يوم اللقاء» .

كان الأمراء قد عرفوا ما دعاهم الملك المظفر من أجله قبل حضورهم فعزموا على بيبرس أن يتولى عنهم محاجة السلطان ، ولكن بيبرس اعتذر لهم بضعف حجته وعدم طلاقة لسانه وقال لهم : »إن الملك المظفر قوى البيان فاختاروا منكم رجلا أقوى منى بمحاجته وإنى لا أخالفكم فى أمر تجتمعون عليه» . فقبلوا عذره واختاروا غيره ليتولى عنهم الكلام .

فلما انتهى الملك المظفر من حديثه انتدب له لسان القوم فقال له : « أتريد أن تجردنا من أموالنا ياخوند؟» .

قال السلطان» ״ كلا . . بل أريد أن تتجردوا عما يفيض عن حاجتكم مما أخذتموه من مال الأمة» .

- « أردت أن تقول إن أموالنا ليست لنا؟» .

- نعم ليست لكم وإنما هى للأمة ، وإلا فأخبرونى من أين جاءتكم . . ؟ فهل ورثتموها عن آبائكم

أو كسبتموها بالتجارة أو أى طريق من طرق الكسب المشروعة؟

ـ حرام عليك ياخوند أن تتركنا نموت جوعا؛ لتعيش أنت وحدك سلطانا على مصر ويخلو لك الجو.

ـ إنكم لن تموتوا جوعا، فأنتم جنود الأمة وعليها إعاشتكم من صلب مالها، وها هو ذا سلطانها بينكم ـ يشير إلى نفسه ـ يتعهد لكم بإعاشتكم وإعاشة أبنائكم وأهليكم بما يكفل شرفكم ويصون حرماتكم، يقتطع ذلك لكم بالمعروف من بيت مال الأمة، وسأكون أول من ينزل لبيت المال عما يملك من ذهب وفضة، وهذه حلى سلطانتكم ـ وأشار إلى صندوق كان قد وضعه قدامه ـ قد نزلت عنها لبيت مال الأمة، وأقسم لك بالله أنى لن آخذ من مال البلاد إلا ما يكفينى، ولن يزيد نصيبى على نصيب أى فرد منكم، أما قولك ياهذا إننى أريد أن يخلو لى الجو فأنتم والله عدتى وقوتى، وكيف يعيش السلطان بغير عدة وقوة؟

فانقطع متكلم القوم ولم يحر جوابا، فنظروا له مغضبين، وصاحوا به: «تكلم! انطق!» فقال لهم: «والله لا أدرى ماذا أقول له، لقد أوقعنى بيبرس فى هذه الورطة وخلص هو منها سالما». ونظروا يتلمسون بيبرس فلم يجدوه بينهم فقالوا للسلطان: «أمهلنا حتى نرى رأينا فيما ذكرت». فأجابهم السلطان: »لا أمهلكم أكثر من هذا اليوم فتشاوروا فيما بينكم الآن إن شئتم، ولن تخرجوا من هنا إلا على شيء».

وكان بيبرس قد سبقهم إلى القلعة، واتفق مع الملك المظفر أن يجلس وراء الباب الذى دخل منه السلطان بحيث يسمع حديثهم. وعليه جماعة من حرس السلطان، فلما قال القوم: »نريد بيبرس لنرى رأيه». قال لهم السلطان: «إن الأمير بيبرس قد اتفق معى على ما أردت، وحلف لى بذلك، وهو الآن موجود خلف هذا الباب يسمع حديثكم».

فصاحوا جميعًا: «لقد باعنا بيبرس». وطلبوا دخوله إليهم، فناداه السلطان، فدخل بيبرس القاعة فرمقوه بعيون محمرة وصاحوا به: «بعتنا للسلطان يابيبرس!»، فأجابهم بيبرس قائلاً: «كلا والله ما بعتكم للسلطان، وإنى غير مسئول عنكم تعرفون شأنكم معه، وإنما عاهدت السلطان أن أقاتل معه التتار، وتعهدت له بأننى لا أعينكم عليه ولا أعينه عليكم، وهذا التعهد لا يربط غيرى، أما أنتم فأحرار تفعلون ما شئتم!».

فصاح القوم جميعا: «لا نطيع السلطان، ولا ننزل له عن أموالنا وأملاكنا». ونظروا إلى أبواب قاعة العواميد فوجدوها قد غلقت عليهم فاستقروا فى مجالسهم. وعند ذلك نهض السلطان من مجلسه وقال لهم: » سأمهلكم ساعة تتراجعون فيها وحدكم لتتنزلوا عما عندكم من أموال الأمة راضين، قبل أن تنزلوا عنه صاغرين!». وأخذ بيد صديقه بيبرس فغادر به القاعة من الباب الخاص.

وكان الملك المظفر قد دبر فرقة من رجاله الأشداء الأمناء لكبس بيوت الأمراء المماليك وكسر خزائنهم وحمل ما فيها من الذهب والفضة والجواهر إلى بيت المال، وخصص كلا منهم لبيت من بيوتهم، وأمرهم أن ينتظروا إشارته بذلك، فلما مضت الساعة ولم يتفقوا على شيء أشار إلى رجاله فانطلقوا ينفذون تدبيره.

وما راعهم إلا السلطان قد دخل إليهم يقول لهم: «انصرفوا إلى بيوتكم فقد نفذ الله فيكم ما أراد سبحانه». ونظروا فإذا أحد أبواب القاعة قد فتح، فجعلوا يخرجون منه واجمين، وإذا عصبة من رجال السلطان قد وقفوا خارج الباب فقبضوا على رؤساء القوم وتركوا الباقين.

وأحصى ما جاء من عند الأمراء فوجد أنه لا يكفى لتقوية الجيش وتموينه، فعند ذلك أمر الملك المظفر بإحصاء الأموال وأخذ زكاتها من أربابها، وبأخذ كراء شهرين من الأملاك والعقارات المستأجرة، وبفرض دينار على رأس كل قادر من سكان القطر المصرى، فاجتمع من ذلك فى بيت المال نحو ستمائة ألف دينار.

ولما انتهى الملك المظفر من ذلك عهد إلى وزيره يعقوب بن عبد الرفيع وأتابكه أقطاى المستعرب أن يباشروا تقوية الجيش المصرى بالأسلحة والعدد وآلات القتال، وتكثير عدده بتجنيد الشباب الأقوياء من أهل مصر واستقدام العربان والبدو وتجنيدهم وتفريق الأموال فيهم، وأمرهما بإنشاء المصانع الكبيرة لصنع الأسلحة والمجانيق وغيرها من العدد الحربية فى جميع أرجاء البلاد، وبشراء الجياد العربية العتيقة والبغال القوية والإبل الهجان.

وأوعز للشيخ عز الدين بن عبد السلام فأنشأ ديوانا كبيرًا للدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله، يضم إليه من يختارهم من خطباء الجوامع فيلقنهم ما ينبغى لهم أن يخطبوا الناس به على المنابر ليدعوهم إلى الجهاد ويبينوا لهم فضائله، ويفصلوا لهم ما أنزل التتار ببغداد وغيرها من الخراب والدمار، وما اقترفوه فيها من سفك الدماء ونهب الأموال وانتهاك الأعراض والحرمات وتهديم الجوامع والمساجد وقتل الأطفال الرضع والشيوخ والعجائز وبقر بطون الحوامل. ويبعث من ذلك الديوان الوعاظ يطوفون بالقرى يدعون أهلها إلى الجهاد. ويوقدون فى قلوبهم نار الحماسة لله والوطن. وكان الشيخ ابن عبد السلام لا يجيز أحدًا من هؤلاء الخطباء والوعاظ بالانطلاق لعملهم حتى يحفظ سورتى الأنفال والتوبة من القرآن عن ظهر قلب. فكان من جراء ذلك أن صارت المنابر والجوامع والأندية ومجالس القرى تعج بآيات القتال من القرآن حتى كاد الرجال والنساء والأطفال يستظهرونها حفظًا.

وكانت الأخبار ترد باطراد تقدم التتار فى بلاد الجزيرة، يقصدون الشام ومصر، كل ذلك والملك المظفر رابط الجأش ساكن الأعصاب لا يضيع من وقته لحظة فى غير الاستعداد. وفى خلال ذلك جاءت رسل التتار إلى مصر، وكانوا بضعة عشر رجلا يرأسهم خمسة من كبارهم، يحسنون اللسان العربى، ، وكان فيهم رجال مخصوصون للتجسس، ليعرفوا مداخل الحصون ومخارجها واستحكامات

المدينة والثغر الضعيفة فيها ، وقد جاءوا بكتاب من هولاكو إلى الملك المظفر ، فأمر باستقبالهم استقبالاً حسنا ، ورتب جماعة من جنده ليقوموا بشئونهم وحاجاتهم ويصحبوهم إلى كل موضع يحبون الذهاب إليه . وقد عجبوا لهذه الحرية التى أعطيت لهم إلا واحدًا من رؤسائهم الخمسة أمر الملك المظفر أول ماقدموا فعزل عن أصحابه ، واعتقل فى برج من أبراج القلعة ، فلم يسأل الباقون عنه لانهماكهم فى تعرف قوى الدفاع للدولة ، والاطلاع على حصون المدينة وأسوارها وأبوابها ، حتى إذا قضوا من ذلك ما أحبوا أمر بهم الملك المظفر فاعتقلوا فى برج آخر .

واستشار السلطان الأمراء فيما يجيب التتار به ، فأشار معظمهم أن يرسلوا إلى هولاكو جوابا لطيفا يتقون به شره ، ويخطبون به وده ويتفقون معه على مال يؤدونه إليه كل سنة لئلا يهجم على بلادهم فيهلك الحرث والنسل ، وقالوا إنه لا فائدة من مقاومة التتار ، وإن اللين معهم أنفع من الشدة ، فغضب الملك المظفر غضبًا شديدًا واحمر وجهه حتى كاد الدم ينبثق منه ثم قام إلى كبير الجماعة ، فاختطف منه سيفه فكسره على ركبته ثم ألقاه أمام صاحبه ، وهو يقول : «إن السيف الذى يجبن حامله عن القتال لخليق أن يكسر هكذا ويلقى فى وجه صاحبه» .

أمر بإحضار الرسل فأحضروا بين يديه ، فقال لرجاله : «اصنعوا بهم ما أمرتكم به فخرجوا بهم ، ونودى بإمرارهم فى الناس فخرج الرجال والنساء والصبيان لمشاهدتهم فى موكب عظيم ، وقد ركبوا على جمال شدوا إلى أقتابها بالحبال ووجوههم إلى أذيالها : ما عدا الرسول المفرد المعزول وحده ؛ فقد قيد وحمل على محفة ليشاهد ما يفعل بأصحابه ، وخرج الموكب بالطبول من القلعة ، وسارت جموع الناس حولهم يصيحون ويضحكون ويصفقون بأيديهم لهوا ومرحا ، حتى وصلوا سوق الخيل تحت قلعة الجبل فقتلوا أحد الرسل ، ولما بلغوا ظاهر باب زويلة قتلوا الثانى ، وقتلوا الثالث بظاهر باب النصر ، والرابع بالريدانية ، ثم أنزل الباقون فقتلوا دفعة واحدة ، وأمر السلطان فأقيم عصر ذلك اليوم استعراض عظيم للجيش المصرى فى ميدان الريدانية حيث نصب للملك سرادق فى مرتفع جلس فيه على كرسيه يحيط به كبار الأمراء والوزراء ، فأقبلت فرسان الجيش فرقة بعد فرقة يتقدمها أميرها حاملا لواءه وهم جميعًا شاكو السلاح ، فكلما مرت فرقة أشار أميرها بالتحية ، فقام الملك المظفر وأومأ بيده ردا على تحيته ، ثم مرت فرق المشاة وهم شاكو السلاح حتى غص بهم الميدان ، وأقبلت وراءهم فرقة المجانيق محمولة على عجلات تجرها البغال القوية ، ثم مرت فرق الهجانة وعليهم العمائم الصفراء ، ثم مر كبار الأمراء فامتطوا جيادهم وتباروا سبعة أشواط فى الميدان ، ولما انتهى الشوط السابع ترجلوا وقصدوا السرادق فصافحهم الملك وأجازهم .

ونهض الملك المظفر بعد ذلك ونزل من السرادق وامتطى جواده الأبيض تحرسه كوكبة من الفرسان ، وتحرك ركابه إلى قلعة الجبل يخترق الجماهير المحتشدة وهى تهتف له بالدعاء : «يعيش السلطان ! يديم الله أيامه ! يطول عمر المظفر !» ، حتى إذا ما حاذى السلطان باب القلعة ، أمر بالرسول التترى فأطلق

بين يديه وقال له : «أخبر مولاك اللعين بما شاهدته من بعض قوتنا ، وقل له إن رجال مصر ليسوا كمن شاهدهم من الرجال قبلنا .

ثم أمر وزيره يعقوب بن عبد الرفيع فسلم الرسول التترى جوابًا مختومًا لهولاكو ، وأمر جماعة من رجاله ليحرسوه ويوصلوه إلى الحدود ، وهكذا قطع الملك المظفر أمل أولئك الأمراء المشاغبين فى مسالمة هولاكو ووضعهم أمام الأمر الواقع .

لم يكتف المظفر بإعداد الجيش المصرى ، وإكمال عدده ومؤنه لملاقاة التتار ، بل رأى أن يقيم دونهم جبهة قوية من ملوك بلاد الشام وأمرائها ، وكان يعلم تخاذلهم وتواكلهم وتقاعسهم عن قتال التتار وميلهم إلى التسليم لهولاكو والخضوع له ، فكتب إلى كل واحد منهم رسالة يشرح لهم فيها أنه جاد فى العزم على قتال التتار وقد أعد للتتار جنودًا لا قبل لهم بها ، وهو مصمم على أن ينقذ بلاد الإسلام منهم ، ويطهرها من رجسهم ، وأنه يعتبر بلاد الشام حصون مصر الأمامية ، وأن وقوعها فى أيدى التتار يعرض سلامة مصر للخطر . ويؤكد لهم فيها أنه لا مطمع له فى ملك الشام وسيترك بلاد الشام لملوكها وأمرائها المسلمين . وإنما غايته أن يساعدهم على حفظها من السقوط فى أيدى الكفرة الفجرة ، ويقول فيها : إنه وإن اعترف أن بلاد الشام لملوكها إلا أنه لن يسمح لأحد منهم أن يستسلم للتتار ، بله أن يظاهرهم على إخوانهم المسلمين .

وإن مثله ومثلهم ومثل التتار كمثل من اشتعلت النار فى بيت جاره الأدنى فعليه أن يسعى لإطفائها وليس لجاره أن يقول له : لا شأن لك بدارى . ويصرح لهم فيها أنه سيعاقب من يمالئ الأعداء منهم بقتله وتوريث بلاده لمن هو أحق بها منه ممن قاتل التتار وملوك الشام ، وإنه إذا لم يستطع أحدهم الوقوف فى وجه العدو واضطر للنجاة بنفسه ، فعليه أن يلحق بالديار المصرية حيث يجد منها التكرمة والحفاوة حتى يحين الوقت لتحرك الجيوش المصرية فيقاتل معها عدو الجميع ، ومن لم يفعل ذلك وتأخر لغير عذر قاهر فإنه يفقد بلاده وملكه عندما يتم إجلاء التتار عنها بسيوف المصريين .

وما اكتفى السلطان كذلك بهذه الرسائل حتى سير إلى بلاد الشام جماعة من الشاميين المقيمين بمصر ليحدثوا أهل بلادهم بما أعده الملك المظفر من الجيوش الإسلامية العظيمة لرد غارات التتار وإجلائهم عن بلاد المسلمين .

ولما اشتدت هجمات التتار على بلاد الشام لحق بمصر كثير من ملوكها الذين آثروا الانضمام إلى الملك المظفر ، ليقاتلوا التتار معه ، فأكرم السلطان وفادتهم ، وجعلهم فى بطانته يستشيرهم فى كبار الأمور ويشركهم معه فى تبعات الجهاد فى سبيل الإسلام ، وأَمَّرَ كلا منهم على من قدم معه من مماليكه وجنوده إلى مصر ، وضم إليه عددًا من الجنود المصريين ، فكانوا تحت قيادته ، ولحق آخرون ممن كتب الله عليهم الذل فى الدنيا والخزى فى الآخرة بهولاكو ، حتى كان فيهم من أعانه ، وقاتل المسلمين معه .



١ . هل استجاب الملك الناصر لرغبة بيبرس؟

٢ . كيف التقى جيش بيبرس وجيش نائب السلطان قطز؟ ولمن كان النصر؟

٣ . لاح فى الأفق خطر التتار ، فأعانهم صاحب الموصل على المسلمين وأرسل لهم الملك الناصر صاحب دمشق الهدايا . فما موقف نائب السلطان قطز؟

٤ . كيف أصبح الأمير سيف الدين قطز حاكما؟

٥ . بماذا سيطر قطز على الموقف وجمع حوله المماليك؟

٦ . كيف اعترف بيبرس بسلطنة قطز؟ وهل سمح له قطز بالعودة إلى مصر؟

٧ . بأية طريقة دبرت الأمور لمساعدة الجيش؟

٨ . دب الخلاف بين بيبرس وقطز . بين كيف كان ذلك .

٩ . وكيف تعاهدا واتفقا؟

١٠ . أنشأ الشيخ ابن عبد السلام ديوانا كبيرا للدعوة إلى الجهاد في سبيل الله بإيعاز من الملك المظفر قطز . لماذا ؟

١١ . ماذا فعل الملك المظفر برسل هولاكو؟



الفصل الرابع عشر

قضى الملك المظفر عشرة أشهر من ملكه لم يعرف للراحة طعمًا ولم ينم إلا غرارًا، بل ملأ ساعاتها كلها بجهود تنوء بها العصبة أُولُو القوة. فقد كان عليه أن يوطد أركان عرشه، بين عواصف الفتن وزعازع المؤامرات، ويدبر ملكه، ويقضى على عناصر الفوضى والاضطراب، ويضرب على أيدى المفسدين والدساسين، ويقبض بيد قاهرة على أزمة السياسة الجامحة، ويعالج الأمراء المماليك، ويستعمل مع بعضهم اللين ومع آخرين الشدة، وكان عليه أن يقوى الجيش، ويضاعف عدده، وأسلحته وعتاده، ويجمع له المؤن والذخائر والأقوات، ويحصل لذلك كله الأموال الكافية، وكان عليه أن يسكن القلوب الوجلة من قدوم التتار، وينفخ فيها روح العزم على مقاومتهم على كثرة المخذلين من الأمراء، المعوقين عن قتالهم، الداعين إلى مسالمتهم والخضوع لهم، ولولا ما خصه الله به من قوة البنية، ومتانة الأعصاب، ومضاء العزيمة وصرامة الإرادة، وصدق الإيمان، والعقيدة القوية بأن الله قد هيأه وأعده للقيام بكسر التتار وطردهم من بلاد المسلمين، لما استطاع أن ينجز فى بضعة أشهر، ما يعجز غيره عن القيام ببعضه فى بضع سنوات، فقد خلق الجيش المصرى خلقًا جديدًا، ونفخ فيه روح الفداء والاستماتة فى الدفاع عن الدين والوطن، وأفاض عليه من شجاعته وحماسته، فإذا هو يتوقدحماسة للقتال، ويحن شوقا للجهاد فى سبيل الله، وقد استطاع أن ينزل السكينة والطمأنينة فى قلوب سواد الناس بعد أن كانت ترجف هلعا من ذكر التتار، وأن يبذر فيها الثقة واليقين بأن مصر ستفلح فى رد غارات التتار عنها، بل طردهم من بلاد الشام، كما أفلحت من قبل فى رد الصليبيين على أعقابهم.

وكانت زوجته وحبيبته السلطانة جلنار تشد أزره فى ذلك كله، وتشجعه على المضى فى هذه السبيل الوعرة. فكانت تسهر الليل معه، وتشاطره همومه وآلامه، وتسمح بيدها الرقيقة شكواه، كلما ضاق صدره بتخاذل الأمراء عن طاعته، ونيلهم منه فى مغيبه، ونفاقهم له فى مشهده، وإلقائهم العواثير فى طريقه. وكان ربما أنساه انهماكه فى عمله الدائب طعامه وشرابه فعنيت بتقديمهما بنفسها إليه، وإذا أنهكه السهر فى أعقاب الليل، قامت إليه، فأخذت بيده وقادته إلى فراشه، ليأخذ نصيبه من نومه وراحته. وكانت لا تفتأ تملأ قلبه بالفوز فيما ندب نفسه للقيام به، فيزداد يقينه ويتضاعف إيمانه، وكانت تقول له: «إنى سأخرج معك إلى ميدان القتال، لأرى مصارع الأعداء بعينى فيشفى بذلك صدرى»؛ فيقول لها: «أخشى عليك ياحبيبتى من سهامهم»، فتقول له: «لن أخشى على نفسى ما لا أخشاه عليك، ولكى تطمئن علىَّ سأكون وراء الجيش فى مأمن من سهامهم وكراتهم».

- أما تخافين أن يخلصوا إليك فى أثناء الكر والفر، فتقعى أسيرة فى أيديهم؟

ـ أنا ابنة جلال الدين لا يخلصون إلىّ وجوادى معى ينجو بى منهم ، أما تذكر يا محمود أيام كنا نتبارى على جوادينا ، فتسبقنى حينا وحينا أسبقك؟

فيضحك الملك المظفر ويعانقها قائلاً : « أجل أذكر ذلك ياجهاد ! كيف أنسى تلك الأيام السعيدة؟ » .

ورأى الملك المظفر عندما انسلخ الشهر العاشر من حكمه أن قد تكامل جيشه وأصبح كافيا بحول الله وقوته لملاقاة التتار . فأراد أن ينتظر بهم شهر رمضان ، حتى إذا انقضى تحرك بجيشه لقتالهم ، ولكن حركات التتار صوب الديار المصرية كانت أسرع من أن تدع له انتظار شهر رمضان حتى ينقضى . فقد وردت الأنباء بأن طلائعهم قد بلغت غزة وبلد الخليل ، فقتلوا الرجال ، وسبوا النساء والصبيان ، ونهبوا الأسواق ، وسلبوا الأموال ، وارتكبوا الفظائع كعادتهم ، فلم يسع السلطان إلا العزم على الإسراع لملاقاتهم والتعجيل بالخروج .

وكان شهر رمضان قد دخل ، وصام الناس بضعة أيام منه ، حينما نودى ، فى القاهرة وسائر مدن القطر المصرى وقراه ، بالخروج إلى الجهاد فى سبيل الله ونصرة دين رسول الله ﷺ . تردد هذا النداء العظيم فى جميع أرجاء القطر ، فخالط الناس شعور عجيب ، لم يعهدوا له مثيلا من قبل ، وأحسوا كأنهم خلق آخر غير ما كانوا وأنهم يعيشون فى عصر غير عصرهم ذاك ـ فى عهد من عهود الإسلام الأولى حين كان الصحابة رضوان الله عليهم يلبون دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام ، فينفرون خفافا وثقالا ، يجاهدون معه المشركين ، ويبتغون إحدى الحسنيين ، النصر أو الشهادة ، حتى يجعلوا كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا .

وطغى هذا الشعور على جميع طبقات العامة ، حتى كف الفسقة عن ارتكاب معاصيهم ، وامتنع المدمنون عن شرب الخمور ، وامتلأت المساجد بالمصلين ، ولم يبق للناس فى البيوت والأندية والمساجد والطرقات من حديث إلا حديث الجهاد !

وأمر الملك المظفر الأمراء والقواد بدعوة أجنادهم ، وإعدادهم للمسير إلى الصالحية وأن يضرب بالمقارع كل من وجد مختفيا منهم ، وتقدم هو بالمسير ، حتى نزل بالصالحية ينتظر تكامل الجنود ، فلما تكاملت طلب الأمراء ، وكان قد أنس ازورارًا من جانبهم ، وميلا إلى القعود والتخلف ، فتكلم معهم فى الرحيل للقاء العدو ، فأبى ذلك عليه جماعة كبيرة من الأمراء ، كانوا قد تعاقدوا على عصيان الملك المظفر واعتذروا له بأن الرأى هو أن يبقوا هنالك حتى تأتى جموع التتار فيصدوها عن البلاد ، فغضب الملك غضبًا شديدًا حتى انعقد لسانه ولم يستطع الكلام برهة من الزمن ، ثم انفجر يخاطبهم قائلا : » بئس الرأى الضعيف رأيكم ! أما والله ما حملكم على هذا إلا الجبن والهلع من سيوف التتار أن تقطع رقابكم هذه التى سمنت من أموال الأمة؟ ألم تعلموا يا أمراء السوء أنه ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا؟ يا أمراء المسلمين ! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال ، وأنتم للقتال كارهون ، وما

أشبه الليلة بالبارحة ! وما أشبهكم بأولئك المنافقين فى عهد رسول الله ﷺ ، إذ يقول الله فيهم : ﴿وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾ التوبة من ٤٦ : ٤٨ . و الله لأتوجهن بمن معى لقتال أعداء الله ، فمن اختار الجهاد منكم فليصحبنى ، ومن لم يشأ فليرجع إلى بيته غير مأسوف عليه ، فإن الله مطلع عليه ، وتبعة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين !

ولم يكد يتم كلامه حتى أشار على الأمراء الذين ثبتوا معه على رأيه بأن يعتزلوا ناحية ، وطلب منهم أن يبايعوه على المسير لجهاد التتار ، فبايعوه على ذلك حتى الموت ، فما وسع الباقين إلا الموافقة فأخذوا يتسللون واحدًا بعد واحد ، فيبايعونه على المسير حتى لم يبق منهم أحد إلا بايع .

وأمسى الليل والصالحية مدينة كبيرة من المضارب والخيام ، يتوسطها المخيم السلطانى . ولم تنقطع حركة الجمال والبغال تحمل المؤن والذخائر والأثقال ، فيتلقاها الرجال المكلفون بذلك . وأصدر الملك المظفر أوامره بأن يأخذ الجنود قسطهم من النوم والراحة ، ورتب طوائف كبيرة من الجنود ؛ ليسهروا على بعد من حدود الجيش ولا سيما فى الجهة الأمامية نحو الشام ، حتى لا تأتى طلائع العدو ، فتبيد المعسكر على غرة . ويقوم على المخيم السلطانى مجاز تحرسه فرقة من الحرس الملكى ولا يؤذن لجندى من غير الأمراء أن يمر فيه .

وكان مع الملك المظفر فى مخيمه الأمير بيبرس والوزير يعقوب بن عبد الرفيع والأتابك أقطاى المستعرب ، وعلى مقربة منه مضارب ملوك الشام اللاجئين . وكان السلطان يتشاور مع هؤلاء فى رسم الخطط للهجوم على العدو فكان يعرض الرأى فيناقشونه فيه ، فيستمع إلى اعتراضاتهم واقتراحاتهم بانتباه شديد فيرد على هذا برفق ، ويتلقى رأى هذا بالقبول والاستحسان ، ثم يستخلص من ذلك كله الرأى الذى يصمم عليه ، بعد ما أشعرهم جميعًا بأن الرأى رأيهم وليس رأيه وحده ، فلما انتهوا من ذلك عرض الملك المظفر على الأمير بيبرس أن يأخذ نصيبه من النوم ، وأشار على الآخرين بمثل ذلك وقال لهم : «إنكم ربما لا تذوقون النوم غدًا ومساء غد» ، فشكروه وانصرفوا إلى مخادعهم إلا أتابكه الأمير أقطاى المستعرب فقد بقى مع السلطان ، وبعد أن ساد الصمت بينهما برهة شكا إليه السلطان من تخاذل الأمراء فى مثل ذلك الوقت الحرج ، ونعى عليهم غرامهم بالخلاف والمكابرة وقلة شعورهم بالتبعة الملقاة على عواتقهم فى دفع الأعداء المتوحشين عن الوطن وإنقاذ بلاد الإسلام منهم .

فقال له الأتابك : «هون عليك يامولاى فإن فى مضاء عزمك ما يأخذ المسالك على تخاذلهم ، وقد فعلوا ذلك مرارًا فما لبثوا أن انصاعوا لأمرك ونزلوا على حكمك فاحتمل ذلك منهم فأنت أهل للاحتمال» .

قال السلطان: إنى قد أحتمل هذا منهم فى وقت السعة والأمن، ولكنى لا أستطيع احتماله فى وقت الضيق والحرب، وإنى سائلك فلتجبنى بدون مواربة ما رأيك فى الأمير بيبرس؟».

قال أقطاى: «ليس المسئول عنه بأعلم من السائل»، فبدره السلطان قائلاً: «أريد أن أعرف أما يزال يتصل بالأمراء سرًا ويحرضهم علي؟».

فأجابه الأتابك: «ما أظن ذلك يا مولانا، ومبلغ علمى به أنه منذ يوم القلعة إذ عاهدك على قتال التتار وفى بما عاهدك عليه فلم يحرضهم على العصيان ولم يحاول أن يصرفهم عنه، وإذا كان فيهم وسمع شيئًا من ذلك سكت ولم يشترك معهم».

قال السلطان: «ولكن هذا السكوت هو الذى أتعبنى منه ياأقطاى».

فقال الأتابك: «ولكن مولانا قد رضى هذا السكوت منه».

فقال السلطان: «نعم قد رضيته منه، ولكنى كنت أحسبه يرجع إلى صوابه فيما بعد، ويخلص للأمر الذى نعمل له، فلا يدع هؤلاء يتآمرون على عصيانى بين سمعه وبصره دون أن يصدهم عن ذلك بفعل أو قول، ألا ترى معى يا أقطاى أنه لولا وجود بيبرس وحياده هذا لما اجترأ أصحابه هؤلاء على شيء مما فعلوه؟.»

قال أقطاى: «الأمر لمولانا السلطان، إذا شاء أنفذت أمره فى أكبر رأس يشتمل عليه هذا المعسكر».

قال السلطان: «لا يا أقطاى لا نستغنى عن بيبرس، إنى لا أريد أن أحرم المسلمين شجاعة هذا الرجل وقوته. وقد رأيت منه انبعاثًا للخروج ورغبة صادقة فى قتال التتار، ولعل الله ينصر به المسلمين نصرًا مؤزرًا».

وأشار السلطان على أتابكه أن ينام قليلاً ليستريح، واضطجع هو على فراشه فنام نومة خفيفة وكذلك فعل الأتابك.

ولما كان الهزيع الأخير من الليل هب السلطان من نومه، وأيقظ أتابكه، وأوعز إليه أن يصدر الأوامر للجنود بالسُّرَى، فهب المعسكر كله من نومه وأخذ فى الاستعداد للمسير، وبينما هم كذلك إذ بلغ السلطان تلكؤ الأمراء عن المسير فلم يكترث بهم ولم يقل لهم شيئًا بل ركب هو وركب معه رجال وقال: «أنا ألقى التتار بنفسى!»، فلما رأى الأمراء المتلكئون ذلك منه أدركهم الخجل فركبوا معه على كره.

وكان السلطان قد أمر الأمير بيبرس أن يتقدم فى جمع من الجنود ليكون طليعة يعرف له أخبار التتار، فسار بيبرس والجمع الذى معه سيرًا حثيثًا حتى وصل غزة وبها طلائع التتار. فناوشهم القتال فانهزموا، إذ ظنوا أن وراءه جيشا عظيما وتركوا له غزة فدخلها ونزل فيها بجمعه حتى وافاه السلطان بالجنود فأقام فيها يوما يستجم ويدبر الخطط.

وهناك وافته السلطانة جلنار راكبة على جوادها وهى بملابس الفرسان من الأمراء إلا قناعا من الحرير الأسود مسدولا على وجهها لولاه لقلَّ من يستطيع تمييزها عنهم وتصحبها جاريتان حبشيتان على بغلتيهما ، ويسير حولها جماعة من العبيد السود يحرسونها ويقومون بخدمتها ، فضرب لها مخيم خلف المخيم السلطانى جعل السلطان يتردد عليها فيه .

ولاح للسلطان أن عكا بيد الفرنج ، وأنهم قد يغدرون بالمسلمين عندما يلقون التتار فيطعنونهم من الخلف ، فرأى أن يقطع عليهم هذا السبيل فتوجه إلى عكا من طريق الساحل بعدما بعث إليها رسلا من قبله ، حتى إذا شارفها وعلم أهلها بدنوه منهم خرجوا إليه بالألطاف والهدايا ، فقال لهم السلطان : «إنه لا ينوى بهم السوء ولم يخرج لقتالهم ، وإنما خرج لقتال التتار فعليهم أن يلزموا الحياد التام» . فخافوا منه وألطفوا له القول وأعربوا له عن إخلاصهم وولائهم له ، وعرضوا عليه أن يسيروا معه نجدة من الجنود ، فشكرهم وقال لهم : «إن جيشه لا يحتاج إلى معونة أحد» . ثم استحلفهم أن يكونوا لا له ولا عليه ، وأقسم لئن تبعه فارس منهم أو راجل يريد أذى المسلمين ليرجعن إليهم فيقاتلهم قبل أن يلقى التتار .

وكان هؤلاء الفرنج قد كاتبوا التتار قبل ذلك يعلمونهم بأنهم معهم على المسلمين ، وأنهم على استعداد ليجيئوا المسلمين من خلفهم إذا تقدموا لقتالهم ، ولكنهم لما رأوا انهزام طلائع التتار وجلاءهم من غزة خشوا أن ينقض عليهم المسلمون فاتبعوا سبيل الوفاق معهم ، ولم يكتف السلطان بوعدهم وإيمانهم حتى شرط عليهم أن يبقى فى الحصون القائمة على منافذ عكا حاميات من عسكره ، ليضمن بذلك بقاءهم على الحياد ، فوافقوا على ذلك مكرهين .

ورحل السلطان عن عكا حتى إذا عسكر بعيدًا عنها ، جمع الأمراء والقواد ومقدمى الجنود فوقف بينهم خطيبًا على جواده ، وجعل يحضهم على قتال العدو يذكرهم بما حاق بأهل الأقاليم من القتل والسبى والحريق ، ويخوفهم وقوع مثل ذلك لهم ولبلادهم ثم حثهم على استنقاذ بلاد الشام من أيدى التتار ، ونصرة الإسلام والمسلمين ، وحذرهم عقوبة الله وغضبه إذا هم قصروا فى جهادهم ، فضج السامعون بالبكاء ، وتحالفوا على الصدق والاجتهاد فى قتال التتار ، وحينئذ دعا السلطان الأمير بيبرس وأمره أن يسير بكتيبة من الجنود ، لتكون طليعة له ، فصدع بيبرس بأمر السلطان وسار بكتيبته حتى لقى طلائع التتار ، فكتب إلى السلطان يعلمه بذلك ، وأخذ يناوشهم فتارة يقدم عليهم وتارة يحجم عنهم ، يبغى بذلك مشاغلتهم وعدم الاشتباك معهم فى معركة فاصلة . واستمر على ذلك حتى وافاه السلطان عند عين جالوت فنزل بجنوده فى الغور ، ولما رأى طلائع التتار قدوم الجيش المصرى لزموا مواقعهم ينتظرون تكامل جموعهم المقبلة .

وكان الجيش طوال مسيره من الصالحية إلى غزة ومن غزة إلى عكا ومن عكا إلى عين جالوت يردد الأناشيد الحماسية :

وأمست ليلة الجمعة لخمس بقين من شهر رمضان، والسلطان مخيم بجنده فى الغور، ومن دونهم معسكر التتار تتوارد إليه جموعهم طوال الليل، وكلا الفريقين ينتظر النهار، ولا يشك فى أن غدًا سيكون يوم الفصل، ولم يأو الملك المظفر إلى فراشه ليلته هذه، بل قضاها فى ترتيب الجنود وتعيينهم فى مواقعهم، وإصدار الأوامر إلى قوادهم ومقدميهم، والتفكير فى خطط الهجوم. ولما غلبه النعاس من شدة التعب نام على مقعده، ولم يضع جنبه على الأرض.

وكان فى خلال ذلك يكثر من ذكر الله، وتلاوة ما يحفظ من آيات القرآن وسوره، ويطرق من حين إلى حين مخيم زوجته فيطمئن عليها ويخرج.

وكان هولاكو قد رحل من حلب يريد بلاده لأخبار وصلت إليه بوفاة أخيه منكوخان ملك التتار. وأناب عنه فى قيادة جنوده قائده الكبير كتبغا وأمره بمواصلة الغزو إلى مصر، ولكنه لما وصل إلى بلاد فارس، بلغه مسير سلطان مصر بجيوشه العظيمة الجرارة، فأقام بها ينتظر ما تتمخض به الحوادث.

ولما طلع الصباح تراءى الجمعان فتهيب كلاهما لقاء الآخر؛ لأنه يعلم أن المعركة التى هو خائضها ستقرر مصيره، وحبس كليهما عن التقدم للقاء الآخر حابس. أما التتار فلم يصل كتبغا قائدهم الكبير، فوقفوا ينتظرون قدومه, وأما المسلمون فقد انتظر بهم الملك وقت صلاة الجمعة؛ ليباشروا قتال أعدائهم وخطباء المسلمين على المنابر يدعون لهم بالتأييد والنصر.

ووصل كتبغا قبل الزوال بساعة فما لبث أن رتب جنوده وساقها للقاء الملك المظفر، وكان الملك المظفر إذا ذاك قد عين جنوده فى مواقعهم، فجعل الأمير ركن الدين بيبرس على ميسرته، والأمير بهادر المعزى على ميمنته ، وكان هو على القلب وحوله جماعة من أبطاله ومماليكه، بينهم الصبى «التترى» الذى كان استبقاه من رسل التتار، واتخذه مملوكا له، ووكل به من علمه فرائض الدين، فكان يسير معه لا يكاد يفارقه. وكان الملك المظفر يحبه لذكائه وفطنته، ويقول له: أنت ملك التتار، فكان رجال المظفر يدعونه دائمًا ملك التتار، وكان الصبى يزهو بذلك فيضحكون له.

وما لبث الجيشان أن تقاربا، فأخذت سهام التتار تمرق فى صفوف جيش الملك المظفر فتجرح وتقتل فيه.

فلما اشتد ذلك على الجند أمر السلطان رجاله بالهجوم عليهم، فاندفعوا إلى الأمام، حتى تصافحت الصفوف الأمامية من كلا الفريقين بالسيوف. واشتد القتال واستبسل الفريقان استبسالا عظيمًا، واستحر فيهما القتل، إلا أن الجند كانوا لذلك الحين ظاهرين على أعدائهم.

وكان الملك المظفر فى وسط القلب ينظر إلى القتال بصدر منشرح كأنه سره أن يرى أصحابه يهجمون على التتار بعد أن كانوا يخشون لقاءهم ويظنون أنهم قوم لا يغلبون لكثرة ما سمعوا من أخبار شجاعتهم وتوحشهم وهو يدفع أبطاله ويحض رجاله على التقدم

وكانت السلطانة جلنار قد جعلت همها حماية زوجها من الغيلة ، فجعلت تلاحظه وهى على جوادها من تل مرتفع خلف السلطان ، وتراقب من حوله فرأت خمسة فرسان من التتار اندفعوا كالسهم إلى جهة السلطان ، فوجئ السلطان ودهش ، وفوجئ من حوله من الرجال فاضطربوا ، ولكن السلطان تلقاهم بسيفه فجندل ثلاثة منهم .

وإذا بفارس تترى قد رمى السلطان بسهم من خلفه فأخطأه وأصاب الفرس فترجل السلطان وقصده الفارسان التتريان ، فجعل يحيص عنهما ، ثم قصد أحدهما فضرب قوائم فرسه فوقعت به وكاد الفارس التترى الآخر يعلو السلطان بسيفه لو لم يبرز له فارس ملثم شغله عن ذلك ، فاختلفا ضربتين بالسيف فخرا صريعين .

وصاح الفارس الملثم : صن نفسك يا سلطان المسلمين ! ها قد سبقتك إلى الجنة ! وكان هذا الفارس قبل ذلك قد أطار رأس الفارس التتري .

وكان فرسان الحرس السلطانى قد ثاب إليهم رشدهم إذ ذاك فاجتمعوا حول السلطان وقبضوا على الفارس الذى ضرب السلطان قوائم فرسه فقتلوه ، وسدوا الثغرة الأمامية وتكاثفوا فيها دون السلطان فلم يدعوا أحدًا يقترب منه ، وتذكر السلطان صوت الفارس الملثم فارتاب فى أمره فقصد إليه وكشف عن وجهه فإذا السلطانة جلنار وهى تجود بنفسها ، فهاله الأمر وحملها وهو لا يعقل ما يفعل ، وبعث إلى بيبرس وهو على الميسرة ليحل محله فى القلب ، وانفتل هو منطلقا إلى المخيم فلقى أقطاى الأتابك على الباب فقال له : «لا ترع هذه سلطانتك جريحه ، فعلى بالطبيب والجاريتين» . فذهب أقطاى ليحضرهم ، وأضجعها السلطان على فراشه وجعل يقبل جبينها والدموع تنهمر من عينيه وهو يقول لها : « وازوجاه ! واحبيبتاه ! » . فأحست به ورفعت طرفها إليه وقالت له بصوت ضعيف متقطع وهى تجود بروحها فى السياق» « لاتقل واحبيبتاه . . قل واإسلاماه !» . وما لبث أن لفظت الروح بين يديه حين حضرت الجاريتان الحبشيتان مرتاعتين وخلفهما الطبيب . فطبع السلطان على جبينها القبلة الأخيرة ، ومسح دموعه ونهض تاركا زوجته الشهيدة للطبيب والجاريتين يتولون تجهيزها ، وخرج من المخيم فامتطى جوادًا طار به إلى ساحة القتال .

وكان قد شاع فى جند الجيش خبر مصرع السلطانة جلنار ، وانتشر فيهم كالنارفى الهشيم ، وخالطهم من ذلك أسف ووجوم . وشاع فيهم أيضًا أن السلطان احتملها إلى المخيم وترك مكانه للأمير بيبرس . فلما رأوه عاد إلى محله صاحوا جميعًا : « الله أكبر» . وتمثلت لهم بطولة السلطانة الصريعة ، فشعروا بهوان أنفسهم عليهم ، وحملوا واستبسلوا .

ولما رأى التتار ذلك ـ وكانوا قد فرحوا بغياب السلطان ، وظن كثير منهم أنه قتل ـ حموا أيضًا واستماتوا فى الهجوم ، فاضطربت ميمنة الجيش التى عليها الأمير بهادر ، حتى صار صف الجيش خطا مائلاً مقدمة الميسرة عليها بيبرس ، ومؤخرة الميمنة التى انكشفت ، حتى تعرض القلب لهجمات

التتار الحامية، وقد أدركوا أن فيه السلطان فاندفعوا لاختراقه، وضغطوا عليه حتى تقهقر قليلاً، فكاد يوازى الميمنة المنكشفة، وصار الصف بذلك أشبه بضلعين لزاوية منفرجة.

وعندما تقدم السلطان قليلاً إلى الأمام فكشف عن خوذته وألقى بها إلى الأرض وصرخ بأعلى صوته ثلاثا: «وا إسلاماه»، وحمل بنفسه وبمن معه حملة صادقة، وتردد صوته هذا فى أرجاء الغور فسمعه معظم الجنود ورددوه معه، وحملوا حملة عنيفة انتعشت بها الميمنة. فتقدمت ببطء شديد من كثافة جموع التتار الذين حاولوا منها أن يطوقوا الجيش، وبصر السلطان بكتبغا قائد التتار، وقد حمى واستبسل وهو يضرب بسيفين، وكلما عقر جواده استبدل به جوادًا آخر، وكأنما كان يترقب الفرصة ليشق لبعض مقدمى رجاله منفرجا يصلون به إلى السلطان.

وكان الأمير بيبرس إذ ذاك يحض بعض أصحابه على القتال، ولا يدع لهم مجالا للتقهقر مهما اشتد بهم الضغط ، فكأنما كانوا مقيدين بسلسلة طرفاها فى يده، فثبتوا ثبات الرواسى، وكثر القتل فيهم وفى أعدائهم، حتى أنهم ليطأون بحوافر خيولهم على جثث قتلاهم وصرعاهم، وكان يزج بنفسه فى مقدم الصف فيجندل ما يجندل من أبطال العدو، ثم يتراجع ويغوص بين أصحابه ، ويطوقهم من الخلف يحرضهم ويدفعهم إلى الأمام، وما أسرع ما يمرق من خلال صفوفهم حتى يبرز إلى المقدمة من ناحية أخرى وهكذا دواليك.

وكان فى كل ذلك حذرًا كأنما ينظر بألف عين، لا تفوته أقل حركة يقوم بها العدو، ولا أى تضعضع يبدو من قبل أصحابه، وكان مع ذلك موكل الطرف بالشجعان المعلمين من رجال العدو، يتخير أشدهم على جنده فيفجؤه بضربة لا تمهله فربما قدَّه وقدَّ جواده معه، وربما أطار رأسه فوثب الجواد بجسم لا رأس له! وكثيرًا ما وكل ذلك إلى أحد أبطال رجاله فيقول له: «اقتل هذا الفارس وخلاك ذم!»

وكان من جراء شجاعة بيبرس وصرامته أن تحامى العدو الميسرة واستضعفوا الميمنة واندفعوا إليها حتى كان من أمرها ما كان، ولم يفت بيبرس أن العدو لما رأى قوة الميسرة أمر ميمنته بالتأخر قليلا والانتشار إلى الغرب، وغرضه من ذلك أن تندفع ميسرة الجيش إلى الأمام فيقوموا بتطويقها فأبطل عليهم تدبيرهم هذا إذ أمر رجاله بالانتشار إلى الغرب أيضا وجعل تقدمه ببطء وحذر ريثما يرى ما يكون من ميمنة الجيش والقلب، حتى إذا سمع صرخة الملك المظفر: «وا إسلاماه» ورأى القلب يتقدم ويكر على صفوف الأعداء، وأدرك بفطنته أن السلطان يريد أن يطوق ميسرة التتار ويفصلها عن قلبهم إذ رآه يندفع بشطر من القلب فاخترق به صفوفهم - رأى الفرصة سانحة حينئذ ليقوم بحركة تطويق لميمنة التتار وقلبهم حتى يحصرهم بين ميسرته وبين الشطر الآخر من قلب المسلمين، فأمر رجاله بالتقهقر قليلا؛ ليندفع العدو إلى الأمام، وبالانتشار إلى الغرب ثم التقدم إلى الأمام فى شكل هلالى ينتهى طرفه الشمالى بخط مائل إلى الغرب؛ ليسد بذلك على العدو سبيل الالتفاف، ثم أمر رجاله

أن يضغطوا شيئًا فشيئًا على العدو فأخذ مجال العدو يضيق من ذلك الحين .

وكان الملك المظفر يقاتل قتال المستميت حاسر الرأس ، وقد أحمر وجهه وانتفش شعره ، فصار كأنه قطعة من اللهب يعلوها إعصار من الدخان الأسود ، وكان الناظر إليه – وهو يتقدم الصفوف ويضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال ، فكلما اعوج له سيف التمس له سيفا آخر ورمى الأول فى وجوه العدو ، وكلما جندل بطلاً من أبطال العدو صاح : «الله أكبر» - يشفق عليه ، ولا يشك فى أنه يتعرض للشهادة ، وأنه عما قليل سيصاب ، فعظم ذلك على خواص رجاله المخلصين لما رأوا من قلة حذره وتهاونه بنفسه إلى حد التهور ، فعزم أبطالهم على أن يقوه بأنفسهم ما استطاعوا ، فكان لا يتقدم خطوة إلى الأمام إلا تقدموا معه محيطين به فى نصف دائرة ، فاستحر القتل فيهم ولم يثنهم ذلك عن الاندفاع معه إلى حد التهور ؛ إذ لا سبيل لهم مع ذلك إلى الأخذ بجانب الحيطة والحذر .

وبصر السلطان بسهم يصوب نحوه فشد عنان جواده فوثب الجواد قائمًا على رجليه ، فنشب السهم فى صدر الجواد فتداعى ونزل عنه السلطان ومسح عرقه وهو يقول : «فى سبيل الله أيها الرفيق العزيز!» ، واستمر السلطان يقاتل راجلا وهو يصيح : «إلىّ بجواد!» فأراد بعض أصحابه أن ينزل عن فرسه فأبى السلطان عليه ذلك وقال له «اثبت مكانك ما كنت لأمنع المسلمين الانتفاع بك فى هذا الوقت!» .

وبقى يقاتل راجلا حتى جئ له بفرس من الجنائب فامتطاه وتوغل بشطر كبير من جيشه فيما بين قلب العدو وميسرته ، وبعث إلى الأمير بهادر قائد الميمنة بما عزم من تطويق ميسرة العدو ، فأمر الأمير بهادر رجاله بالانتشار إلى الشرق فى اتجاه شمالى .

وبقى الملك المظفر يحث أصحابه على توسيع المجال الذى اخترقه فى صفوف العدو ؛ ليقيم بذلك برزخًا قويا بين ميسرة العدو وسائر جيشه ، فلم يزل البرزخ يتسع بما يندفع فيه من صفوف الجيش المصرى ، وكان القتال أحمى ما يكون فى جانبى البرزخ ولا سيما فيما يلى قلب العدو ، حيث يرى كتبغا كبير التتار وقد استكلب فى القتال وهو يقاتل بسيفه ، وخواص رجاله يقونه بأنفسهم من الضربات فيصرعون أمامه وحواليه ، والملك المظفر يتردد بين البرزخ إليه فأراد المظفر أن يلقاه فتقدمه أصحابه يبغون أن يصدوه عن ذلك إشفاقا عليه ، والسلطان يقول لهم : »دعونى له ليس له قاتل غيرى ! أريد أن أقتله بيدى !» .

فلما أعياهم ذلك انتدب أحد أبطالهم وهو الأمير جمال الدين آقوش الشمسى - وكان يقاتل إلى جانب السلطان - فأبصر فرجة فاقتحمها إلى قائد التتار وصاح يخاطب السلطان : «يا خوند ! أنا يدك لقد قتلت عدو الله بيدك!» ، وأهوى بسيفه على عاتق الطاغية فأبانها ، وضربه كتبغا بيده الأخرى فصرعه من على فرسه ، ولكن الأمير آقوش كان قد زج حينئذ برمحه فى عنق الطاغية ، فلما هوى من فرسه هوى الطاغية معه ورمح آقوش ناشب فى حلقه وآقوش قابض على الرمح بيديه ، وكبر الأمير

آقوش وسيوف العدو تتعاوره من كل جانب ـ فكبر السلطان وكبر من حوله معه ، فعرف المسلمون أن كتبغا قد هلك ، فكبروا جميعا بصوت واحد ألقى الرعب فى قلوب التتار ، فازداد هلعهم واختلت صفوفهم وأخذوا يتقهقرون .

فأمر السلطان جنود البرزخ وصفوف الميمنة أن يكملوا تطويق ميسرة العدو ، واندفع باقى القلب إلى البرزخ ؛ ليساعد ميسرة المسلمين التى عليها الأمير بيبرس على تطويق من لم يتمكن من الفرار من قلب العدو وميمنته ، فانحصر معظم جيش العدو فى هاتين الدائرتين ، وحيل بينهم وبين الفرار ، فأوقع بهم المسلمون وأفنوهم ضربًا بالسيوف وطعنا بالرماح حتى امتلأ الغور بجثثهم وأشلائهم ولم يسلم منهم إلا القليل من ساقتهم الذين تمكنوا من الفرار ، واعتصم منهم جماعة بالتل المجاور لمكان الوقعة ، وأخذوا يمطرون المسلمين بوابل من سهامهم ، وأحدق بهم المسلمون وصابروهم فى القتال ، وحملوا عليهم مصعدين حتى سحقوهم سحقا بعد أن كثر قتل المسلمين دون هذا التل ، لما لقوه من سهام التتار التى تتساقط عليهم كالمطر ولا تكاد تخطئ أهدافها .

وانتهت المعركة وقد تهللت وجوه المسلمين فرحا واستبشارا بما أنعم الله عليهم من هذا النصر الكبير ، وبما غنموا من أموال التتار مما نهبوه وسلبوه من أغنى المدن والبلاد التى مروا بها ، فكانت غنيمة عظيمة لم ير مثلها فى حروب ذلك العهد .

وخر الملك المظفر ساجدًا لربه ، شاكرًا لما اجتباه من أنعمه ، وأطال السجود ثم رفع رأسه والدموع تتحادر على لحيته حتى سلم من صلاته فامتطى صهوة جواده ، وخطب فى جيشه قائلاً : »أيها المسلمون ! إن لسانى يعجز عن شكركم ، والله وحده قادر على أن يجزيكم الجزاء الأوفى . لقد صدقتم الله الجهاد فى سبيله ، فنصر قليلكم على كثير عدوكم ، وقال تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ ﴾ محمد : ٧

﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ البقرة : ٢٤٩

إياكم والزهو بما صنعتم ، ولكن اشكروا الله واخضعوا لقوته وجلاله ، إنه ذو القوة المتين ، وما يدريكم لعل دعوات إخوانكم المسلمين على المنابر فى الساعة التى حملتهم فيها على عدوكم من هذا اليوم العظيم ، يوم الجمعة ، وفى هذا الشهر العظيم ، شهر رمضان ، كانت أمضى على عدوكم من السيوف التى بها ضربتم ، والرماح التى بها طعنتم ، والقسى التى بها رميتم ، واعلموا أنكم لم تنتهوا من الجهاد وإنما بدأتموه ، وأن الله ورسوله لن يرضيا عنكم حتى تقضوا حق الاسلام بطرد أعدائه من سائر بلاده ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ألا فترحموا على إخوانكم الذين علم الله مافى قلوبهم من الإيمان والخير ، فاختار لهم الشهادة والجنة ، واختار لكم النصر والبقاء ، لتعودوا للجهاد فى سبيله ، وما عند الله خير وأبقى ، وترحموا على أمة الله سلطانتكم ، فقد صدقت الله ما عاهدته عليه ، وآثرت ما عنده على ما عند عبده قطز !« .

وهنا أدركته الرقة فبكى وعلا نحيبه، فبكى المسلمون جميعا وتعالت أصواتهم بالنحيب، وهم يقولون: «يرحمها الله! يرحمها الله».

ثم تلا السلطان قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ آل عمران ١٦٩ : ١٧٠



١ . كيف قضى الملك المظفر عشرة أشهر من ملكه لم يعرف للراحة طعما؟

٢ . ماذا قدمت زوجة الملك المظفر له وهل وقفت بجانبه؟ وضح ذلك.

٣ . انعقد لواء النصر لقطز فى شهر رمضان كما انعقد لمصر فى شهر رمضان. وضح ذلك.

٤ . من الفارس الملثم الذى حمى الملك المظفر؟

٥ . ماذا قالت جلنار حين أفاقت؟

٦ . كيف انتهت المعركة؟



الفصل الخامس عشر

فرغ الملك المظفر بعد ذلك لمحاكمة الأسرى من المسلمين الذين انضموا إلى التتار وأقبلوا من الشام يقاتلون إخوانهم المسلمين مع أعدائهم، فقدموا إليه فردًا فردًا ، فكلما تقدم إليه واحد منهم سأله عن اسمه واسم أبيه واسم بلده ، وعن عمله وحاله من الفقر والغنى، ثم سأله عن التتار وماذا يعتقد فيهم، وما حمله على القتال معهم، فكانوا يجيبونه بأجوبة مختلفة ، فإذا تبين له من كلام المسئول أنه لا عذر له من اضطرار أو كره أو جهل أمر به فضربت عنقه، وإلا بين له سوء عمله ، واستتابه وضمه إلى جيشه بعد أن أعلمه أن حكمه القتل ، ولكنه عفا عنه لما يتوسم فيه من بقية خير!

وكان في هؤلاء الأسرى ملك من ملوك آل أيوب انضم إلى التتار، وقاتل معهم المسلمين يوم الغور قتالًا شديدًا ، فأمر به السلطان فجيء به إليه يرسف في قيوده ، فقتله السلطان بيده جزاء له على خيانته وفسقه، ليكون عبرة لغيره من الملوك الذين يتمالأون مع أعدائهم على أمتهم ودينهم.

ثم تحرك الملك المظفر بعساكره إلى طبرية حيث أرسل كتابًا إلى أهل دمشق يخبرهم بالفتح وكسر العدو ، ويعدهم بالوصول إليهم ونشر العدل فيهم، وأنه سيولى عليهم خير من يرتضونه من ملوكهم وأمرائهم ، وأمرهم بالقبض على أعوان التتار وأنصارهم من أهالي دمشق حتى يصل إليها فيرى رأيه فيهم .

وبعث بكتاب آخر في معناه لمولاه الأول السيد ابن الزعيم الذي كان مختبئًا في بعض ضواحي دمشق، وكان ابن الزعيم يتنسم أخبار مملوكه قطز منذ فارقه إلى الديار المصرية مع خادمه الحاج علي الفراش ، وكان يراسله الفينة بعد الفينة ويشجعه على تحقيق البشارة النبوية حتى إذا جلس قطز على أريكة السلطنة كتب إليه يهنئه بها ، وختم رسالته بهذا الإمضاء: «من خادمك المطيع ابن الزعيم». فلما قرأها الملك المظفر بكى وقال: «الحمد لله الذي ولى عبده قطز على عباده المسلمين»، وكان ابن الزعيم بعد ذلك يوالي الرسائل إليه، ويصف له أحوال دمشق وغيرها من بلاد الشام، ودخائل ملوكها وأمرائها وزعمائها ومواقفهم من معاداة التتار وموالاتهم ، فاسترشد السلطان بهذه الرسائل في حملته هذه على بلاد الشام وتطهيرها من دسائس التتار.

وما لبث الملك المظفر أن وصل بجنده إلى ظاهر دمشق في آخر يوم من شهر رمضان ، فخيم حيث وافاه السيد ابن الزعيم ففرح به السلطان فرحًا عظيمًا، وطفقا يتعانقان طويلًا والدموع تنهمر من عيونهما، وعيّد السلطان في ذلك الموضع ، وذبح الذبائح فأطعم الفقراء والمساكين من أهل القرى المجاورة ، وأشار على ابن الزعيم فصلى به وبعساكره صلاة عيد الفطر، وتمنى كلاهما لو أن الشيخ ابن عبد السلام كان حاضرًا ذلك اليوم ليؤم الناس.

ثم دخل السلطان مدينة دمشق، ففرح به أهلها ، وأقاموا له الزينات، واستقبلوه بالطبول والأعلام، ونثروا على طريقه الأزهار والرياحين، حتى نزل بقلعتها، وكان أول شيء فعله عقب دخوله دمشق أن سير الأمير بيبرس بجيش كبير فطارد فلول التتار، وقتل منهم خلقًا عظيمًا، ونازل حمايتهم الكبيرة بحمص حتى مزق شملهم واستولى على حمص بعد أن قتل خلائق منهم وأسر وهرب الباقون في طريق الساحل فتخطفهم عامة المسلمين ولم ينج منهم أحد. وكانت وقعة حمص هذه آخر أمر التتار ببلاد الشام، فقد هربوا بعدها من حلب وغيرها ، وألقوا ما كان بأيديهم من أموال ومتاع، ونجوا بأرواحهم فارين إلى بلادهم.

ولما بلغ هولاكو وهو ببلاد فارس انهزام عسكره وقتل نائبه الكبير كتبغًا عَظم عليه الخطب ، فإنه لم يكسر له عسكر قبل ذلك، ولم يهدأ غضبه حتى قتل من لحق به من خونة ملوك الشام وأولادهم، فلقوا جزاء خيانتهم بيد من مالؤوه على إخوانهم المسلمين، إلا واحدًا منهم عشقته زوجة هولاكو فشفعت له عند زوجها فعاش طليق امرأة كافرة! ورحل طاغية التتار الأكبر ليومه بمن بقى من جموعه إلى بلاده، تشيعه لعنة الله ولعنات المسلمين.



١ . ماذا فعل الملك المظفر بالأسرى المسلمين الذين انضموا إلى التتار؟

٢ . هل كاتب الملك المظفر ابن الزعيم الذي كان يتنسم أخباره؟

٣ . كيف التقى الملك المظفر بابن الزعيم في دمشق؟

٤ . صف لقاء أهل دمشق للملك المظفر.

٥ . ما الذي فعله هولاكو حين بلغه انهزام عسكره وقتل نائبه الكبير؟



الفصل السادس عشر

استطاع الملك المظفر إلى هذا الحين أن يكبت حزنه على زوجته الشهيدة منذ سمعها تقول له: «لا تقل واحبيبتاه قل وا إسلاماه»، فحبس دمعه واستمر منطويًا على لوعته ما كان خطر التتار قائمًا في بلاد الشام، فلما انتهى أمرهم بعد وقعة حمص وهرب الباقون منهم ناجين بأرواحهم إلى بلادهم، وأكمل هو تدبير بلاد الشام وجعلها بأيدي من اصطافهم من ملوكها وأمرائها ممن قاتل أو حسنت توبته، شعر بأنه قد قام بما أوجبه الله عليه من الصبر على مصيبته بفقد زوجته لئلا يشغله الحزن عليها عن كمال الاضطلاع بالأمر العظيم الذي عاهد الله على القيام به، فرجع إلى نفسه وفكر في مصابه فإذا هو قد فقد سلواه الوحيدة في الحياة بفقد جلنار، فانفجر ما كان حبيسًا في نفسه من الحزن إذ ضعف عن مغالبته ولم يعد يقوى على احتماله، فسالت دموعه حتى تقرحت جفونه، وأظلمت الدنيا في عينه، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، وجعل يتذكر مصرع جلنار، وكيف احتملها إلى المخيم، وكيف قالت له تلك الكلمة التي صرخ بها ساعة العسرة في الجيش فكانت مفتاح النصر، ثم تذكر أنها لن تعود إلى مصر، ولن تشاطره فرح الناس بمقدمه ظافرًا منتصرًا تقام له الزينات والأفراح وتدق له الطبول وترفع الأعلام وتنثر في طريقه الأزهار والرياحين، وأنه سيأوى إلى قلعة الجبل وحيدًا لا أنيس له، وسيعود إلى الاضطلاع بشئون الحكم وتدبير أمور الدولة، وأنى له القدرة اليوم – وقد ضعفت نفسه وخارت عزيمته – على كبح جماح الأمراء المماليك وغرامهم بالخلاف وتكالبهم على السلطة والجاه؟! أيدع البلاد لهم فتعود إلى سيرتها الأولى من الظلم والفساد والفوضى والاضطراب، وتنطلق أيديهم في أموال الأمة وخيرات البلاد فيبتزونها بالباطل، ويعودون إلى اكتناز الذهب والفضة والجواهر، غافلين عن مصالح البلاد، غير آبهين لما يتهددها من الأخطار، حتى تحل بها كارثة لعلها تكون أعظم من كارثة التتار، وقد رأى كيف أنهم لم يخرجوا معه لقتال التتار إلا بالإكراه والقسر، وبعد أن تعب في ممارستهم ومعالجتهم باللين وبالشدة، ولقي منهم من التخاذل والتقاعس والتواكل مرة بعد مرة ما كان كافيًا لصد أمضى العزائم وتخذيل أقوى النفوس حماسة ويقينًا لو لم يظهره الله عليهم بتأييد من عنده.

وقد كان له في الدنيا أمل هون عليه كل ما لقى في سبيل ذلك من المتاعب، وذلل كل ما قام في طريقه من المصاعب، فأين ذلك الأمل اليوم؟ لقد انطوى إلى الأبد، أين جلنار التي كانت تشاطره همومه وآلامه، وتمسح بيدها الرقيقة شكواه، وتطرد عن نفسه اليأس، وتنعش في قلبه الأمل، وتذكي في فؤاده الرغبة في الحياة والمجد؟ وما لذة الحياة بعد جلنار؟ وفيم يطلب المجد وقد نامت العين التي كانت تباركه وتسهر عليه؟

أين جلنار التي كان يشهد فيها بقية أهل بيته الذين نكبهم التتار؟ وها هو ذا قد انتقم لهم وللإسلام

من التتار. ما أحقر هذه الحياة الدنيا لذوي النفوس الشاغرة !، وما أهونها على من ينظر في صميمهالا، ولا ينخدع بزخرفها وباطل نعيمها ! لقد كتب الله عليها ألا يتم فيها شيء إلا لحقه النقصان، ولا يربح فيها امرؤ إلا أدركه الخسران.

طغى الحزن الجبار على تلك النفس القوية فوهنت، وعلى تلك العزيمة الماضية فكلَّت، وعلى تلك الهمة الطائرة فهيض جناحها وعلى ذلك الرأي الجميع فانتقض غزله من بعد قوة أنكاثا، وأصبح الملك المظفر يائسًا في الحياة يستثقل ظلها، ويستطيل أمدها، ويود لو استطاع فجاز ما بقى له فيها من الأيام مرحلة واحدة، إلى حيث يلقى حبيبته الشهيدة في مقعد صدق عند مليك مقتدر!

ولكن الذي هزم التتار، وحمى الإسلام في وقعة عين جالوت فأضافها إلى أخواتها الكبرى، بدر، وأحد، والقادسية، واليرموك، وحطين، وفارسكور - لم يكن لينسى إذا هو عاف الحكم وضاق ذرعًا بالحياة أن ينظر للإسلام وأهلة، فيختار من بين المسلمين رجلًا قويًا يعد إليه بحكمهم، ويبرأ به إلى الله من تبعتهم فظل أيامًا يتلفت فيمن حوله من المملوك والأمراء، فما ملأ عينه منهم إلا صديقه القديم وعدوه العنيد ونصيره في جهاد التتار: الأمير ركن الدين بيبرس وقد رآه - على ما فيه من الخديعة والمكر والتكالب على الرياسة والحكم - أقومهم جميعًا بالأمر، وأقدرهم عليه، وأجدرهم أن يسوق الناس بعصاه ويحملهم على ما فيه استقامة أمورهم، ودوام قوتهم وعزتهم، وبقاء هيبة الإسلام في صدور أعدائه. فعزم على أن ينزل له عن الحكم ويتخلى له عن عرش مصر عاصمة المسلمين وملاذهم، ومظهر قوتهم وسلطانهم.

ولكنه رأى أن يكتم هذا الأمر عن الناس حتى يعود إلى مصر، خوفًا من الفتنة وخشية من انتقاض الأمراء المماليك واختلافهم إذا سمعو بذلك، ولاسيما المعزية منهم، إذ كانوا يرون أنفسهم أولى من غيرهم يالحظوة والتقدم عند المظفر، لما بينه من صلة الخشداشية، والانتساب إلى أستاذ واحد هو الملك المعز عز الدين أيبك، وكانوا قد نقموا على السلطان أنه ساواهم بالأمراء الصالحية في الإقطاعات التي أقطعهم أياها ببلاد الشام، واعتقدوا أنه ظلمهم بذلك، وتحدث بعضهم إلى بعض في مطالبة السلطان بحقهم المهضوم، والالتجاء إلى القوة في إكراهه على ذلك إذا اضطروا إليها، ولكنهم خشوا أن يتشيع الصالحية للسلطان، ويكونوا معه إلبًا واحدًا عليهم، فأرجأوا التفكير في ذلك إلى فرصة ملائمة.

وكان الأمير بيبرس قد سأل السلطان أن يعطيه نيابة حلب فوعده بذلك ولكنه لما عزم على النزول له عن الحكم كله وتوليته سلطانًا على مصر مكانه لم يبق عنده موضع للوفاء للأمير بيبرس بما وعد، فأعطى نيابة حلب لأحد ملوك الشام.

ولما بلغ ذلك الأمير بيبرس، غضب غضبًا شديدًا على السلطان، واضطرم حقدًا عليه، وأيقن أن السلطان، إنما حسده على ما أظفره هو من آيات البطولة، في قتال التتار، ومطاردتهم إلى أقاصى البلاد، فخشى أن ينافسه في الحكم ويؤيده الناس في ذلك فأراد بهذا اهتضامه وإذلاله، وإشعاره بقوته

وسلطانه، وقدرته عليه وعلى رجاله، بعد أن خضعت له رقاب الملوك، ودانت له بلاد الشام قاطبة.

ومما قوى هذا الظن عند بيبرس أمران: أحدهما أنه كان ينوي منافسة السلطان حقًّا حين طلب منه نيابة حلب؛ ليستقل بها، ويتخذها بعد ذلك نواة لإشباع مطامعه، بالاستيلاء على ما دونها من البلاد، حتى يضم الشام جميعًا تحت لوائه، وحينئذ ينازع الملك المظفر على عرش مصر، ولم يختر نيابة حلب في أقصى الشام عبثًا، فقد آثارها لأنها ببعدها عن مركز السلطان، أصلح من غيرها للقيام بحركته. وثانيهما أنه لم ينس ما كان منه في مصر، من تحريض الأمراء على السلطان، حين دعاهم السلطان للنزول عن أملاكهم لبيت المال، فظن أن السلطان إنما اغتفر له ذلك، واستبقاه لحاجته إليه يومئذ، حتى إذا استغنى عنه، وتمكن منه، عاقبه على ما سلف من ذنبه، لئلا يعود في المستقبل إلى مثله.

هذا ما وقر في قلب بيبرس، ولم يكن يعلم من نية السلطان شيئًا، إذ لم يشأ السلطان أن يخبره بما طوى عليه عزمه، لاعتقاده أن بيبرس لن يقدر على كتمانه، ولابد أن يبوح بهذا السر لأصحابه فينشر الخبر، ويقع الاختلاف المحذور.

ولم يكن ما سبق رأي بيبرس وحده، بل شايعه على ذلك أصحابه من الأمراء الصالحية، ومماليكهم وأتباعهم، فأوغروا صدره على السلطان وقالوا له: «لولاك لما صنع شيئًا، ولما قدر على هزيمة التتار، وهو الآن يملك بلاد الشام كلها، ويفرق ولايتها على من يشاء من الملوك والأمراء الذين لم يبلوا بلاءك، ولم يقوموا ببعض ما قمت به، من غير سابق وعد، ولا سالف عهده، ويبخل عليك بنيابة مدينة واحدة، في أقصى الشام، كنت طلبتها منه فوعدك بها، فهل تريد أشد من هذا إذلالًا لك، واستخفافًا بأمرك؟ وما يمسك يمسنا جميعًا، ولا يغرنك ما أقطعنا من الإقطاعات في الشام، فإنما أراد بذلك إسكاتنا إلى حين، ريثما يتمكن من رأسك، وحينئذ يستردها منا، ويردها على أصحابه، بعد التخلص منك».

وجاء بيبرس - وهو يكتم غضبه - إلى الملك المظفر، فعتب عليه أنه أخلف وعده وأعطى نيابة حلب لملك، لم يقم بمعشار ما قام هو به، من جهاد التتار، وطردهم عن البلاد.

فقال له السلطان: «إني لا أنكر يابيبرس بلاءك العظيم في قتال العدو، ولا أضن بعده بشيء عليك، ولكني أخشى إذا أنا وليتك على حلب، أن تغرك نفسك في ذلك الطرف القصي، فتستقل بحكمها، وتسعى لضم سائر البلاد إليك، وتشق بذلك كلمة المسلمين، وقد بلوت طبعك يا بيبرس، فلست أجهل مطامعك ونياتك».

فامتعض بيبرس واضطرب؛ لأن السلطان كشف الحجاب عن ذات صدره، وصرح له بأنه على علم بخبيئة نفسه ولكنه أخفى امتعاضه واضطرابه، وقال له: «سأحلف لك بأغلظ الإيمان أني لا أستقل عنك، ولا أنتقض عليك».

قال السلطان: «إن نفسك الأمارة بالسوء، لن تعدم سببًا تتعلل به لنقض إيمانك المغلظة».

قال بيبرس محتدًّا: «إذا كنت لا تنوي إعطائي نيابة حلب فلماذا وعدتني بها؟».

فأجابه السلطان: «وعدتك بها حين رأيت في ذلك مصلحة المسلمين، ومنعتك إياها حين خشيت من ذلك على كلمة المسلمين».

– إذن فأعطني نيابة دمشق فهي أقرب إليك من حلب.

– هيه يا بيبرس كيف تريد ممن لا يأمنك على طرف من أطراف بلاد الشام أن يأمنك على عاصمتها؟

فقال بيبرس وقد بان الغضب في وجهه: «إذن فما قصدك إلا مراوغتي واهتضام حقي، فابق على ما أنت عليه، فسأعرف ماذا أصنع!».

فضحك السلطان ضحكة خفيفة وقال له: «ها أنت ذا يا صديقي قد أظهرت عصياني وأنا بعد عندك، فكيف لو بعدت بي الدار عنك؟ إنك يا بيبرس – ما علمت – لشرس الطباع سريع البادرة، ولعل الله جعل في ذلك خيرًا للمسلمين، فاجتهد ألا تستعمله في غير موضعه، وأعلم أني ما أردت بمحاجتك إلا أن تثوب إلى رشدك، فلا تؤثر مصلحتك على مصلحة أمتك ودينك، ومن يدري لعلك تكون يومًا ما سلطانًا على المسلمين فليت شعري بأي خلق تسوسهم، وأي طريق تسلك بهم إذا كان هواك غالبًا على تقواك؟».

فقال بيبرس: «أسألك بالله يا خوند ألا تجمع عليّ بين المنع والسخرية، فإني أحتمل الأمر الأول، ولكني لا أحتمل الثاني».

قال السلطان: «إني والله ما أسخر منك يا بيبرس، فأنت حقًّا جدير بأن تكون سلطان المسلمين لو استطعت أن تدوس هواك بقدمك. ولكن دعنا الآن من حديث السلطنة فالله أعلم حيث يجعل ولاية المسلمين، أصغ إلى ما أريد أن أحدثك به: الحق أقول إني مامنعتك حلب أو دمشق إلا لحرصي على ألا تكون بعيدًا عني، فإني بحاجة إلى مثلك في مصر، فقد رأيت ما نزل بي من المصيبة بفقد السلطانة – رحمها الله – ولا آمن أن يغلبني الحزن فيشغلني عن القيام بواجبي نحو رعيتي، فأريد أن تستر نقصي وتجبر تقصيري».

فسكت بيبرس مليا يفكر فيما يجيب به السلطان وجعل ينظر إلى وجهه كأنه يريد أن يتبين قصده، فما رأى على السلطان إلا آيات الانكسار والحزن ودلائل الإخلاص والصدق، فحار في أمره وخشي أن يكون ذلك خديعة منه، ثم قال له: «أليس في وزير السلطان وأتابكه وكبار صحابه ما يغنيه عني؟».

فقال له السلطان: «إني لا أستغنى عمن ذكرت، فلهؤلاء شئونهم، ولكنهم لا يقومون لي بما تقوم به أنت».

قال بيبرس : «ماذا عسى أن ترجو من شرس مثلي ، لا يؤمن على ولاية صغيرة قاصية؟» .

فقال السلطان : «ما تزال يا بيبرس طامعًا في هذه الولاية الصغيرة ، وما تدري بأني محتفظ لك بخير منها ومن دمشق» .

فقال بيبرس «لعلها قصبة قليوب التي أقطعتني إياها !» .

فضحك السلطان مرة أخرى ، وقال له : «لا يا صديقي بيبرس ، بل خير منها كثيرًا ، إنها قلعة الجبل . . قلعة ال. . . . .» .

وهنا وقف السلطان ولم يتم كلمته ، وبقى برهة واجمًا كأنه ندم على تصريحه بذلك لبيبرس ، ثم استأنف حديثه قائلًا : «انصرف يا صديقي مطمئنًا فليس لك عندي إلا الخير» .

وما خرج الأمير بيبرس من عند السلطان ، حتى تلقاه جماعته الذين كانوا في انتظاره ، فرأوه أشد غمًا وأكثر حيرة مما كان قبل مقابلته السلطان في قلعة دمشق ، فبدأوه السؤال عما جرى بينه وبين الملك المظفر . فحدثهم بكل ما دار بينهما من الحوار ، وهم يصغون إليه ، حتى إذا ما انتهى إلى قول السلطان : «إنها قلعة الجبل» . قالوا له : «حسبك ، قد صرح لك السلطان بما يضمر لك ، إنه يعني أنك ستلقى مصرعك هناك كما لقي صاحبك أقطاي ، لله ما أشد جرأته عليك واستخفافه بك إذ يقول هذه الكلمة في وجهك وهو يضحك يتلهى بك» .

فبدرهم بيبرس قائلًا : «ولكنه قطع ضحكه بعد أن لفظ هذه الكلمة وبقى برهة واجمًا» .

قالوا : «إنه لا ريب ندم على تهوره هذا بالتصريح لك بما ينوي من قتلك» .

قال بيبرس ، وقد اشتد حنقه واحمرت عيناه : «قلعة الجبل ! لا والله لألحقنه بزوجته التي يبكيها قبل أن ترى عينه قلعة الجبل ! ما بالكم تنظرون إلي؟ ما رأيكم؟ أشيروا علي !» .

قالوا له : «إنك سريع التقلب يا بيبرس ، وإنا نخشى أن نشترك معك في هذا الأمر الخطير ، ثم تنكل عنه وتتركنا للسطان يتحكم في رقابنا !» .

قال بيبرس غاضبًا : «ويلكم أأترككم له وقد حلفت لكم لأقتلنَّه» .

قالوا له : ولكنك قد حلفت بمثل هذا عند قتل أقطاي ، ثم رجعت عن يمينك وعدت إليه تطلب منه الأمان فأقطعك قصبة قليوب ، فما يدرينا أنك لا تعود لمثلها فيقطعك قلعة الجبل ؟ !» .

فصاح بهم بيبرس : «كفى !» . فسكتوا جميعًا وبقوا كذلك برهة حتى قال لهم بيبرس : «ولكن ما رأيكم في المعزية ماذا نصنع بهم؟» .

قالوا له : «لقد كفاك الله مئونتهم ، إنهم غاضبون جميعًا على صاحبهم إذ سوى بيننا وبينهم في الإقطاعات ، وما علموا أنه إنما فعل ذلك خديعة لنا ليسكتنا إلى حين ، وهب أنهم قاموا له أتظننا

نعجز عنهم وقد قطعنا رأسهم؟ أقد نسيت يا بيبرس أننا هربنا من البلاد لما رمى إلينا برأس أقطاي ونحن يومئذ سبعمائة فارس؟».

فقال لهم بيبرس: «ما رأيكم في استمالة أقطاي المستعرب إلينا ليكون معنا في هذا الأمر؟».

فاختلفوا في الرأي، فمن قائل: «نستميله فهو صالحي مثلنا، وسيذلل لنا السبل لقتل السلطان»، ومن قائل: «بل نكتم هذا الأمر عنه فهو وإن كان صالحًا إلا أنه مخلص للسلطان وهواه مع المعزية، ولكنه إذا رآنا قد قطعنا الرأس فإنه عائد إلينا لا ريب».

وأخذ القوم بعد ذلك يتشاورون كيف وأين يقتلون السلطان! واتفق رأيهم آخر الأمر على أن يترصدوه في طريقه راجعًا إلى مصر حتى إذا أمكنتهم منه غرة تعاوروه بسيوفهم، وعلى أن يشركوا معهم في ذلك اثنين من المعزية هما الأمير سيف الدين بهادر والأمير بدر الدين بكتوت الجوكندار، ليكون ذلك أسهل في إرضاء المعزية إذا ثاروا لصاحبهم، حين يرون أن الصالحية لم ينفردوا بهذا الأمر، وقد اختاروا هذين الرجلين لشدة حقدهما على السلطان وحسدهما له.

وما هي إلا أيام حتى عزم الملك المظفر على الرجوع إلى مصر بعد أن رتب أحوال النواب والولاة ببلاد الشام، ورد المظالم إلى أصحابها، فأعاد إلى مولاه ابن الزعيم ما صادر التتار من أملاكه، وما صادره منها الملك الصالح إسماعيل قبل ذلك، وأحسن إلى صديقه القديم الحاج علي الفراش وأكرمه وخلع عليه وسأل عن موسى بن غانم المقدسي فقيل له إنه قد بدد ميراث أبيه فأصبح فقيرًا فأمر نائبه بدمشق فأجرى راتبًا له، وعن مولاته العجوز أم موسى فقيل له إنها ماتت فذهب إلى قبرها يزورها ويترحم عليها.

وخرج من دمشق بعد أن ودع مولاه ابن الزعيم وداعًا حارًا، وسار بعساكره وأمرائه المعزية والصالحية. وكان الأمير بيبرس لا يفارقه طوال الطريق يتحدث معه ويسليه عن مصابه. وقد أظهر له الرضا التام به، ولم يعد يذكر له حلب ولا دمشق، فإذا جرى ذكرهما عرضا في الحديث قال له بيبرس: «لقد اخترت لي الخير يا خوند، فإني لا أعدل بالإقامة في مصر بديلًا».

فلم يزل السلطان سائرًا إلى أن خرج من الغرابي وقارب الصالحية، وكان أتابكه أقطاي المستعرب قد سبقه إليها بالعساكر ومعظم الأمراء؛ ليعد بها الدهليز السلطاني لنزوله، فرأى السلطان أرنبًا بريًا منطلقًا في جانب الطريق، فلم يملك نفسه إذ رآه أن انحرف عن الدرب ودفع جواده يسوق وراء الأرنب، وقد خيل إليه إذ ذاك أن جلنار تسوق معه على جوادها الصغير لصيد الأرانب كما كانا يفعلان في ربوع الهند، فاستمر عدوه حتى أبعد في البرية، فما راعه إلا الأمير بيبرس وستة معه من الأمراء، فالتفت إليهم السلطان قائلًا: «أنتم أيضًا تحبون صيد الأرانب مثلي؟».

فأجابه بيبرس قائلًا: «إنك تعلم يا خوند أني لا أحب صيد الأرانب، ولما رأيناك أبعدت في البرية فخشينا عليك ولحقنا بك».

فقال السلطان: «شكرًا لكم لا خوف علي من عدو هنا». والتفت إلى الدرب وراءه فقال: «أرني أبعدت حقًا كما ذكرتم فهلم بنا نعد!».

فترجل بيبرس عن فرسه، ودنا منه ليقبل يده، فمد إليه السلطان يده، فقبض عليها بشدة - وكانت تلك إشارة بينه وبين جماعته الأمراء - فحمل أحدهم على السلطان فضرب عاتقه بالسيف، وتعلق به آخر فألقاه عن فرسه، ورماه ثالث بسهم في صدره.

وكان السلطان في خلال ذلك لا يبدي أية حركة للمقاومة وإنما كان يقول: «حسبي الله ونعم الوكيل .. أتقتلني يا صديقي بيبرس وأنا أريد أن أوليك سلطانًا مكاني؟».

فلما سمع ذلك بيبرس منعهم من الإجهاز عليه، فصاحوا به: «أراد أن يخدعك، دعنا نتم قتله». فأبى بيبرس عليهم فصاح الأمراء مرة ثانية: «دعنا يا بيبرس قبل أن يأتينا هؤلاء».

فقال لهم بيبرس: «دعوهم يأتوا إلينا، إنه لن ينجو مما به».

وكان بيبرس يريد أن يتوضح السلطان كلمته الأخيرة، وكان السلطان قد أغمي عليه إذ ذاك، فأحاطت بهم الفرسان شاهرين سيوفهم، وكانوا جماعة من خواص السلطان ومماليكه قد ارتابوا في سير الأمراء وراءه، فلحقوا بهم، فقالوا للأمراء: «ألقوا سلاحكم في الأرض وإلا قتلناكم!».

فانتبه السلطان لصوتهم ورفع طرفه إليهم، وهو ملقى على الأرض وقام بيبرس شاهرًا سيفه يريد مقاومتهم، واستعد الأمراء الآخرون للدفاع عن أنفسهم فحمل الفرسان على بيبرس يريدون قتله، فما راعهم إلا صوت السلطان: «دعوا بيبرس لا تقتلوه إنه سلطانكم قد وليته عليكم فأطيعوه!».

قال الفرسان: «إنهم قتلوك يا خوند، فلن نتركهم». قال السلطان: «ما قتلني غير سلطانكم بيبرس وقد سامحته، فاسمعوا له وأطيعوه، وقولوا للأتابك أن يسمع له ويطيع».

فدهش الفرسان لما سمعوا من السلطان، فوقفوا جامدين في أماكنهم وألقى بيبرس سيفه على الأرض ودنا من السلطان، وأهوى عليه يقبل رأسه ويديه، ويقول: «يا خوند اذبحني يا خوند! ويل لي قتلت سلطان المسلمين! قتلت هازم التتار! قتلت صديقي الكريم!».

وكان السلطان إذ ذاك قد تولاه مماليكه وأسندوه على ظهره وجعلوا يمسحون عنه الدم بمناديلهم وثيابهم، وهو يردد الشهادتين فتركه بيبرس لهم، والتقط سيفه وسار إلى الأمراء الواقفين وهو يصيح: «ويل لكم يا خونة يا مجرمين!»، فتحاماه الأمراء وجعلوا يتقهقرون عنه.

وعندئذ صاح السلطان بجهد ومشقة: «بيبرس! بيبرس! دعهم يا بيبرس، قد عفوت عنك وعنهم، وأنتم في حل جميعًا، شكرًا لكم قربتموني من زوجتي .. جلنار .. تعال يا بيبرس».

فعاد بيبرس واقترب منه، فقال السلطان: «أتستحل دمي يا بيبرس؟».

فأجابه بيبرس والدموع في عينيه : «كلا يا خوند وإنما خشيت أن تقتلني فاتقيت ذلك» .

فقال السلطان : «الحمد لله إذ لم تستحل دمي ، وإنما شط بك الظن ، قاتل أعداء الإسلام يا بيبرس . . هذه وصيتي لك ، ويغفر الله لك خطيئتك !» .

وصرف السلطان نظره عن بيبرس إلى السماء ، وتنهد من أعماق قلبه ، كأنما انتزعها من روحه انتزاعًا : «واحبيبتاه ! وا إسلاماه !» . وخفق رأسه خفقة ، لفظ على أثرها روحه ، فحمله مماليكه إلى حيث دفنوه مبكيًا عليه .

وانطلق بيبرس يتقدمه رجال السلطان الشهيد وخلفه سائر الأمراء حتى بلغوا الدهليز السلطاني بالصالحية فوجدوا على بابه الأتابك أقطاي المستعرب ، فأخبره رجال السلطان بما كان من مصرع مولاهم بأيدي الأمراء السبعة ، ومن وصيته لبيبرس بالسلطنة ، فعظم على أقطاي أن يغدر هؤلاء الأمراء بهذا السلطان العظيم ، في أوج انتصاره وساعة قفوله ظافرًا إلى بلاده ، ولكنه عجب من وصية السلطان لبيبرس وكيف لم يذكر له السلطان عنها شيئًا ، ولم يعرض له فيها بشيء ، ولولا أن خواص رجال السلطان أنفسهم حكوا له ذلك لما صدق هذا الخبر ، وقد زاد من غضبه ونقمته على بيبرس أن يشترك مع الستة في قتل من أراد أن ينزل له عن السلطنة .

وكان في وسع الأتابك أن يصنع شيئًا ، فقد ثار المعزية جميعًا لصاحبهم ، فلو أمرهم بالقبض على بيبرس وجماعته لأطاعوه ، ولكانوا ولوه سلطانًا إذا نجح في ذلك ولكنه رأى وصية السلطان لبيبرس حائلة دون ما يريد ، فعزم على تنفيذها والطاعة لبيبرس ، إلا أنه أراد أن يبكته على فعلته الشنيعة ويذكره أنه سيجلس على أريكة صديق له أراد به الخير فكان جزاؤه منه القتل .

ولما حضر بيبرس والأمراء الستة أدخلهم الأتابك إلى الدهليز ، وكان الأمراء المعزية ومماليك السلطان وأشياعه قد ركبوا إلى الدهليز فأحاطوا به متهيئين لما يسفر عنه الحادث ، وكذلك وقف الأمراء الصالحية ينتظرون ما يكون من بيبرس .

قال الأتابك أقطاي للأمراء السبعة : رحم الله مولانا السلطان ! من قتله منكم ؟ فسكتوا مليا ، وخشوا أن يكون أقطاي قد أعد العدة لقتلهم ، وكان الستة قبل ذلك يخافون بطش بيبرس ؛ لأنه نقم عليهم تحريضهم إياه على قتل السلطان ، فعادوا الآن يخافون أقطاي الأتابك .

ولكن بيبرس ما لبث أن أجاب الأتابك بصوت جهير تخالطه نغمة الحزن : «أنا قتلته !» .

فنظر إليه الأتابك نظرة دامعة عاتبة وقال له : «فاجلس على الأريكة مكانه يا خوند !» .

وأدرك بيبرس غرض الأتابك من تبكيته فلم يقل شيئًا ، بل مشي متثاقلًا إلى الأريكة حتى جلس عليها ، وبقى برهة واجمًا يغلب عبرة تترقرق في عينه ثم قال : «رحم الله صديقي المظفر ! هلموا نفذوا وصيته ، واحلفوا لسلطانكم الجديد الملك القاهر» ، ومد يده فصافحه الأتابك وحلف له ، وتبعه

الأمراء الستة فحلفوا له، ثم تتابع الأمراء الذين كانوا خارج الدهليز فدخلوا إليه وحلفوا له، ثم حلفت العساكر جميعًا.

ودخل الملك القاهر بيبرس إلى القاهرة - وكانت قد زينت لمقدم الملك المظفر فأبقيت كما هي - وسار في موكبه ولم يشأ أن ينزل قلعة الجبل إلا بعد أيام لحزنه على الملك المظفر، حتى قيل له إن سلطنتك لا تتم إلا إذا قمت بقلعة الجبل، فانتقل إليها حينئذ، وخوفوه من شؤم لقبه فعدل عنه وتلقب بالملك الظاهر.

وما سمع الناس بمصرع الملك المظفر وقدوم بيبرس سلطانًا مكانه حتى عراهم هم عظيم، وحزنوا على الملك المظفر حزنًا شديدًا، وبكوه بعيونهم وقلوبهم.

أما الشيخ ابن عبد السلام فلما بلغه موت تلميذه العظيم بكى وانتحب وكان مما قاله فيه: «رحم الله شبابه، لو عاش طويلًا لجدد شباب الإسلام! لله أبوه! ما منعه من اختيار بيبرس بغض بيبرس له، وما ولي أمر المسلمين بعد عمر بن عبد العزيز يعادله صلاحًا وعدلًا!».

وجهد الملك الظاهر بيبرس لينال رضى الناس عنه، فألغى الضرائب التي فرضها عليهم الملك المظفر لبيت المال، فهل رضوا عنه بعد ذلك؟ وماذا قالوا فيه؟ قالوا: «إنه أبطل ما علينا لبيت المال، ولم يبطل ما علينا لنفسه وأمرائه ومماليكه!».

على أن الملك الظاهر لم يأل جهدًا في العمل بوصية صديقه وسلفه الملك المظفر قطز، فقد ظل يذكرها ويقوم بها إلى آخر أيامه، فوفى للإسلام، وقاتل أعداءه من التتار والصليبيين حتى أذلهم، ونهض بمصر وأعلى كلمتها حتى جعلها في عهده إمبراطورية عظيمة باذخة.

ورئى الملك الظاهر بيبرس ذات يوم يقلب يده في أوراق الملك المظفر قطز، فعثر على كتاب هذا نصه:

إلى ولدي الأعز الأجل الملك المظفر قطز:

تلقيت كتابك جواب التهنئة باعتلائك عرش مصر، تذكر فيه عزمك على الرجوع إلى اسمك الأول الذي سماك به أبوك الأمير ممدود وإشهاره، ثم عدولك عن ذلك خشية أن ينتقض عليك الأمراء المماليك إذا علموا بأصلك، وتستشيرني في ذلك، فالرأي عندي ما رأيت، وليس العبرة بالأسماء، ولكن بالخلال والأعمال، والله يعلم أنك محمود بن ممدود ابن أخت السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، وأن التي تحت عصمتك هي ابنة خالك جلال الدين، فحسبك هذا من ربك، والناس يعلمون أنك مملوك علت به همته وكفايته وصلاحه، حتى صار من أعظم ملوك المسلمين وأعدلهم، وحسبك هذا من الناس.

والسلام مني ، ومن خادمك الأمين الحاج علي الفراش ، عليك وعلى شيخنا الإمام عز الدين ابن عبد السلام ، و السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

من خادمك المطيع – ابن الزعيم

فلما قرأ الملك الظاهر بيبرس هذا الكتاب تدحرجت دمعتان كبيرتان على خديه حتى توارتا في لحيته ، وجعل يقول بصوت لا يسمعه غيره : «رحمة الله عليك يا صديقي قطز ! لشد ما أتعبني اقتفاء أثرك ، وما أراني بعد الجهد الطويل أبلغ بعض ما بلغت» .



١ . حقد بيبرس على الملك المظفر ودبر له المؤامرات وغضب غضبًا شديدًا بين ذلك .

٢ . هل أجاب الملك المظفر طلب بيبرس نيابة حلب؟

٣ . «هية يا بيبرس كيف تريد ممن لا يأمنك على طرف من أطراف بلاد الشام أن يأمنك على عاصمتها» .
من القائل؟ وما المناسبة؟

٤ . بين كيف دبر بيبرس المؤامرة لاغتيال الملك المظفر وكيف تمت؟

٥ . لماذا بكى بيبرس حين اعتلى عرش مصر؟

المواصفات الفنية:

المقاس	$\frac{1}{8}$ (٥٧ × ٨٢ سم)
طبع المتن	٤ لون
طبع الغلاف	٤ لون
ورق المتن	٧٠ جم أبيض
ورق الغلاف	١٨٠ جم كوشيه
عدد الصفحات بالغلاف	١٢٤ صفحة
رقم الكتاب	**٢٣٥**

http: //elearing.moe.gov.eg

